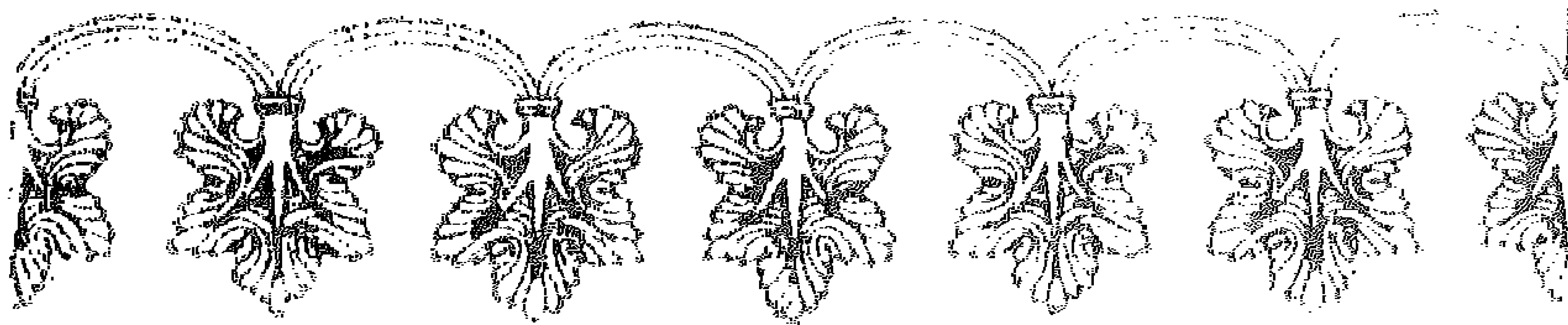
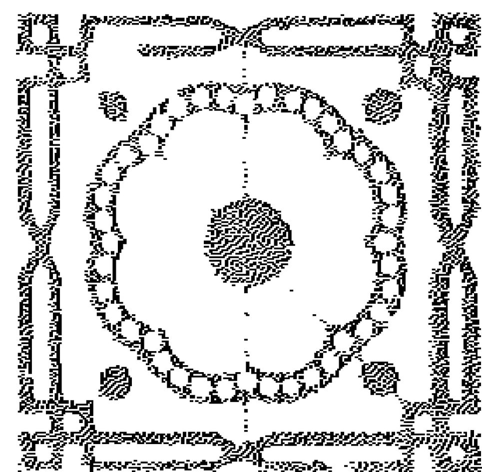
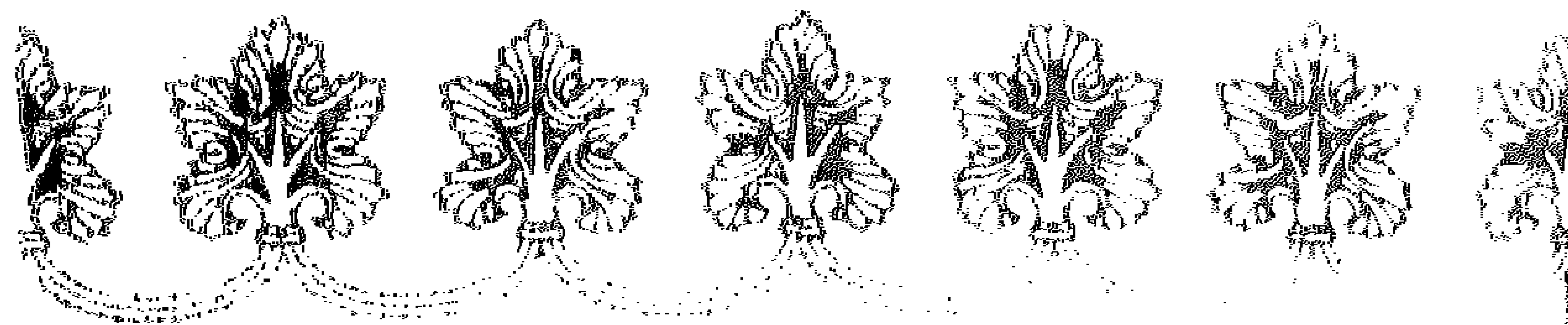
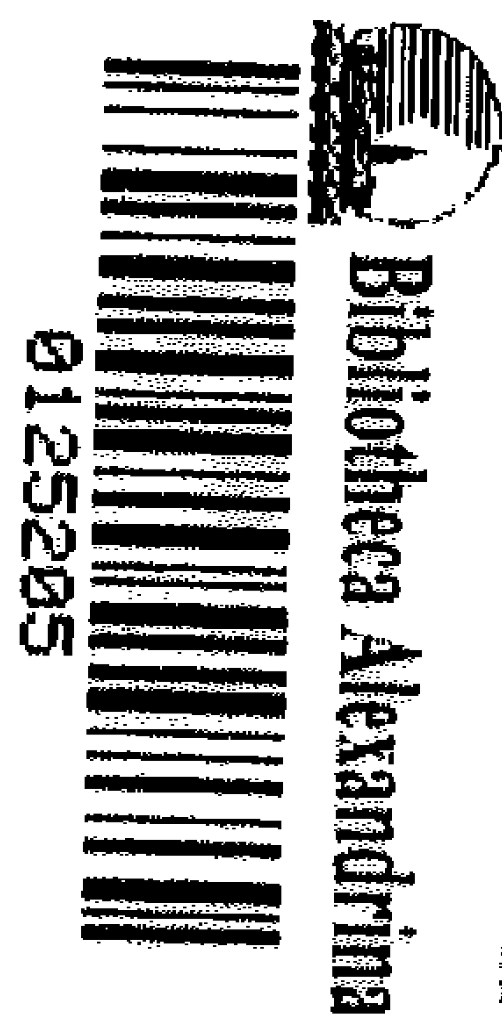
دكتور توفيق محمد شاهين

الإمام ابن القيم

لغويًا.. مفسرًا

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة . تليفون ٣٩١٧٤٧٠

دكتور توفيق محمد شاهين

الإمام ابن القيم

لغويا .. مفسرا

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (1) .

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ (2) .

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾(3) .

* * *

(1) يوسف : ٢ (2) الفرقان : ٣٣ (3) فاطر : ٢٨

تقديم

نشأ الإمام ابن القيم – مع أستاذه شيخ الإسلام – ابن تيمية فى عصر القلق والاضطراب والفتن والحروب الصليبية . . وكأنما شاءت الأقدار أن يبقى الأمل وضوء الإسلام هاديًا وقويًا ، فى هذه الفترة العصيبة بجهاد هذين الإمامين العظيمين والمخلصين لدين الله تعالى .

ويمكن أن يقال : إن ابن تيمية وتلميذه ابن القيم فى هذه الفترة كانا المدافعين على منابع الإسلام الصافية ، والضاربين بسيف رسول الله في هذه الظلمات .

وكان ابن القيم ذكيا ، طلعة ، سريع الحفظ والفهم ، وله بصر بما يقرأ وما يكتب ، وما يسمع . . شأن الناقد البصير ، كما كان دائم المطالعة ، مكبًا على العلم ، لا يكل من البحث ، كما كان واسع الاطلاع ، وتدل على ذلك كتبه الكثيرة ، إذ فيها : علم وفهم عميق ، وجودة فى الترتيب والتقسيم ووضوح الديباجة .

ويعتبره العلماء بحق وارث علوم الإمام ابن تيمية ، وتلميذاً ألمعيًا له ، حتى قيل فيه :

« لو لم يكن للإمام ابن تيمية من المناقب إلا تلميذه ابن قيم الجوزية ، صاحب التصانيف النافعة السائرة ، التى انتفع بها الموافق والمخالف . . لكان غاية فى الدلالة على منزلته » (١) .

---

(١) وأدعو نفسى والشانئين عليهما إلى مراجعة ما خلفا من آثار قبل الحكم عليهما . . فمن جهل شيئًا عاداه ، وكذلك معرفة العصر وقتهما معرفةجيدة .

وإذا ترك ابن تيمية أكثر من خمسمائة مصنف فى خمسمائة مجلد . . فإن ابن القيم ورث كل ذلك ، ووعاه ، وتأثر به ، وحفظه وبلغه للناس ، ومهده للأجيال من بعده ، فضلاً عما كتب هو .

وتراه حجة فى الحديث دراية ورواية ، ومعرفة رجاله وعلله . . إلخ ، كما برع فى الفقه على مذهب الصحابة والتابعين والأئمة من بعدهم . . وسترى بصره في التفسير ، واختيار الأصوب ، وبراعة الإحاطة بالموضوع ، ثم بيانه فى أحسن بيان ، يرفد ذلك ذكاء وحسن بيان ، واختيار حق ، ونفى توهم ، بسوق دليل وحسن تعليل .

كما أطلع على الملل والنحل فسبر غورها ، وفند حججها ، وأبان زيفها وحط من شأنها ، لفسادها .

وشارك الفلاسفة والمناطقة آراءهم ، ثم وجه النقد اللاذع إليها ، بما يحط من شأنها أمام البراهين الإسلامية المستقاة من الشرع والعقل ، ودعا إلى الإسلام الصحيح ، والمحجة الواضحة ليلها كنهارها ، كما تركها لنا المعصوم صلى الله عليه وسلم .

ولغته العربية من السهل الممتنع ، وبصره بها فى مفرداتها وتراكيبها وقواعدها ما يظهر براعته فيها كما فى بعض اختياراتنا فى القسم الأول . . فتجد له اليد الطولى ، والباع الواسع فى معرفتها ، وتشقيق القول فيها ، واختيار صائبها ، ونقد زيفها ، وكأنما هو لا يحذق غيرها إذا تحدث فيها ، أو قد وقف حياته للعناية بها ، والإحاطة بها . . كما تلاحظ فى القسم الأول من هذا الكتاب .

ولا عجب فى ذلك فهى لسان الوحى المعتبر ، والقرآن المحكم ، والسنة النبوية المطهرة ، والذي يعيش لها وفيها ، ويحكم زمام قواعدها وبلاغتها ، وبيانها ، تجد لكل ذلك أثرًا طيبًا فى قوله ونظمه وشعره . .

وليس بغريب إذن أن يأتى المحدث العظيم ابن حجر العسقلانى . . شارح

البخارى بالنقد البناء لفحل من فحول العربية هو الإمام الزمخشرى فى قاموسه الفريد : « أساس البلاغة » ، فاستدرك عليه ابن حجر استدراكات مفيدة ومصيبة فى كتابه « غراس الأساس » ، فى أدب العلماء ونقدهم لبعضهم . . وقد قمت بتحقيق « الغراس » ونشرته مكتبة وهبة ، ليكون متممًا للأساس . .

وما ذاك إلا لأن القرآن عربى ، وبغير العربية لن نفهم التنزيل حق الفهم عن إيمان وقناعة ، وما يعقل ذلك إلا العالمون .

وحين نشرت أبحاثًا عن ابن القيم اللغوى ، للترقية إلى درجة أستاذ بالأزهر . . ذكر المرحوم العلامة عبد السلام هارون رئيس مجمع اللغة العربية السابق . . أن هذا اكتشاف جديد ، وكان عضو اللجنة معه : د . عبد الله العزازى ، ودكتور قناوى رحمهم الله تعالى ، وأثابهم عن العلم والعلماء خير الجزاء .

والمدلولات اللغوية مبنية - بلا شك - على أصول اللغة - حين نقف مع مبانيها وخصائصها الراسخة رسوخ الجبال ، لأن العربية لا تخضع للتغيير الدلالى والبنيوى كشأن اللغات الأخرى ؛ لأن اللغات الأخرى لهجات قابلة للتطور ، بينما اللغة العربية لا تتبدل ، إذ لها أصول ثابتة ، تثرى بعوامل تنمية ثابتة محكمة [1] ، وإذا كان القرآن الكريم محفوظًا بحفظ الله تعالى فى الصدور والكتاب ، فالعربية مصونة محفوظة .

* *

ومن ودّ معرفة ثوابت العربية فليطالع معجم « المقاييس » ، للإمام أحمد ابن فارس ، لألفاظ اللغة ، إذ كل حرفين فى الأصل لهما معنى ثابت ، يضيف له الحرف الثالث معنى إضافيًا فى قواعد ثابتة لا تتغير .

---

(١) راجع كتابنا : « عوامل تنمية اللغة العربية » - نشر مكتبة وهبة بالقاهرة .

في هذا الصدد نذكر عبقرى اللغة العربية : الخليل بن أحمد الفراهيدى ، الذى أسس أول معجم فى العالم للغة العربية ، على هدى مخارج الأصوات فى القرن الثانى الهجرى ، ولاحظ فيه القيمة التعبيرية للحرف الواحد ، والصوت الواحد أيضًا حسب صفاته التى يتميز بها عن غيره ، وحسب مخرجه .

كما عرف العلامة ابن جنى فى خصائص اللُّغة العربية .. القيمة التعبيرية للصوت الواحد ، والحرف ومخرجه ، والقيمة البلاغية لوضع الحرف فى مكانه اللائق والواجب .

ونذكر براعة العلامة : أحمد فارس الشدياق فى كتابه : (منتهى العجب فى خصائص لغة العرب) . . .

فلا عجب أن يتبع ذلك ابن القيم فى تفسيره ، وتحليله للآيات فى ألفاظها ، ويتعقب اللفظ في استعمالاته ؛ ليبين إعجاز القرآن الكريم ، ويضع المعنى السليم فى العقول السليمة السوية ، بما علمه - عن اقتناع ووضوح - من إشراق العربية ، ومعرفة مناحيها علومًا وأصولاً وفروعًا .. فيصادف تفسيره - لذلك - قلوبًا خالية من الزيغ والأهواء .. فيتمكن المتعلم ، ويبهج العالم .

* *

وأنفس التفاسير فى رأيه - وكما ترى - ما يوافق تفسير النبى ﷺ ؛ إذ هو الذى لا ينطق عن الهوى ، وكذلك صحابته الكرام .. فهم أدرى بمضمون القرآن ؛ لأنهم حول الرسول ، ولأن اللغة لغتهم .. وكذلك السلف الصالح .. وكما قيل : أهل مكة أدرى بشعابها ..

وما غاب عنه فمرجعه إلى اللُّغة بعدئذ .. إذ هى اللسان المعبر للقرآن الكريم ..

* *

حتى اللغة العربية فى فنونها ومناحيها ، خدمها الأقدمون ، خير خدمة ابتغاء وجه الله تعالى ، فى : أصولها ، وقواميسها ، ونحوها ، وصرفها ، وبلاغتها وبيانها ، وشعرها ونثرها ، وأصول قواعدها ، والمواطن الصحيحة لاستعمالها . . وأسهم فى تقعيد قواعدها ، وتفسير غامضها كل عالم نحرير نفخر به ، قضى حياته مترهبًا فى محرابها ، لأنها وعاء القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة .

وإذا أردنا جيلاً صاعدًا لمستقبل زاهر ، يعيد الأمجاد للأولاد والأحفاد . . فلنحافظ على لغتنا ، فهى شرفنا وسر مجدنا الغابر ، والتليد إذا شئنا أن نحيا كرامًا . . وقد نافست الصين واليابان أمريكا فى كل مجالاتها تقريبًا بلغاتها الموروثة لا المكتسبة .



وفى التفسير بذل ابن تيمية - رضى الله عنه - جهده المضنى ، لبيان الوجه المشرق لكتابنا الخالد المعجز ، فى لغته العبقرية الفتية أبدًا . . وقد حاور فى تفسير كثرة من العلماء سبقوه فى هذا المجال ، وقبل قول بعضهم ، ورد قول غيرهم ، وحاورهم فى أدب العلماء ودعا لهم بالخير .

ولا بد أن نعلم أن التفسير بحر لا ساحل له ، من سبح فيه على بصيرة هُدِى إلى الصراط المستقيم ، ومن عالجه بقلب سليم استبانت له الأمور ، ومن استعصت عليه فوض إلى الله سبحانه وتعالى .

يقول ابن عباس - رضى الله عنه - :

القرآن ذو شجون وفنون ، وظهور وبطون - لا تنقضى عجائبه ، ولا تبلغ غايته : فمن أوغل فيه برفق نجا ، ومن أوغل فيه بعنف هوى .

أخبار وأمثال ، وحلال وحرام ، وناسخ ومنسوخ ، ومحكم ومتشابه ، وظهر وبطن ، فجالسوا به العلماء ، وجانبوا به السفهاء . أ . هـ .

ويقول العلامة الشيخ يوسف الدجوى ، رحمه الله :

« فى القرآن أسرار ومقاصد لا يمكن أن يأتى عليها البشر . . كيف وللقرآن ظهر وبطن ، وحد ومطلع ، وفيه كليات يدخل تحتها ما لا يعلمه إلا الله تعالى ومتشابهات لا يصل إلى كنهها غيره عَزَّ وجَلَّ ؛ مما وقف أمامه العلماء مفوضين أو مؤولين .

وفيه من التعبير عن الحقائق ما تقضى منه العجب :

حيث يعبر بالعبارات التى تساير كل عصر ، وتتفق وكل اكتشاف . .

حتى إذا تبين خطأ فى تفسيرها بمقتضى اكتشاف جديد ، نسب لمفسرى الآيات ، لا لها ، ووجدت هى أكثر انطباقًا على ما قضى به العلم الممحص ، والاكتشاف الجديد ، مما يدهش اللب ، وينطق بأنه ما أنزله إلا الذى يعلم السر فى السموات والأرض .

ومن مناقشات ابن القيم للمسائل اللغوية والتحقيقات العلمية . . تحس بأن ابن القيم قرأ القرآن قراءة الفاحص ، وفهم رسالته ، وذكر لطائف الدقائق .

* *

وقد انتفع الكثيرون من آثار ابن القيم ، فى مختلف الفنون والعلوم التى حذقها ، وخاصة الدعاة إلى الله تعالى .

وتراه هنا فى هذه المقتطفات بين : اللغة والتفسير . . خبير وجدير - لم يدع شاردة ولا واردة إلا أشبعها بحثًا وتمحيصًا ، بما يبل غلة الصادى - ويبهر الشادى - على حد قول الشاعر :

إذا قال لم يترك مقالاً لقائل ... بملتقطات لا ترى بينها فضلاً
كفى وشفى ما فى النفوس.ولم يدع ... لذى إربة فى القول جدا ولا هزلاً

مع أنه تنزه عن الهزل ، وعاش فى ورع العلماء ، ونبل الفضلاء . .

● وعملى فى هذا الكتاب هو جهد المقل فى : ضم المقالات التى كتبتها عن الإمام ابن القيم فى مجلة الأزهر ، ومجلة البعث الإسلامى الهندية ، ومجلة كلية اللغة العربية بالأزهر ، وتخريج الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وتفسير الغامض ، وذكر آراء العلماء فيما كان فيه اختلاف أو وجهات نظر .. واختيار ملاحق تبين وتعلى ماضى علمائنا فى خدمة اللُّغة العربية وتفسير القرآن والسُّنَّة بما يوافق المنقول والمعقول فى مختلف العصور ، وما جد فى العصر الحديث ابتغاء وجه الله تعالى والعلم ..

فما كان من صواب فمن فضل الله سبحانه .. وما كان من نقص وتقصير فمنى ومن الشيطان والغفلة ، وقديمًا قيل :

مــــن ذا الذى ما ســـاء قـــط ومـن له الحســـــنى فقـــط

وإن أريد إلا الإصلاح ما استطعت .... وأستغفر الله مما قدمت وما أخرت

فحبذا لو جمعنا كل آثاره فى مجلدات ، توضع تحت نظر الشادين والعلماء ، والباحثين ..

رحمه الله رحمة واسعة ، وجزاه خيرًا عن الإسلام والمسلمين هو وأستاذه العلامة ابن تيمية وكل العلماء العاملين .

والله يقول الحق ، وهو يهدى السبيل .

كندا فى : رمضان سنة ١٤١٦ هـ - يناير سنة ١٩٩٦ م

د . توفيق محمد شاهين



ابن القيم ..

حياته وآثاره ..

وآراء العلماء فيه .

ابن القيم ، حياته ، وآثاره
وآراء العلماء فيه

ابن قيم الجوزية ، هو : العلامة شيخ الإسلام شمس الدين أبو عبد الله ، محمد بن بكر بن أيوب بن سعد الزرعى ، ثم الدمشقى ، الفقيه الحنبلى المفسر النحوى ، الأصولى المتكلم ، الشهير بابن قيم الجوزية .

وجاء فى كتاب « جلاء العينين » للسيد نعمان الآلوسى البغدادى ، عنه : هو المجتهد المطلق . . درس بالصدرية ، وأم بالجوزية .

قال ابن رجب : ولد شيخنا سنة إحدى وتسعين وستمائة هجرية ، ولازم شيخ الإسلام العلامة : تقى الدين ابن تيمية ، وأخذ عنه ، وتفنن فى كافة علوم الإسلام .

وكان عارفًا فى التفسير لا يجارى فيه ، وبأصول الدين ، وإليه فيه المنتهى ، وبالحديث ومعانيه وفقهه ، ودقائق الاستنباط منه ، لا يلحق فى ذلك .

وفى الفقه ، والأصول العربية له فيها اليد الطولى ، وبعلم الكلام والتصوف ، ولم أشاهد مثله فى عبادته وعلمه بالقرآن والحديث ، وحقائق الإيمان ، وحج مرات كثيرة ، وجاور بمكة ، وليس هو بالمعصوم ، ولكن لم أر فى معناه مثله .

وأخذ العلم عنه خلق كثير فى حياة شيخه وإلى أن مات ، وانتفعوا به .

قال القاضى برهان الدين الزرعى : وما تحت أديم السماء أوسع علمًا منه، وأوذى وعذب فى سبيل الله ، وسجن ، وصبر حتى مرت المحن ، وانتصر دين الله سبحانه .



● وفاته :

توفي - رحمه الله تعالى - ثالث عشر من رجب ، سنة إحدى وخمسين وسبعمائة ، ودفن بمقبرة الباب الصغير ، جزاه الله تعالى عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ، وأمطر عليه شآبيب رحمته ورضوانه .

● من كتبه القيمة :

١ - اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ، تصحيح الشيخ عبد الله بن حسين آل الشيخ ، طبع المنيرية بمصر سنة ١٣٥١ هـ .

٢ - أحكام أهل السُّنَّة ، تحقيق الدكتور صبحي الصالح ، طبع جامعة دمشق سنة ١٣٨١ هـ .

٣ - أسماء مؤلفات ابن تيمية رحمه الله تعالى - تحقيق : د . صلاح المنجد - طبع دمشق ١٣٧٢ هـ .

٤ - أعلام الموقعين عن رب العالمين ، تحقيق الأستاذ الشيخ : محيي الدين عبد الحميد - طبع مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٧٤ هـ .

٥ - إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ، تحقيق الأستاذ الشيخ محمد حامد الفقي ، طبع مطبعة الحلبي بمصر سنة ١٣٥٧ هـ .

٦ - إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان ، تحقيق الشيخ : محمد جمال القاسمي - طبع مطبعة النهضة بمصر .

٧ - بدائع الفوائد : أربعة أجزاء ، طبع المطبعة المنيرية بمصر بدون تاريخ .

٨ - التبيان في أقسام القرآن ، تصحيح الأستاذ : طه شاهين ، طبع دار الطباعة المحمدية بمصر سنة ١٣٨٨ هـ ، وطبعة تالية لدار الكاتب العربي بدون تاريخ .

٩ - تحفة المورود في أحكام المولود ، تحقيق الأستاذ عبد القادر الأرناؤوط ، نشر مكتبة دار البيان سنة ١٣٩١ هـ .

١٠ - تهذيب مختصر سنن أبى داؤد ، تحقيق الشيخين : محمد حامد الفقى، وأحمد شاكر ، طبع مطبعة أنصار السُّنَّة المحمدية بمصر سنة ١٣٨٦ هـ .

١١ - جلاء الأفهام فى الصلاة والسلام على خير الأنام ، تصحيح الأستاذ طه شاهين ، دار الطباعة المحمدية بمصر سنة ١٣٨٨ هـ .

١٢ - حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح ، تصحيح محمد الربيع ، مطبعة محمد على صبيح بمصر سنة ١٣٨١ هـ .

١٣ - حكم تارك الصلاة ، طبع مطبعة السلفية بمصر سنة ١٣٩٤ هـ .

١٤ - الداء والدواء ، تحقيق الشيخ محى الدين عبد الحميد ، مطبعة المدنى بمصر سنة ١٣٧٧ هـ .

١٥ - الرسالة التبوكية ، تحقيق الشيخ عبد الظاهر أبو السمح ، طبع مطبعة السلفية بمصر سنة ١٣٤٧هـ .

١٦ - روضة المحبين ونزهة المشتاقين ، تحقيق الشيخ أحمد عبيد ، مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٧٥ هـ .

١٧ - الروح ، طبعة محمد على صبيح بمصر ، سنة ١٣٨١ هـ .

١٨ - زاد المعاد فى هدى خير العباد ، طبعة مطبعة الحلبى بمصر سنة ١٣٦٩ هـ .

١٩ - شفاء العليل فى مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، تصحيح الحسانى عبد الله ، طبع أنصار السنة بمصر سنة ١٣٧٥ هـ .

٢٠ - الصواعق (المرسلة) المنزلة علي الجهمية والمعطلة ، طبع المختصر منه لمحمد بن الموصلى ، بمطبعة الإمام بمصر سنة ١٣٨٠ هـ .

٢١ - طريق الهجرتين ، وباب السعادتين ، الطبعة القطرية .

٢٢ - الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية ، طبعة الاتحاد الشرقى بدمشق سنة ١٣٧٥ هـ .

٢٣ - عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، تصحيح زكريا على يوسف ، مطبعة الإمام بمصر .

٢٤ - الفروسية ، تحقيق الأستاذ عزت العطار الحسينى ، طبع عام ١٣٦٠ هـ .

٢٥ - الفوائد ، تصحيح عمر بن عبد الجبار ، طبع دار مصر للطباعة .

٢٦ - الكافية الشافية فى الانتصار للفرقة الناجية . . مع شرحها للشيخ : أحمد بن عيسى النجدى ، طبع المكتب الإسلامى ، بدمشق سنة ١٣٨٢ هـ .

٢٧ - مدارج السالكين بين منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » . . ثلاثة مجلدات ، طبع الشيخ محمد الفقى - بمطبعة أنصار السنة بمصر سنة ١٣٧٥ هـ .

٢٨ - مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة . . طبع محمود حسن الربيع ، سنة ١٣٥٨ هـ ، نشر مكتبة الأزهر بمصر .

٢٩ - المنار المنيف فى الصحيح والضعيف ، طبع دار القلم ١٣٩٠ هـ .

٣٠ - الوابل الصيب من الكلم الطيب ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط وإبراهيم الأرناؤوط ، نشر مكتبة دار البيان بدمشق طبعة عام ١٣٩٣ هـ .

٣١ - هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى ، طبع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

٣٢ - وصدر حديثًا « التقريب لفقه ابن قيم الجوزية ، للأستاذ بكر بن عبد الله أبو زيد ، طبع دار الهلال بالرياض سنة ١٤٠١ هـ .

* *

• آفاق ابن القيم العلمية وعصره :

ابن القيم من علماء السَّلَف الذين يعتبرون - بما تركوا من آثار علمية -

دوائر معارف إسلامية ، تخرج فيها - وما يزال يتخرج - العديد من العلماء ، ورواد الفكر الإسلامى ، وذلك يرجع إلى : تتلمذه على شيخه - شيخ الإسلام - ابن تيمية ،مع موهبته واستعداده ، وقدراته ، ورسوخه فى العلم ، وغزارته فى العطاء ، ودقة الفهم ، وحسن التأتى فى الاستنباط والاجتهاد والعرض ، وسعة المعارف وتنوعها .

مع أنه كان فى كل منها عالمها الألمعى ، وهذا - بحق - لم يتوافر للكثير من علماء السَّلَف ؛ لأن عصر ابن تيمية وابن القيم ، لم يكن مفروشًا بالورود ، ومن هنا ندرك قيمة آثار كل من الشيخين سواء من الناحية الفكرية أو السياسية أو الاجتماعية ، وكانت للأشواك الغلبة من فلسفات واردة تريد أن تنال من الإسلام ، وصوفية جانحة ، وآثار الحرب الصليبية ، ثم غزو التتار ، وتفكك الوحدة السياسية للأمة المسلمة ، ولذلك اضطهد شيخ الإسلام وسجن ، وتوفى وهو فى سجنه ، واضطهد معه وبعد وفاته تلاميذه ، وفى مثل هذا الجو تظهر قيمة ابن تيمية وتلميذه ابن القيم العلمية ، من حيث الكم والكيف أيضًا ، وقد قال لى - يومًا - أستاذى الدكتور محمد البهى : رحمه الله - إن ابن تيمية وتلاميذه كانوا فى ذلك الوقت هم الذين يضربون بسيف محمد بن عبد الله - ﷺ - وحدهم فى وسط الظلمات المتراكمة حول العالم الإسلامى .

وكان هدف ابن القيم إصلاح العقيدة التى فسدت فى عصره ، فقد غزا التتار البلاد ، وحطموا القيم الفكرية والخلقية ، وكان لا بد من العلم والفهم والقلم والعزيمة الماضية لتقف أمام الغزو التتارى الغاشم وآثاره لحفظ عقيدة الإسلام .



وعرض لابن القيم فى مجال اللُّغة فقال : « إن طلاب الثقافة والمعرفة الإسلامية عرفوا ابن القيم عالمًا حجة فى شتى المعارف الإسلامية ، ولكن لم

يعرفوه لغويًا بمعنى الكلمة ، والمعروف أن علماء الإسلام من السَّلَف كانوا على علم باللغة العربية بشتى فروعها ، باعتبارها جزءًا غير منفصل عن الفكر الإسلامى ، ولكن ابن القيم فى مجال اللغة اعتبر لغويًا فى المقام الأول : ربما لأن اشتغاله بالتفسير حمله على الاهتمام بأسرار اللُّغة ، من منطلق التحليل لآى الذكر الحكيم وكلماته .

وذلك لأن اللُّغة والشريعة ترتبطان برباط وثيق ، إذ كانت اللُّغة - وستظل - هى وسيلة الأداء . . المعبرة عن الإدراك أو الفكر والوجدان ، وليس من المتصور أن يتصدى دارس للشريعة الإسلامية - مثلاً - دون أن يتعمق فى لغة هذه الشريعة ، وقد عربت العربية كل بلاد دخلتها . . وما تفرق المسلمون وهانوا بعدئذ إلا لأنهم أهملوا العربية وتركوها نسيًا منسيًا .

فضلاً عن أن كتاب الله والسُّنَّة النبوية هما الركيزة الأولى لأسرار اللغة العربية بشتى أصولها وفروعها .

ومنهج ابن القيم فى التفسير هو تفسير القرآن بالقرآن وهو منهج شيخه ابن تيمية ، والإمام أحمد بن حنبل ، رضى الله عنهم ، وهذا المنهج هو المنهج الأمثل فى التفسير . وبعض المحدثين من علمائنا - من منطلق هذا المنهج - اتجه فى التفسير إلى البحث عن الوحدة العضوية أو الموضوعية للسورة القرآنية ، ومنهم الشيخ محمود شلتوت ، والدكتور محمد البهى - رحمهما الله تعالى . وربما كان حرص الأخير على هذا المنهج ، هو الذى جعله يبدأ فى تفسير السور المكية ، لا لأنها أول القرآن نزولاً ، بل لأنها اختصت بمرحلة معينة وبيئة معينة ، وأغراض معينة .

وامتاز ابن القيم فى تفسيره بتحليل الكلمات وإرجاعها إلى مدلولها اللّغوى وتصريفها واشتقاقها كما سنرى فى النماذج المختارة له .

* *

يقول الأستاذ محمد السمان : إن الغرب اهتم كثيرًا بما نسميه « الأعمال الكاملة »

لفلان من رواد الفكر عندهم ، ونحن هنا نتابع اهتمام الغرب ، فنترجم تلك الأعمال الكاملة « لشكسبير » مثلاً . . . . وللأسف نتجاهل الأعمال الكاملة لمفكرينا الإسلاميين من سلفنا ، ولدينا - والحمد لله - عشرات المؤسسات الرسمية التى تهتم بإحياء التراث ، ولكن الذى ننشده : هو عملية تحقيق للأعمال الكاملة جملة واحدة ، لكل علم من أعلام علمائنا ، وبخاصة السلفيين منهم .

وهناك جهود فردية تبذل ، إلا أن مثل هذا العمل يحتاج إلى لجان من العلماء المتخصصين ، يعملون أيضًا على تقسيم الأعمال بروح نزيهة حيادية ، ومنهج علمى موضوعى ، لا أثر فيها للعاطفة أو المجاملة .

وهذه أعز أمنية يتمناها الشباب المسلم ، فهل ستحقق أم نظل نردد قول الشاعر :

مــا كل ما يتمنى المرء يدركـــــه تجرى الرياح بما لا يشتهى السُّفُنُ

وكلمة الأستاذ السمان كلمة طيبة من أستاذ فاضل .



ولابن القيم كتاب قيم هو : « مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة » . .

وقد حوى من ألوان المعارف وقطوفها وفنونها ، ما يتشوق المسلم إلى معرفته ، وقد اقتبس منه كثير من المؤلفين والوعاظ والكتاب ، ما جعل لهم شهرة واسعة ، يقول رحمه الله تعالى فى تقديمه :

« وقد جلبت إليك فيه نفائس ، فى مثلها يتنافس المتنافسون . .

فإن شئت اقتبست منه معرفة العلم وفضله ، وشدة الحاجة إليه ، وشرف أهله وشرفه ، وعظيم موقعه من الدارين .

وإن شئت اقتبست منه معرفة إثبات الصانع بطرق واضحات جليات ، تلج القلوب بغير استئذان . ومعرفة حكمته فى خلقه وأمره .

وإن شئت اقتبست منه معرفة قدر الشريعة والحاجة إليها ومعرفة جلالتها وحكمتها .

وإن شئت اقتبست منه معرفة النبوة وشدة الحاجة إليها ، بل وضرورة الوجود إليها ، وأنه يستحيل من أحكم الحاكمين أن يخلى العالم عنها .

وإن شئت اقتبست منه معرفة ما فطر الله عليه العقول من تحسين الحسن وتقبيح القبيح ، وأن ذلك أمر عقلى فطرى بالأدلة والبراهين التى يشتمل عليها هذا الكتاب فلا توجد فى غيره .

وإن شئت اقتبست منه معرفة الرد على المنجمين القائلين بالأحكام بأبلغ طرق الرد من نفس صناعتهم وعلمهم ، وإلزامهم بالإلزامات المفحمة التى لا جواب لهم عنها ، وإبداء تناقضهم فى صناعتهم وفضائحهم وكذبهم .

وإن شئت اقتبست منه معرفة الطيرة والفأل والزجر ، والفرق بين صحيح ذلك وباطله ، ومعرفة مراتب هذه فى الشريعة والقدر .

وإن شئت اقتبست منه أصولاً نافعة جامعة ، مما تكمل به النفس البشرية ، وتنال به سعادتها فى معاشها ومعادها . . . إلى غير ذلك من الفوائد التى ما كان منها صوابًا فمن الله وحده هو المان به ، وما كان منها من خطأ فمن مؤلفه ، ومن الشيطان ، والله برىء منه ورسوله » (١) أ هـ .

* وكلمته السابقة كلمة جامعة تنبئ عن سعة مداركه ، وحثه على الفضيلة، والدفاع عن الشريعة ، وبيان ما هو ضرورى لكمال الإيمان بالله ، وتجليه بعض حكم الله تعالى فى خلقه ، وعظيم نعمه .

---

(١) كتابه : « مفتاح دار السعادة ، ومنشور ولاية العلم والإرادة » - ط ثالثة ١٣٩٩هـ.

وأبحاثنا هذه مستقاة من كتابه : « مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة » ، وكتابه : « التبيان فى أقسام القرآن » ، ورسائل أخرى .

ثم التصدى للماديين والملحدين ، والمشعوذين والمعوقين فى كل زمان ومكان ممن يعيشون فى الظلام ، وهمهم جمع الحرام . .

ثم يتواضع كعلماء زمانه الأفاضل ؛ فينسب ما كان من كمال وحسن فى كتابه إلى الله تعالى ، وما كان من خطأ فمرجعه إليه لتقصيره وإلى الشيطان الرجيم . . ويحتاط فى كل مسألة بعد بيانها بقوله : « والله أعلم » . . ومعنى هذا فى إيجاز أن علماءنا كانوا واعين ومقدرين وناهضين بالمهمة التى ألقيت على كواهلم ، وهى بناء الإنسان والحضارة والتاريخ ، وإعلاء شأن الدين الحنيف .

● والخلاصة :

إن ابن قيم الجوزية - تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية - أحد العلماء الأفاضل الذين دافعوا عن الإسلام ونشروا العلم وحفظوه ، ومن الذين أخلصوا لله تعالى فزادهم هدى ، وآتاهم تقواهم . . واتقى الله فعلمه الله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ ﴾ (1) ، حتى وصلنا هذا الفيض من الكتب والمعارف النافعة والهادية .

فنسأل الله أن يجزيهم عنَّا وعن الإسلام خير الجزاء .

د . توفيق محمد شاهين

* * *

(1) البقرة : ٢٨٢

القسم الأول

فى اللُّغـــة

الفصل الأول

أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْن ؟
وَلسَانًا وَشَفَتَيْن ؟
وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ؟!

فى هذا البحث :

- خلق الله الإنسان فى أحسن تقويم .
- نعمة الكلام والبيان .
- البيان النطقى ، والبيان الخطى .
- روعة الجهاز الصوتى وإمكاناته .
- التفكير فريضة إسلامية .
- وسائل الكلام وحدوث الصوت اللغوى .
- نعمة الهواء فى نقل الكلام ومحوه .
- فتبارك الله أحسن الخالقين [1] .

---

(١) فى آخر الكتاب ملحقان لمزيد بيان فى هذا الجانب عن :
(أ) عبقرية ابن جنى والأصوات اللغوية .
(ب) علم الصوتيات فى التراث الإسلامى : أ . د/ أحمد فؤاد باشا .

يحدثنا ابن القيم هنا عن أعضاء الكلام اللغوى ، ووظائفها .. إرسالاً واستقبالاً . ويبين حكمة الله تعالى فى خلقها فى أماكنها ، وفى الشكل الذى خلقت عليه ، والوسائل التى تعمل بها ، حتى تتم نعمة البيان النطقى ، والبيان الخطى ، ونعمة الفهم لرموز الحروف والكلمات ، وعمل الوسائل المعينة على ذلك بوجهة أكمل .

ثم بين مكانة العقل والفؤاد ونعمة التفكير ومنزلته ، وروعة الجهاز الصوتى واستعداداته وإمكاناته .

وإذا كانت قيمة الهواء عظيمة وأساسية فى حفظ الحياة ، فله أيضًا قيمة كبيرة فى نقل الأصوات اللغوية ، بل وغير اللغوية ..

وذكر كيفية حدوث الصوت اللغوى فى أعضائه ، ومراحله ونعمة محوه بعدئذ من الهواء ، كما نمحو البيان الخطى ..

وسبحان القائل : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ (١) .

والقائل : ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ (٢) .

يقول رحمه الله تعالى :

« خلق الله سبحانه الأذن أحسن خلقة ، وأبلغها فى حصول المقصود منها : فجعلها مجوفة كالصدفة لتجمع الصوت ، فتؤديه إلى الصماخ ، وليحس بدبيب الحيوان فيها فيبادر إلى إخراجه ، وجعل فيها غضونًا ، وتجاويف وإعوجاجات تمسك الهواء والصوت الداخل فتكسر حدته ، ثم تؤديه إلى الصماخ ..

---

(١) الإسراء : ٣٦ (٢) البلد : ٨ - ١٠

ويشير إلى حكمة الله تعالى فى أنه جعل للإنسان حاستين وعضوين كالأذنين والعينين اللتين اقتضت الحكمة تعددهما ؛ فإنه ربما أصيبت إحداهما أو عرضت لها آفة تمنعها من كمالها ، فتكون الأخرى سالمة فلا تتعطل منفعة هذا الحسن جملة .

وجعل - سبحانه - فى الوجه أنفًا واحدًا ، وجعل فيه منفذين حجز بينهما حاجز يجرى مجرى تعدد العينين ، والأذنين فى المنفعة ، وهو واحد . . فتبارك الله رب العالمين ، وأحسن الخالقين (١) .

وجعل - سبحانه - فى الحلق منفذين ، أحدهما للصوت والنفس الواصل إلى الرئة ، والآخر للطعام والشراب ، وهو المرئ الواصل إلى المعدة ، وجعل بينهما حاجزًا ، يمنع عبور أحدهما فى طريق الآخر ، منعًا للهلاك لو وصل الطعام من منفذ النفس .

وجعل داخل الأذن مستويًا كهيئة الكوكب ، ليضطرد فيه الصوت حتى ينتهى إلى السمع الداخلى ، وقد انكسرت حدة الهواء فلا ينكؤه (٢) .

أشار ابن القيم أن تجويف الأذن تكفل بحفظها حين تشعر بالخطر ، وأن التجاويف تمسك الهواء والصوت حتى يصل إلى الصماخ فى رفق ، وأن تكرار الأذن فيه جمال واحتياط ، وكذلك العينان ؛ خوف فقد أحدهما ، وقام منفذ الأنف مقامهما بما تركب فيه من حاجز ، وفى الحلق منفذان يحجز بينهما حاجز ، ليقوم كل منهما بما نيط من مهمات حيوية ، وبما يضمن السلامة للإنسان الذى خلقه الله فى أحسن تقويم .

* *

ويعمم فى حديثه .

ثم يخصص زيادة فى البيان ؛ فيذكر ما أودع الله تعالى فى الرأس - كأشرف مكان فى الإنسان - وما أودعه الله فيه من آلات تعين على استمرارية

---

(١) مفتاح دار السعادة ٢٠٧ (٢) المصدر السابق : ٢٩٢

حياته ومنافعه من جهة ، وتعين على الاختيار والتذوق لتفضيل المناسب والأليق ، ثم تؤدى بالتالى نعمة الكلام والبيان ، مع الإشارة إلى الاتصال بينها وبين بعضها فى تناسق وترابط يشير إلى قدرة الخالق المنعم ، ويذكر العبد بنعم المتفضل سبحانه .

ولأن اللسان أخطر الأعضاء من جهة وأجلها من ناحية أخرى ، وحتى فى تخصيص مكانه وستره فضلاً عن لطافته ، وحاجته إلى الرطوبة لتأدية وظيفته المزدوجة على نحو كاف وفعال . . كان فى داخل الفم لا خارجه . . ثم ما أحيط به من أسنان وشفاه . . وكانت بدايته فى أقصاه لا فى طرفه . . وكيف كان اختلاف الحناجر معجزة فى عدم تشابه الأصوات ، مما أشبه اختلاف البصمات . .

وكان اختلاف الأصوات سببًا فى حفظ الحقوق والعدل : حين أباح العلماء للأعمى الشهادة ، لأنه يميز بين الأصوات المختلفة ، فلا تستعصى عليه الشهادة . . تمكينًا للعدالة فى دنيا الإنسان . .

يقول رحمه الله - فى معرض الرد على الدهريين ، والطبيعيين ، ممن نسميهم اليوم بالماديين أو العلمانيين والملحدين - :

(الله سبحانه شق للعبد الفم فى أحسن موضع وأليقه به ، وأودع فيه من المنافع وآلات الذوق والكلام ، وآلات الطحن والقطع ما يبهر العقول عجائبه ، فأودعه اللسان الذى هو أحد آياته الدالة عليه ، وجعله ترجمانًا لملك؛ الأعضاء (القلب) ، مبينًا ، مؤديًا عنه .

كما جعل الأذن رسولاً مؤديًا مبلغًا إليه ، فهى رسوله وبريده الذى يؤدى إليه الأخبار ، واللسان بريده ورسوله الذى يؤدى عنه ما يريد).

وعن وظيفة اللسان ، ومكانه ومكانته ، وما أحيط به للحفظ والزينة والإعانة على أداء وظيفته ، يقول :

(واقتضت حكمته سبحانه ، أن جعل هذا الرسول - اللسان - مصونًا محفوظًا مستورًا غير بارز مكشوف كالأذن والعين والأنف ؛ لأن تلك الأعضاء لما كانت تؤدى من الخارج إليه جعلت بارزة ظاهرة ، ولما كان اللسان مؤديًا منه إلى الخارج جعل له سترًا مصونًا لعدم الفائدة فى إبرازه ، لأنه لا يأخذ من الخارج إلى القلب ، وأيضًا : فلأنه لما كان أشرف الأعضاء بعد القلب ، ومنزلته منه منزلة ترجمانه ووزيره .. ضرب عليه سرادق تستره وتصونه ، وجعل ذلك السرادق كالقلب فى الصدر .

أيضًا : فإنه من ألطف الأعضاء وألينها ، وأشدها رطوبة ، وهو لا يتصرف إلا بواسطة الرطوبة المحيطه به : فلو كان بارزًا صار عرضة للحرارة واليبوسة والنشف المانع له من التصرف ، ولغير ذلك من الحكم والفوائد .

* *

ثم زين سبحانه الفم بما فيه من الأسنان ، التى هى جمال له وزينة ، وبها قوام العبد وغذاؤه .. متناسقة الترتيب ، كأنها الدر المنظوم ... وأحاط - سبحانه - على ذلك حائطين ، وأودعهما من المنافع والحكم ما أودعهما ، وهما الشفتان .. وجعلهما إتمامًا لمخاج حروف الكلام ونهاية له ، كما جعل أقصى الحلق بداية له ، واللسان وما جاوره وسطًا ، ولهذا كان أكثر العمل فيها له ، إذ هو الواسطة ... وخلق سبحانه الحناجر مختلفة الأشكال فى الضيق والسعة ، والخشونة والملاسة ، والصلابة واللين ، والطول والقصر ، فاختلفت بذلك الأصوات أعظم اختلاف ، ولا يكاد يشتبه صوتان إلا نادرًا ، ولهذا كان الصحيح قبول شهادة الأعمى ، لتمييزه بين الأشخاص بأصواتهم ، كما يميز البصير بينهم بصورهم ، والاشتباه العارض بين الأصوات كالاشتباه العارض بين الصور) (١) .

---

(١) المصدر السابق : ٢٨٥

ولو تأملنا براعة الإمام السكاكى [1] فى توزيع الحروف الأبجدية بين أعضاء النطق ، فى رسم لا يختلف كثيرًا عن رسومات المحدثين ، بما حباهم به هذا العصر من منجزات التكنولوجيا المعاصرة ، لازداد إكبارنا لعلمائنا القدامى ، ولشعرنا بالتفوق ، بدلاً من الشعور بالدونية والإحباط ، ثم حاولنا اللحاق والتشبه بهم .

واليوم إذا كان عصر التقدم التكنولوجى - على منجزاته الهائلة - عاجزًا عن التشريح الدقيق وبيان الوظائف التفصيلية أو شبهها إلخ ، وكيفية عمله ، فلا عجب أن يشير الإمام ابن القيم إشارات مقتصدة إلى هذا الجانب يقول :

« ومن عجائب خلقه أنه جعل فى الرأس ثلاث خزائن نافذًا بعضها على بعض ، ومن أسراره ما أودعها من الذكر والفكر والتعقل [2] .

ولذا نجد بعض العلماء المعاصرين يتعرض لأعضاء النطق بالدراسة التفصيلية ما عدا (المخ) ، ويصرح بأنه لن يتعرض له بشىء من التفصيل لدقة تشريحه ، فضلاً عن أن التشريح لم يصل إليه بعد ؛ لتعرف شأنه تعرفًا تامًا » [3] .

ويجعل التفكر فى مكان يفضل العبادة ، لما ورد فى الآثار ، ولأن الفكرة مخ العقل ، وعبادة الصالحين ؛ ولذا صرف المتكبرون عن التفكر فى آيات الله : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [4] . . .

ويفرق بين التذكر والتفكر : بأن الأول يثبت فى القلب ما عرف بالتكرار ، والتفكر يكثر العلم ويستجلب ما ليس حاصلاً ، فالفكر يحصله ، والتذكر يحفظه ، ولهذا قال الحسن : (ما زال أهل العلم يغدون بالتذكر على التفكر ، وبالتفكر على التذكر ، ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة) ، فالتفكر

---

(١) فى « مفتاح العلوم » .
(٢) السابق : ٢١٠
(٣) التجويد والأصوات (٩) : للدكتور إبراهيم نجا .
(٤) الأعراف : ١٤٦

والتذكر بدار العلم ، وسقيه مطارحته ، ومذاكرته تلقيحه [1] ، حتى يقرر : أن أصل كل طاعة إنما هى الفكر ، وأصل كل معصية من جانب الفكرة حين يصادف الشيطان أرض القلب خالية فارغة ، فيذر فيها حب الأفكار الرديئة .

* *

ويلمح ابن القيم للحديث عما فى داخل الإنسان بما لا نشاهده ، كالقلب والكبد والطحال والرئة ، ويتحدث عن بعض وظائفها مستدلاً بذلك على عجائب خلق الله سبحانه : فيجعل (القلب) ملكًا يستعمل تسع آلات ، وكلها خادمة له ؛ لأنه أشرفها ، وبه قوام الحياة ، والغرائز والطباع ؛ ولذا فالعين طليعة ورائدة ، واللسان ترجمانه المؤدى للسمع ما فيه ، ومن ثم فكثيرًا ما يقرن المولى سبحانه الثلاثة ، كما فى قوله : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا ﴾ [2] ، ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُم سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً ﴾ [3] ، وقوله تعالى : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [4] ، وبالجملة فسائر الأعضاء خدمه وجنوه ، وقال النبى ﷺ : « ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ، ألا وهى القلب » .

ولله در الشاعر حيث يقول :

فسبحان من لا يقدر الخلق قدره ... ومن هو فوق العرش فرد موحد

* *

ويذكر الإنسان بمنافع أعضائه : . . . (فالعينان ، للاهتداء والجمال والزينة والملاحة ورؤية ما فى السموات والأرض وعجائبهما ، والفم للغذاء والجمال وغير ذلك . . والأنف للنفس ، وإخراج فضلات الدماغ ، وزينة للوجه ،

(١) مفتاح دار السعادة : ١٩٧
(٢) الإسراء : ٣٦
(٣) الأحقاف : ٢٦
(٤) البقرة : ١٧١

واللسان ، للبيان ، والترجمة عنك ، والأذنان صاحبتا الأخبار تؤديانها إليك ، واللسان يبلغ عنك . .) [1] .

ولا تزال وظيفة الأذن واللسان ، ومعرفة شيء عن تشريحهما للإلمام بشيء عن ماهيتهما ، وكيف يؤديان وظائفهما وعلاقتهما . . ما زال ذلك شغلاً شاغلاً للعلماء .

* *

● ويشير إلى حكمة الله فى جعل الحواس الخمس للإنسان فى أشرف مكان ، يقول :

(وانظر إلى الحواس التى منها تشرف على الأشياء ، كيف جعلها الله فى الرأس كالمصابيح فوق المنارة لتتمكن بها من مطالعة الأشياء ، ولم تجعل فى الأعضاء التى تمتهن كاليدين والرجلين : فتتعرض للآفات بمباشرة الأعمال والحركات . . . وحتى تتمكن من أداء رسالتها بيسر : (كان الرأس أليق موضع بها وأجملها : فالرأس صومعة الحواس) .

ثم يذكر الحكمة فى عدد الحواس ، فيقول :

(جعل الحواس خمسًا فى مقابلة المحسوسات الخمس ؟ ليلقى خمسًا بخمس .

حتى لا يبقى شيء من المحسوسات لا يناله بحاسة :

فجعل البصر فى مقابلة المبصرات ، والسمع فى مقابلة الأصوات ، والشم فى مقابلة أنواع الروائح المختلفات ، والذوق فى مقابلة الكيفيات والمذوقات واللمس فى مقابلة الملموسات ، فأى محسوس بقى بلا حاسة ؟! ولو كان فى المحسوسات شيء غير هذه لأعطاك الله سبحانه حاسة سادسة . .

● ولما كان ما عداها إنما يدرك بالباطن أعطاك الحواس الباطنة ، وهى هذه

---

(١) السابق : ٢٨٥ بتصرف .

الأخماس التى جرت عليها ألسنة العامة والخاصة ، حيث يقولون : المتفكر المتأمل ضرب أخماسه فى أسداسه : أى حواسه الخمس فى جهاته الست ، وأرادوا أنه جذبه القلب ، وساربه فى الأقطار والجهات حتى قلب حواسه الخمس فى جهاته الست . وضربها فيها لشدة فكره) [1] .

فذكر الحواس الخمس الظاهرة ، ثم أشار إلى الحواس الباطنة ، وبذلك لا يستدرك عليه .

وهذه الحواس لا تعمل إلا بوسائط وعلائق ووسائل ، تمكنها من أداء رسالتها ، لا شك فى ذلك ، يقول :

(ثم أعينت هذه الحواس بمخلوقات أخرى منفصلة عنها ، تكون واسعة فى إحساسها :

فأعينت حاسة البصر بالضياء والشعاع ، فلولاه لم ينتفع الناظر ببصره ، فلو منع الضياء والشعاع لم تنفع العين شيئًا .

وأعينت حاسة السمع بالهواء يحمل الأصوات فى الجو ، ثم يلقيها إلى الأذن فتحويه ، ثم تصله إلى القوة السامعة ولولا الهواء لم يسمع الرجل شيئًا.

وأعينت حاسة الشم بالنسيم اللطيف يحمل الرائحة ثم يؤديها إليها فتدركها، فلولا هو لم تشم شيئًا .

وأعينت حاسة الذوق بالريق المتحلل فى الفم ، تدرك القوة الذائقة به طعوم الأشياء ، ولهذا لم يكن له طعم لا حلو ولا حامض ، ولا مالح ، ولا حريف ؟ لأنه كان يحيل تلك الطعوم إلى طعمه ولا يحصل به مقصوده.

وأعينت حاسة اللمس بقوة جعلها الله فيها تدرك بها الملموسات ، ولم

---

(١) السابق : ٢٨٥

تحتج إلى شىء من خارجها ، بخلاف غيرها من الحواس ، بل تدرك الملموسات بلا واسطة بينها وبينها ؛ لأنها إنما تدركها بالاجتماع والملامسة ، فلم تحتج إلى واسطة) [1] .

فقد بين ضرورة الضياء لضرورة الإبصار ، وإلا لما تم المطلوب ، والهواء ضرورى لحمل الأصوات ، بينما النسيم العليل يمكن الشم من أداء مهمته ، وكان اللعاب فى الفم لإدراك المذوقات ، وترطيب اللسان ، بينما حاسة اللمس لها اكتفاء ذاتى حين تقوم بمهماتها . .

* *

ويقرر باحثو علم اللغة حديثًا أن أعضاء النطق فى الإنسان لم تكن خاصة بالنطق والكلام ووقفًا عليه . . بل لها منافع وميزات أخرى متعددة متنوعة ، وهذا ما أشار إليه ابن القيم حيث يقول :

(وفى هذه الآلات مآرب أخرى ومنافع سوى منفعة الكلام .

ففى الحنجرة مسلك النسيم البارد الذى يروح على الفؤاد بهذا النفس الدائم المتتابع .

وفى اللسان منفعة الذوق فتذاق به الطعوم وتدرك به لذتها ، ويميز به بينها ، فتعرف حقيقة كل واحد منها ، وفيه مع ذلك معونة على إساغة الطعام . وأن يلوكه ويقلبه حتى يسهل مسلكه فى الحلق .

* *

وفى الأسنان من المنافع ما هو معلوم ، وإسناد الشفتين ، وإمساكها عن الاسترخاء ، وتشويه الصورة .

وفى الشفتين منافع عديدة يرشف بها الشراب .

---

(١) السابق : ٢٠٩ بتصرف .

حتى يكون الداخل منه إلى حلقه بقدر ، فلا يشرق به الشارب ، ثم هما باب مغلق على الفم الذى ينتهى إليه ما يخرج من الجوف ، ومنه يبتدئ ما يلج فيه ، فهما غطاء وطابق عليه ، يفتحهما البواب متى شاء ، ويغلقهما إذا شاء ، وهما أيضًا جمال وزينة للوجه ، وفيهما منافع أخرى سوى ذلك . .

وقد بان لك أن كل واحد من هذه الأعضاء يتصرف إلى وجوه شتى من المنافع والمآرب والمصالح ، كما تتصرف الأداة الواحدة فى أعمال شتى) (١)

. . . ثم يعترف بأن فى تركيب العقل ، وصيانته ، وعمله . . ما حير الألباب والعقول ، وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ وَفِى الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ (٢) .

● والمعاصرون من علمائنا ، ما زالوا يقولون فى مثل هذه الدراسات :

إن الجهاز الصوتى عند الإنسان بالغ حد الروعة ، لما فيه من مرونة عجيبة : فقد تهيأ للإنسان بتلك المرونة إخراج عدد لا يحصى من الأصوات . .

وإن هذا الجهاز لم يكن فى أصل خلقه لإصدار الأصوات ، وإنما كان لكل جزء مهام أخرى :كالتذوق بالنسبة للسان ، والمضغ للأسنان ، والشم للأنف ، وهكذا . . ولكن عزى إليها الكلام لأهميته (٣) .

* *

وقد لا يقدر الإنسان نعم الله عليه حق قدرها ، ولا يعرف أهميتها مع أنه إذا أصابها عطب أو تعطلت عن القيام بواجبها ، فإن شعوره بالحسرة على فقدها يتضاعف . . بل إن الشعور بالألم يضاعف الآلام أكثر مما يحسه الإنسان ، إذا تخيل أنه فاقد لحاسة من حواسه ، أو حرم من نعمتها بعد الإنعام بها .

ولذا يضع ابن القيم أمام الأنظار . . ما يعظم لدى الإنسان نعمه عليه من

---

(١) السابق : ٢٩٠ (٢) الذاريات : ٢٠ ، ٢١

(٣) التجويد والأصوات (٩) : للدكتور إبراهيم نجا .

المنعم .. ويقارن بين المصائب والعلل ، أيها أكثر ضررًا وأشد تعويقًا للإنسان .. وبخاصة فيما يتعلق بأمور الدين .. يقول :

(إن فقد البصر أشد ضررًا من فقد السمع ؛ لأنه أسلمهما دينًا ، وإذا صبر فله الجنة .. وقد كان فى الصحابة أضراء (عميٌ) ، ولم يكن فيهم أطروش .. والمعافى من عافاه الله منهما ، ومتعه بسمعه وبصره ، وجعلهما الوارثين منه [١]) .

● والهواء حياة الأحياء ، وناقل الصوت ، ومعبر الكلام إلى السامع ، فما قيمة الهواء ؟ وما هو الهواء ؟

يقول : (الهواء) وما فيه من المصالح ، حياة الأبدان ، وتطرد الأصوات فتحملها وتؤديها كالرسول الحامل للبريد والأخبار ، وصلاح حياة الحيوان والنبات ، وحامل المطر كالراوية ، ويتفرق فى الجو حتى لا ينزل المطر جملة فيكون مهلكًا ، ويلقح الشجر والنبات حتى لا تكون عقيمًا ، وتسير السفن ، وتبرد الماء ، وتجفف المبتل ، وتضرم النار ... ولو ركدت لأنتن العالَم ، وتلفت النفوس ، والنباتات ، واستشرى الوباء .. ولذا قال الرسول ﷺ فى الرياح : « إنها من روح الله ، تأتى بالرحمة » .

* *

● ثم ينبه على لطيفة اللطائف فى هذا الهواء ، وهى : أن الصوت : أثر يحدث عند اصطكاك الأجرام ، وليس نفس الاصطكاك ، كما قال بذلك من قال ، ولكنه موجب الاصطكاك وقرع الجسم للجسم ، أو قلعه عنده ، فسببه قرع أو قلع ، فيحدث الصوت ، فيحمله الهواء ويؤديه إلى مسامع الناس ، فينتفعون به فى حوائجهم ومعاملاتهم بالليل ، والنهار ، وتحدث الأصوات العظيمة من حركاتهم .

فلو كان أثر هذه الحركات والأصوات يبقى فى الهواء ، كما يبقى الكتاب

---

(١) مفتاح دار السعادة : ٢٨٦

فى القرطاس لامتلأ العالم منه ، ولعظم الضرر به ، واشتدت مؤونته ، واحتاج الناس إلى محوه من الكلام فى الهواء ، والاستبدال به أعظم من حاجتهم إلى استبدال الكتاب المملوء كتابة ، فإن ما يلقى من الكلام فى الهواء قرطاس خفى ، يحمل الكلام بقدر ما يبلغ الحاجة ، ثم يمحى بإذن ربه ، فيعود جديدًا نقيًا لا شيء فيه ، فيحمل ما حمل كل وقت) (١) .

وهذا وصف مبسط عند المحدثين لحرف من الحروف العربية ، يتبين منه كيف يتكون ، والمراحل التى مر بها ، حتى صار حقيقة تدرك ، ومعجزة تحققت .

مثلاً (حرف التاء) : وصفه علماء الأصوات بأنه : حرف مهموس ، شديد مستفل ، منفتح ، ومصمت ، ويرجع همسه لعدم اهتزاز الأوتار الصوتية حال نطقه لانبساط فتحة المزمار ، واتساع مجرى الهواء ، كما أن شدته ترجع إلى حجزه الهواء خلفه حجزًا تامًا حال تقابل عضوى النطق ، وهما طرف اللسان ، وأصول الثنايا العليا .

وهو عند المحدثين انفجارى ، نظرًا لانطلاق الهواء بقوة حال انفصال هذين العضوين عن بعضهما .

ونظرًا لعدم ارتفاع اللسان به إلى أعلى كان مستفلاً ، ومنفتحًا ، ولما لم يعد ضمن حروف الخفة الستة (مر بنفل) كان مصمتًا .

ويتكون هذا الحرف مصاحبًا لهواء الرئتين فيمر بالقصبة الهوائية إلى أن يصل إلى الحنجرة فتنبسط فتحة المزمار ، ويبتعد الوتران الصوتيان عن بعضهما بما يسمح لمجرى الهواء بالاتساع ، مما ينجم عنه عدم الاهتزاز للأوطار الصوتية، ومن ثم عد هذا الحرف مهموسًا ، ثم يتابع الهواء سيره ، مارًا بالحلق فاللسان إلى أن يتصل طرفه بأصول الثنايا العليا اتصالاً محكمًا يمنع

---

(١) السابق : ٢٨٩

الهواء من التسرب ، ولذلك عد (شديدًا) ، وعندما ينفصل العضوان عن بعضهما ينطلق الهواء بقوة ، ولذا سمى انفجاريًا عند المحدثين ، ونظرًا لعدم ارتفاع اللسان به إلى أعلى كان (مستفلاً) ، و(منفتحًا) ، وهو مصمت لما سبق ، ونظرًا لغلبة الصفات الضعيفة عليه ، يعد من الحروف الضعيفة [1] .



هذا ما قرره العلم الحديث لحدوث الصوت .. فما هو تصور ابن القيم فى هذا الجانب ؟ علمًا بأن هذه المعلومات من ابن القيم مر عليها قرابة الستة قرون :

يتصور حدوث الصوت اللغوى على النحو التالى ، (... ثم تأمل فى هذا الصوت الخارج من الحلق ، وتهيئة آلاته ، والكلام وانتظامه ، والحروف ومخارجها ، وأدواتها ومقاطعها وأجراسها ... تجد الحكمة الباهرة فى هواء ساذج يخرج من الجوف فيستهلك فى أنبوبة الحنجرة حتى ينتهى إلى الحلق واللسان والشفتين والأسنان ، فيحدث له هناك مقاطع ، ونهايات ، وأجراس ، يسمع له عند كل مقطع ونهاية بين منفصل عن الآخر ، يحدث بسببه الحرف .

فهو صوت واحد ساذج يجرى فى قصبة واحدة ، حتى ينتهى إلى مقاطع وحدود تسمع له منها تسعة وعشرين حرفًا ، يدور عليها الكلام كله : أمره ونهيه ، وخبره واستخباره ، ونظمه ونثره ، وخطبه ، ومواعظه وفضوله ... ومنه الكلمة التى لا يلقى لها بالاً صاحبها يهوى بها فى النار .. والكلمة التى يرضى عنها الله ، صاحبها يركض بها فى أعلى الجنان ، فى جوار رب العالمين، فسبحان من أنشأ ذلك كله من هواء ساذج ، يخرج من الصدر لا يدرى ما يراد به ، ولا أين ينتهى ، ولا أين مستقره .

هذا إلى ما فى ذلك من اختلاف الألسنة واللغات ، التى لا يحصيها إلا الله

---

(١) التجويد والأصوات ص ٥٠ : د . إبراهيم محمد نجا .

.. واللسان الذى هو الجارحة واحد فى الشكل والمنظر ، وكذلك الحلق والأضراس والشفتان ، والكلام مختلف متفاوت أعظم تفاوت) [1] .... » .

* *

وعن تركيب آلات الكلام وعملها ، ومخارج الحروف وصفاتها ، وأثر ما يعتريها من خلل .. يحدثنا بما لا يبعد عن الذى قرره علماء الأصوات حديثًا ، يقول :

(فانظر الآن فى الحنجرة ، كيف هى كالأنبوب لخروج الصوت ، واللسان والشفتان والأسنان لصياغة الحروف والنغمات . ألا ترى أن من سقطت أسنانه لم يقم الحروف التى تخرج منها ومن اللسان . ومن سقطت شفته كيف لم يقم اللام والراء ، ومن عرضت له آفة فى حلقه كيف لم يتمكن من الحروف الحلقية) [2] .

وقد شبه أصحاب التشريح مخرج الصوت بالمزمار ، والرئة بالرق الذى ينفخ فيه من تحته ليدخل الريح فيه ، والفضلات التى تقبض على الرئة ؛ ليخرج الصوت من الحنجرة بالأكف التى تقبض على الرق ، حتى يخرج الهواء فى القصبة والشفتين والأسنان ، التى تصوغ الصوت حروفًا ونغمًا بالأصابع التى تختلف على المزمار ، فتصوغه ألحانًا ، والمقاطع التى ينتهى إليها الصوت بالأبخاش التى فى القصبة ، حتى قيل : إن المزمار إنما اتخذ على مثل ذلك من الإنسان .

فإذا تعجبت من الصناعة التى تعملها أكف الناس ، حتى تخرج منها تلك الأصوات ، فما أحراك بطول التعجب من الصناعة الإلهية ، التى أخرجت

---

(١) مفتاح دار السعادة : ٤٩٠

(٢) الحروف الحلقية التى تخرج من الحلق ستة ، نظمها بعضهم فى هذا البيت :

همز ، فهاء ، ثم عين حاء   مهملتـان ، ثم غين خاء

تلك الحروف والأصوات من اللحم والدم ، والعروق والعظام ! ويا بعد ما بينهما ! .

ولكن المألوف المعتاد لا يقع عند النفوس موقع التعجب ، فإذا رأت ما لا نسبة له إليه أصلاً إلا أنه غريب عندها تلقته بالتعجب وتسبيح الربّ تعالى ، وعندها من آياته العجيبة ما هو أعظم من ذلك ، مما لا يدركه القياس .

ثم تأمل اختلاف هذه النغمات وتباين هذه الأصوات مع تشابه الحناجر والحلوق والألسنة والشفاه والأسنان !! فمن الذى ميز بينها أتم تمييز مع تشابه محالها ، سوى الخلاق العليم ؟ (١) .

ومن الحروف تتألف الكلمات ، ومن الكلمات تعبير وبيان لمن رق طبعه ، ولطف حسه ، ومن البيان سرور وروعة .

* *

وعن نعمة البيان وأقسامه ، ومراتب الوجود ، ومدح من انتفع بذلك ، وذم سواه : يحدثنا ابن القيم فيقول :

(ثم تأمل نعمة الله على الإنسان بالبيانين : البيان النطقى ، والبيان الخطى، وقد اعتد بها سبحانه فى جملة ما اعتد به من نعمه على العبد ، فى قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذى خَلَقَ * خَلَقَ الإنسَانَ منْ عَلَق * اقْرَأْ ورَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (٢) ، فقد تضمنت الآيات على إيجازها مراتب الخلق والوجود :

من ذكر عموم الخلق ، وهو إعطاء الوجود الخارجى .

ثم ذكر ثانيًا خصوص خلق الإنسان .

ثم ذكر ثالثًا : التعليم بالقلم الذى هو من أعظم نعمه على عباده ، إذ به خلود العلوم ، وثبات الحقوق ، وتعلم الوصايا ، والحفظ والضبط . . . إلخ.

---

(١) المصدر السابق : ٣٠٠ (٢) العلق : ١ - ٥

(فالله) أعطى (الإنسان) **الذهن** الذى يعى به ، و **اللسان** الذى يترجم به، **والبنان** الذى يخط به ، وهيأ ذهنه لقبول هذا التعليم دون سائر الحيوانات!!

والتعليم بالقلم يستلزم مراتب الوجود الثلاثة ، والتى هى مسندة إليه سبحانه خلقًا وتعليمًا ، وهى :

مرتبة الوجود الذهنى ، والوجود اللفظى ، والوجود الرسمى .. فمن فضله وكرمه ذكر تعليمين : خاصًا ، وعامًا ، وكذلك خلقين عامًا وخاصًا...

* *

وكذلك المتأمل فى قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ ، يرى أنه سبحانه أعطى مراتب الوجود بأسرها .

الإيجاد الخارجى فى خلق الإنسان ، والوجود العلمى الذهنى فى تعليم القرآن . وتعليم البيان يتناول البيان الذهنى ، الذى يميز فيه المعلومات ، والبيان اللفظى الذى يعبر عن المعلومات ويترجمها .

والبيان الرسمى الخطى ، الذى ترسم به تلك الألفاظ فتبين معانيها للناظر إليها . فهذا بيان للعين ، والثانى بيان للسمع ، والأول بيان للقلب .

ولذا جمع سبحانه بين الثلاثة فى مثل قوله تعالى :

﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ (١) ، وقوله سبحانه :

﴿ وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) الإسراء : ٣٦ (٢) النحل : ٧٨

ويذم من عدم الانتفاع بها فى اكتساب الهدى ، والعلم النافع ، كقوله تعالى : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ (١) ، وقوله تعالى :

﴿ خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ، وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ (٢) .

وهذا يوضح فى بيان ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - فى عبارة وجيزة (٣) :

« بأن لكل شىء أربعة وجودات :

وجود خارجى ، هو : الوجود فى الأعيان .

ووجود علمى ، هو : الوجود فى الأذهان .

ووجود لفظى ، هو : الوجود فى النطق واللسان .

ووجود رسمى ، وهو الوجود فى الخط بالبنان ، ولكون تعليم الخط يستلزم غالبًا تعليم العبارة واللفظ المستلزم لتعليم العلم ، قال تعالى :

﴿ علَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ ، فقد أطلق التعليم ، ثم خص فقال سبحانه : ﴿ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (٤) .

وبعد فإن للعرب والمسلمين فضلاً كبيرًا فى هذه المباحث الطبيعية ، انتفعت بها أوروبا إبان نهضتها ، ومن هنا ندرك أن الأجداد لم يقصروا فى حق الأبناء ، ولا فى تأدية رسالتهم ، وبقى دور الأبناء والأحفاد .

* * *

---

(١) البقرة : ١٨ (٢) البقرة : ٧

(٣) فى كتابه : (مذهب السَّلَفَ القويم ، فى تحقيق مسألة كلام الله القديم) .

(٤) العلق : ٥

الفصل الثانى

فى أصول اللُّغة

- من نعم الله على خلقه فى نعمة الخلق .
- علم الأصوات ضرب فيه علماء المسلمين بسهم وافر .
- التجويد للقرآن الكريم أساس الصوتيات .
- ماهية الصوت ، وكيفية حدوثه .
- البيان النطقى والبيان الخطى .
- الإيجاد الخارجى فى خلق الإنسان والوجود العلمى الذهنى فى تعليم القرآن .
- لكل شىء أربعة وجودات :

* خارجى فى الوجود فى الأعيان .
* وعلمى فى الوجود فى الأذهان .
* ولفظى فى الوجود فى المنطق واللسان .
* ورسمى فى الخط والبيان .

لابن القيم - رحمه الله - معلومات قيمة عن اللغويات ، أغراني بتتبعها كتابه : « مفتاح دار السعادة » ، وخاصة ما يتعلق منها بـ « الصوتيات » فلم أجد البون شاسعًا ، ولا الفرق واسعًا بين معارفه وبين معارف المحدثين من «المختصين » فى هذا الفن اليوم ، مع ملاحظة أن وسائل الأقدمين كانت بسيطة ، أو بدائية ، ومقدراتهم المادية للبحث والمعرفة نادرة إذا ما قورن ذلك بما هيئ من وسائل البحث الحديث اليوم من منجزات هائلة ودفع قوى وعون دائم ، يعين على الابتكار ، ومواصلة البحث والتجربة بتعقل ؛ لأن المحنة اليوم فى جهود ترفض التطور إطلاقاً ، وبين تطرف يفضى إلى شر العواقب ، فبقيت الوسطية العاقلة . .

ولسنا بهذه النظرة نقلل من قيمة الدراسات الحديثة ، ولا جهود القائمين بها ؛ فذلك أمر تتطلبه روح العصر ، وتعين عليه منجزات التكنولوچيا ، ويفتح آفاقًا واسعة فى دنيا المعرفة والثقافة اليوم ، ويقتضيها طلبنا للرقى الحضارى فى شتى المجالات المعينة على النهوض .

وإنما قصدنا بهذه النظرة إبعاد شبح الانهزامية عن المسلم ، حتى يتمسك بتسلسل منطقى لإنشاء الحضارة ، بفكر القرآن والسنة واجتهادات أصيلة مبتكرة ، وتنقيتها مما تراكم حولها من سلبيات ، فتوحى بعد الغربلة الثقة فى نفس العربى والمسلم ، وينطلق من ضيق الأفق بسبب ماران عليه خلال عصور لم تكن فى صالحه ، ولا فى مقدوره أن يتخلص منها . . وعندما تبدأ ديناميكية الفكر عنده فى تنظيم دورتها وتتابعها . . يوم أن ينهض من جديد بفكر وعمل خلاق ، يصل به ما بدأ به أجداده ، وما يوحيه إليه إسلامه ، وبدلاً من التسول العلمى على موائد من نهضوا بمعارفنا ، سنصبح من جديد قبلة للعلم والعلماء . . وسيعلم أبناؤنا بالتالى أن بضاعتنا شرَّقت وغرَّبت ، ولكنها - والحمد لله - عادت وردت إلينا . . فترد إلينا الروح وترجع لنا الثقة .

ففى هذه الجزئية التى نتناولها اليوم تتنوع جهود المؤلفين العصريين : منهم

من يقتبس من جهود الأقدمين ، بغير ما إشارة إلى المرجع ، وبخاصة ما ألف فى العصور المتأخرة أو المظلمة كما نسميها . . وفى هذا ما فيه من الافتئات والغبن ، ولا عاصم منه إلا تحكيم الضمير ، والحس العلمى الحى .

وآخرون يؤلفون مقتدين بالغرب ومدارسه ، معجبين ومؤيدين ، ولا إشارة من قريب أو من بعيد ، لصنيع أجدادنا وعلمائنا القدامى ، ممن أفنوا عمرهم فى خدمة العربية والإسلام . . وهذا انسلاخ أو مسخ لا يرضاه عالم . . فإن كان الأمر جديداً فالعلم تركة موزعة بين أذكياء البشرية . . وإن أرسى علماؤنا قواعده ، وأسهموا فى إيجاده فأبسط حقوقهم أن يشار إلى عملهم ، وأن يشاد بفضلهم وجهدهم ، وتلك خلة محمودة : توحى بالثقة ، وتغرس الأمل ، وتغرى بمواصلة البحث والتقدم .

ولا يوافق عاقل أن تتوالى كتب الأبحاث اللغوية وما يتصل بها ، خلوا من الإشارة إلى ما قدمنا فى هذا المجال مما خلفه لنا تراثنا بدءاً بالعبقرى الخليل بن أحمد ، وسيبويه ، ومروراً بالخالدين (ابن جنى) ، و(الفارسى) ، و(الجرجانى) ، وغيرهم من عباقرة العرب والمسلمين . .

ومن ثَمَّ فقد تهللت لبادرة الأستاذ الدكتور : أحمد مختار عمر فى كتابه : (البحث اللغوى عند العرب) . . وحبذا لو توالت الأبحاث على هذا المنوال ترتكز على الأسس العتيقة وترفدها الدراسات الحديثة . . فيكون من هذا وذاك وقود النهضة الواعية الصاعدة ، بما يربطنا بماض مجيد أسهم فيه ابن القيم برسالته (أسباب حدوث الحروف) ، وابن جنى فى (سر الصناعة) ، وابن سنان الخفاجى فى (سر الفصاحة) ، وواكبهم علماء البلاغة والبيان .



يقول أستاذنا الدكتور الشيخ : إبراهيم محمد نجا - رحمه الله - :

. . وقد كان للعرب فضل كبير فى هذه المباحث الطبيعية (مباحث علوم اللغة) ، فأجروا التجارب التى مكنتهم من أن يستنبطوا على ضوئها حقائق كثيرة :

فقد ابتكروا كثيرًا من الآلات الموسيقية ، كالأرغون ، والرق ، والطبلة ، والقيثارة ، والطنبور ، والعود .. إلخ .

ويقول أيضًا :

ومن هنا نستطيع أن نقول : إنه لا غنى لدارس « علم الأصوات » عن الإلمام بالمبادئ الطبيعية التى تساعده على التعرف على أعضاء النطق ، وعن الإلمام بالمبادئ الاجتماعية ؛ لتعرف الأُسس التى قامت عليها دلالة الألفاظ : كدراسة النواحى الجغرافية ، والفلسفية والنفسية ...

والعرب هم أول أمة عنيت بهذه الدراسة ، هادفين إلى ضبط القرآن الكريم ، والاهتمام بتلاوته ، ولذلك أطلقوا على هذه الدراسة : (تجويد القرآن) أ هـ .

فهذا اللون من الدراسة وإن أصبح له فى دنيا الغرب الشأن الكبير ، وأفردت له الأقسام وخصصت له المعامل ، وأجريت عليه التجارب .. إلا أن للعرب فى هذا الميدان فضل السبق .. ومن واجبنا اللحاق بالركب : حفاظًا على لغة القرآن ، وبيان فضلها وميزاتها ، وتحقيقًا لما جد ويجد من نفع فى دراسة هذا اللون فى ميادينه المختلفة ؛ لأن الإلغاء الفج كلية لمثل هذه الدراسة تخلف حضارى لا شك فى ذلك .. كما أن الاكتفاء بالقشور قصور علمى .. لا يغنى ولا يسمن من جوع .

* *

* وقد حسدنا الغرب على الأصول التى وضعها الخليل بن أحمد الفراهيدى (٩٩ هـ) لعلم الموسيقى ، ولم يكن هاويًا ولا محترفًا .. ولم يضرب على آلة قط ..

* كما قد حسدونا على اختراع علم (التجويد) ، وضبط الألفاظ وطريقة نطقها ، بما حفظ لنا وللأجيال من بعدنا الطريقة الصحيحة لنطق القرآن الكريم ، كما أنزله الله تعالى إلى نبينا محمد ﷺ ، وعلمنا بالتالى كيف ننطق اللغة العربية التى هى وعاء الوحى .

* *

* وهذه مقتطفات مما لاحظته فى كتاب (مفتاح دار السعادة) ، لابن القيم - رحمه الله - ، فى هذا الصدد ، أسوقها بتعليق خفيف ، وأقارنها بسرعة بغيرها ، ليتبين الفضل والعلم .

* كان ملحظ علمائنا الأوائل دينيًا فى كل معارفهم ، بمعنى : أن الله تعالى كان قبلتهم فى كل شىء ، يقول الإمام ابن قيم الجوزية :

(خلق الله - سبحانه - الأذن أحس خلقة وأبلغها فى حصول المقصود منها، فجعلها مجوفة كالصدفة لتجمع الصوت ، فتؤديه إلى الصماخ ، وليحس بدبيب الحيوان فيها ، فيبادر إلى إخراجه .

وجعل فيها غضونًا وتجاويف واعوجاجات تمسك الهواء والصوت الداخل فتكسر حدته ، ثم تؤديه إلى الصماخ . . .) .

* ويشير إلى حكمة الله تعالى فى أن جعل للإنسان حاستين وعضوين كالأذنين والعينين اللتين اقتضت الحكمة تعددهما : فإنه ربما أصيبت إحداهما أو عرضت لها آفة تمنعها من كمالها ، فتكون الأخرى سالمة فلا تتعطل منفعة هذا الحس جملة ، وكان وجود أنفين فى الوجه شيئًا غير سوى ، فنصب فيه أنفًا واحدًا ، وجعل فيه منفذين حجز بينهما بحاجز يجرى مجرى تعدد العينين والأذنين فى المنفعة وهو واحد ، فتبارك الله رب العالمين ، وأحسن الخالقين .

* ويقول : جعل الله - سبحانه - فى الحلق منفذين : أحدهما للصوت والنفس الواصل إلى الرئة ، والآخر ، للطعام والشراب وهو المرىء الواصل إلى المعدة ، وجعل بينهما حاجزًا يمنع عبور أحدهما فى طريق الآخر ، منعًا للهلاك لو وصل الطعام من منفذ النفس .

* وجعل داخل الأذن مستويًا كهيئة الكوكب ؛ ليطرد فيه الصوت حتى ينتهى إلى السمع الداخلى وقد انكسرت حدة الهواء فلا ينكؤه .

فقد لحظ ابن القيم أن تجويف الأذن تكفل بحفظها حين نشعر بالخطر ، وأن

التجاويف تمسك الهواء والصوت حتى يصل إلى الصماخ فى رفق .. وأن تكرار الأذن فيه جمال واحتياط ، وكذلك العينان .. وقام منفذ الأنف مقامهما بما تركب فيه من حاجز ، وفى الحلق منفذان يحجز بينهما ليقوم كل منهما بما نيط من مهمات حيوية ، وبما يضمن السلامة للإنسان الذى خلقه الله فى أحسن تقويم .

* *

* ويعمم ابن القيم فى حديثه ، ثم يخصص زيادة فى البيان : فيذكر ما أودع الله تعالى فى الرأس - كأشرف مكان فى الإنسان - وما أودعه الله فيه من آلات تعين على استمرارية الحياة من جهة ، وتعين على الاختيار والتذوق لتفضيل المناسب والأليق ، ثم تودى بالتالى نعمة الكلام والبيان ، مع الإشارة إلى الاتصال بينها وبين بعضها فى تناسق وترابط يشير إلى قدرة الخالق والمنعم، ويذكر العبد بنعم المتفضل سبحانه ..

* ولأن اللسان أخطر الأعضاء من جهة وأجلها من ناحية أخرى ، وحتى فى تخصيص مكانه وستره ، فضلاً عن لطافته وحاجته إلى الرطوبة لتأدية وظيفته المزدوجة على نحو مرض وفعال .. كان فى داخل الفم لا خارجه .. ثم ما أحيط به من أسنان وشفاه .. وكانت بدايته فى أقصاه لا فى طرفه ..

وكيف كان اختلاف الحناجر معجزة فى عدم تشابه الأصوات ، مما أشبه اختلاف البصمات ..

وكان اختلاف الأصوات سببًا فى حفظ الحقوق والعدل حين أباح العلماء للأعمى الشهادة ؛ لأنه يميز بين الأصوات المختلفة ، فلا تستعصى عليه الشهادة .. تمكينًا للعدالة فى دنيا الإنسان ..

يقول - رحمه الله - فى معرض الرد على الدهريين ، والطبيعيين ، ممن نسميهم اليوم بالماديين والملحدين :

شق للعبد الفم فى أحسن موضع ، وأليقه به ، وأودع فيه من المنافع وآلات الذوق والكلام ، وآلات الطحن والقطع ما يبهر العقول عجائبه ، فأودعه اللسان الذى هو إحدى آياته الدالة عليه ، وجعله ترجمانًا لملك الأعضاء ، مبينًا ، مؤديًا عنه .

كما جعل الأذن رسولاً مؤديًا مبلغًا إليه ، فهى رسوله وبريده الذى يؤدى إليه الأخبار ، واللسان بريده ورسوله الذى يؤدى عنه ما يريد) .

* *

* وعن وظيفة اللسان ، ومكانه ومكانته ، وما أحيط به للحفظ والزينة والإعانة على أداء وظيفته ، يقول :

(واقتضت حكمته سبحانه ، أن جعل هذا الرسول مصونًا محفوظًا مستورًا غير بارز مكشوف كالأذن والعين والأنف ؛ لأن تلك الأعضاء لما كانت تؤدى من الخارج إليه جعلت بارزة ظاهرة ، ولما كان اللسان مؤدياً منه إلى الخارج جعل له سترًا مصونًا لعدم الفائدة فى إبرازه ؛ لأنه لا يأخذ من الخارج إلى القلب ، وأيضًا : فلأنه لما كان أشرف الأعضاء بعد القلب ، ومنزلته منه منزلة ترجمانه ووزيره . . ضرب عليه سرادق تستره وتصونه ، وجعله فى ذلك السرادق كالقلب فى الصدر .

وأيضًا : فإنه من ألطف الأعضاء وألينها ، وأشدها رطوبة ، وهو لا يتصرف إلا بواسطة الرطوبة المحيطة به ؛ فلو كان بارزًا صار عرضة للحرارة واليبوسة والنشاف المانع له من التصرف ، ولغير ذلك من الحكم والفوائد .

* ثم زين سبحانه الفم بما فيه من الأسنان ، التى هى جمال له وزينة ، وبها قوام العبد وغذاؤه . . متناسقة الترتيب ، كأنها الدر المنظوم . .

وأحاط - سبحانه - على ذلك حائطين ، وأودعهما من المنافع والحكم ما أودعهما ، وهما الشفتان . . وجعلهما إتمامًا لمخارج حروف الكلام ونهاية له .

كما جعل أقصى الحلق بداية له ، واللسان وما جاوره وسطًا ، ولهذا كان أكثر العمل فيها له ؛ إذ هو الواسطة .

وخلق سبحانه الحناجر مختلفة الأشكال فى الضيق والسعة ، والخشونة والملاسة ، والصلابة واللين ، والطول والقصر ، فاختلفت بذلك الأصوات أعظم اختلاف ، ولا يكاد يشتبه صوتان إلا نادرًا . ولهذا كان الصحيح قبول شهادة الأعمى ؛ لتمييزه بين الأشخاص بأصواتهم ، كما يميز البصير بينهم بصورهم ، والاشتباه العارض بين الأصوات كالاشتباه العارض بين الصور .

* *

* ولو تأملنا براعة الإمام السكاكى فى توزيع الحروف الأبجدية بين أعضاء النطق ، فى رسم لا يختلف كثيرًا عن رسومات المحدثين ، بما حباهم به العصر من منجزات التكنولوچيا المعاصرة . . لازداد إكبارنا لعلمائنا القدامى ولشعرنا بالتفوق . .

واليوم إذا كان عصر التقدم ، التكنولوچى - على منجزاته الهائلة - عاجزًا عن التشريح الدقيق وبيان الوظائف التفصيلية أو شبهها للمخ ، وكيفية عمله . وللإمام ابن قيم الجوزية إشارات مقتضية إلى هذا الجانب ، حين يقول :

(ومن عجائب خلقه : أنه جعل فى الرأس ثلاث خزائن نافذًا بعضها إلى بعض : خزانة فى مقدمه ، وخزانة فى وسطه ، وخزانة فى آخره ، وأودع تلك الخزائن من أسراره ما أودعها ، من الذكر ، والفكر ، والتعقل) .

ولذا نجد بعض العلماء المعاصرين ، يتعرض لأعضاء النطق بالدراسة التفصيلية ، ما عدا (المخ) ، ويصرح بأنه لن يتعرض له بشىء من التفصيل لدقة تشريحه ، فضلاً عن أن التشريح لم يصل بعد لتعرف شأنه تعرفًا تامًا .

* *

* ويجعل ابن قيم الجوزية التفكر فى مكان يفضل العبادة ؛ لما ورد فى

الآثار ، ولأن الفكرة مخ العقل ، وعبادة الصالحين ، ولذا صرف المتكبرون عن التفكر فى آيات الله : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ (١) .

ويفرق بين التذكر والتفكر : بأن الأول يثبت فى القلب ما عرف بالتكرار ، والتفكر يكثر العلم ويستجلب ما ليس حاصلاً : فالفكر يحصله ، والتذكر يحفظه ، ولهذا قال الحسن : (ما زال أهل العلم يغدون بالتذكر على التفكر، وبالتفكر على التذكر ، ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة) .

فالتفكر والتذكر بذار العلم ، وسقيه مطارحته ، ومذاكرته تلقيحه . . . حتى يقرر أن أصل كل طاعة إنما هى الفكر ، وأصل كل معصية من جانب الفكرة حين يصادف الشيطان أرض القلب خالية فارغة ، فيبذر فيها حب الأفكار الرديئة .

* ويتعرض إلى الحديث عما فى داخل الإنسان مما لا نشاهده ، كالقلب والكبد والطحال والرئة . . ويتحدث عن بعض وظائفها ، مستدلاً بذلك على عجائب خلق الله سبحانه ، ويجعل القلب ملكًا يستعمل جميع آلات البدن ، وكلها خادمة له ؛ لأنه أشرفها ، وبه قوام الحياة ، والغرائز ، والصفات ، ولذا فالعين طليعته ورائده ، واللسان ترجمانه المؤدى للسمع ما فيه ، ومن ثم فكثيرًا ما قرن المولى سبحانه الثلاثة ، كما فى قوله : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ (٢) ، ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً ﴾ (٣) ، وقوله تعالى : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ (٤) .

وبالجملة فسائر الأعضاء خدمه وجنوده .

وقال النبى ﷺ : « ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ، ألا وهى القلب » .

---

(١) الأعراف : ١٤٦ — (٢) الإسراء : ٣٦

(٣) الأحقاف : ٢٦ — (٤) البقرة : ١٨

ولله در الشاعر حيث يقول :

فسبحان من لا يقدر الخلق قدره ومن هو فوق العرش فرد موحد

* *

* ويذكر الإنسان بمنافع أعضائه :

فالعينان :للاهتداء والجمال والزينة والملاحة ، ورؤية ما فى السموات والأرض وعجائبهما .

والفم : للغذاء والجمال وغير ذلك .

والأنف : للنفس ، وإخراج فضلات الدماغ ، وزينة الوجه .

واللسان : للبيان والترجمة عنك .

والأذنان : صاحبتا الأخبار تؤديانها إليك .

واللسان : يبلغ عنك . .

* *

* وهو حريص على بيان حكمة الله فى جعل الحواس الخمس للإنسان فى أشرف مكان ، يقول :

وانظر إلى الحواس التى منها تشرف على الأشياء ، كيف جعلها الله فى الرأس كالمصابيح فوق المنارة لتتمكن بها من مطالعة الأشياء ، ولم تجعل فى الأعضاء التى تمتهن كاليدين والرجلين ، فتعرض للآفات بمباشرة الأعمال والحركات . . وحتى تتمكن من أداء رسالتها بيسر : (كان الرأس أليق موضع بها وأجملها : فالرأس صومعة الحواس) .

* *

* ثم يذكر الحكمة فى عدد الحواس ، فيقول : جعل الحواس خمسًا فى مقابلة المحسوسات الخمس : ليلقى خمسًا بخمس ، كى لا يبقى شىء من المحسوسات لا يناله بحاسة :

فجعل البصر فى مقابلة المبصرات ، والسمع فى مقابلة الأصوات ، والشم فى مقابلة أنواع الروائح المختلفات . والذوق فى مقابلة الكيفيات المذوقات ، واللمس ، فى مقابلة الملموسات .

فأى محسوس بقى بلا حاسة ؟ ولو كان فى المحسوسات شىء غير هذه لأعطاك له حاسة سادسة . .

* ولما كان ما عداها إنما يدرك بالباطن أعطاك الحواس الباطنة ، وهى هذه الأخماس التى جرت عليها ألسنة العامة والخاصة ، حيث يقولون : للمتفكر المتأمل : ضرب أخماسه فى أسداسه : أى حواسه الخمس فى جهاته الست ، وأرادوا أنه جذبه القلب ، وسار به فى الأقطار والجهات حتى قلب حواسه الخمس فى جهاته الست ، وضربها فيها لشدة فكره .

فذكر الحواس الخمس الظاهرة ، ثم أشار إلى الحواس الباطنة ، وبذلك لا يستدرك عليه .

* وهذه الحواس لا تعمل إلا بوسائط ووسائل ، تمكنها من أداء رسالتها ، لا شك فى ذلك ، يقول :

ثم أعينت هذه الحواس بمخلوقات أخرى منفصلة عنها ، تكون واسعة فى إحساسها :

فأعينت حاسة البصر بالضياء والشعاع ، فلولاه لم ينتفع الناظر ببصره ، فلو منع الضياء والشعاع لم تنفع العين شيئًا .

وأعينت حاسة السمع بالهواء يحمل الأصوات فى الجو ، ثم يلقيها إلى الأذن فتحويه ، ثم تصله إلى القوة السامعة ، ولولا الهواء لم يسمع الرجل شيئًا .

وأعينت حاسة الشم بالنسيم اللطيف يحمل الرائحة ثم يؤديها إليها فتدركها فلولا هو لم تشم شيئًا .

وأعينت حاسة الذوق بالريق المتحلل فى الفم ، تدرك القوة الذائقة به طعوم الأشياء ، ولهذا لم يكن له طعم لا حلو ولا حامض ، ولا مالح ولا حريف؛ لأنه كان يحيل تلك الطعوم إلى طعمه ولا يحصل به مقصوده .

وأعينت حاسة اللمس بقوة جعلها الله فيها تدرك بها الملموسات ، ولم تحتج إلى شىء من خارجها ، بخلاف غيرها من الحواس ، بل تدرك الملموسات بلا واسطة بينها وبينها ؛ لأنها إنما تدركها بالاجتماع والملامسة ، فلم تحتج إلى واسطة أ . هـ .

فضرورة الضياء لضرورة الإبصار ، وإلا لما تم المطلوب ، والهواء ضرورى لحمل الأصوات ، بينما النسيم العليل يمكن الشم من أداء مهمته ، وكان اللعاب فى الفم لإدراك المذوقات ، وترطيب اللسان ، بينما حاسة اللمس لها اكتفاء ذاتى حين تقوم بمهماتها .



ويقرر باحثو علم اللغة حديثا أن أعضاء النطق فى الإنسان لم تكن خاصة بالنطق والكلام ووقفًا عليه . . بل لها منافع وميزات أخرى متعددة متنوعة ، وهذا ما أشار إليه ابن قيم الجوزية . حيث يقول :

وفى هذه الآلات مآرب أخرى ومنافع سوى منفعة الكلام :

ففى الحنجرة مسلك النسيم البارد الذى يروح على الفؤاد بهذا النفس الدائم المتتابع .

وفى اللسان منفعة الذوق فتذاق به الطعوم ، وتدرك به لذتها ، ويميز به بينها ، فيعرف حقيقة كل واحد منها ، وفيه مع ذلك معونة على إساغة الطعام، وأن يلوكه ويقلبه حتى يسهل مسلكه فى الحلق .

وفى الأسنان من المنافع ما هو معلوم ، وإسناد الشفتين ، وإمساكها عن الاسترخاء ، وتشويه الصورة .

وفى الشفتين منافع عديدة يرشف بها الشراب ، حتى يكون الداخل منه إلى حلقه بقدر ، فلا يشرق به الشارب ، ثم هما باب مغلق على الفم الذى ينتهى إليه ما يخرج من الجوف ، ومنه يبتدئ ما يلج فيه ، فهما غطاء وطابق عليه ، يفتحهما البواب متى شاء ويغلقهما إذا شاء .

وهما أيضًا جمال وزينة للوجه وفيهما منافع أخرى سوى ذلك .

وقد بان لك أن كل واحد من هذه الأعضاء ينصرف إلى وجوه شتى من المنافع والمآرب والمصالح : كما تتصرف الأداة الواحدة فى أعمال شتى . .

ثم يعترف بأن فى تركيب العقل ، وصيانته ، وعمله . . ما يحير الألباب والعقول ، وصدق الله : ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ (١) .

* *

* والمحدثون من علمائنا ، ما زالوا يقولون فى مثل هذه الدراسات :

إن الجهاز الصوتى عند الإنسان بالغ حد الروعة ، لما فيه من مرونة عجيبة : فقد تهيأ للإنسان بتلك المرونة إخراج عدد لا يحصى من الأصوات ، وإن هذا الجهاز لم يكن فى أصل خلقه لإصدار الأصوات ، وإنما كان لكل جزء مهام أخرى : كالتذوق بالنسبة للسان ، والمضغ للأسنان ، والشم للأنف ، وهكذا . . .

ولكن عزى إليها الكلام لأهميته .

وقد لا يقدر الإنسان نعم الله عليه حق قدرها ، ولا يعرف أهميتها مع تمتعه بها ، بيد أنه إذا أصابها عطب أو تعطلت عن القيام بواجبها - فإن شعوره بالحسرة على فقدها يتضاعف . . بل إن الشعور بالألم يضاعف الآلام أكثر مما

---

(١) الذاريات : ٢٠ ، ٢١

يحسه الإنسان ، إذا تخيل أنه فاقد لحاسة من حواسه ، أو حرم من نعمتها بعد الإنعام بها .

ولذلك يضع ابن القيم أمام الأنظار . . ما يعظم لدى الإنسان نعمه عليه من المنعم . . ويقارن بين المصائب والعلل : أيها أكثر ضرراً وأشد تعويقًا للإنسان . . وبخاصة فيما يتعلق بأمور الدين . . يقول :

إن فقد البصر أشد ضرراً من فقد السمع ، وإذا صبر فاقده فله الجنة . . وقد كان فى الصحابة أضراء ، ولم يكن فيهم أطروش . . والمعافى من عافاه الله منهما ومتعه بسمعه وبصره ، وجعلهما الوارثين منه .

* *

* والهواء حياة الأحياء ، وناقل الصوت ، ومعبر الكلام إلى السامع ، فما قيمة الهواء ؟ وما هو ؟ يقول : عن (الهواء) وما فيه من المصالح : هو حياة الأبدان ، وتطرد الأصوات فتحملها وتؤديها كالرسول الحامل للبريد والأخبار ، وصلاح حياة الحيوان والنبات ، وحامل المطر كالراوية ، ويتفرق فى الجو حتى لا ينزل المطر جملة فيكون مهلكًا ، ويلقح الشجر والنبات حتى لا تكون عقيمًا ، وتسير السفن ، وتبرد الماء ، وتجفف المبتل ، وتضرم النار ، ولو ركدت لأنتن العالم ، وتلفت النفوس والنباتات ، واستشرى الوباء . . ولذا قال الرسول ﷺ فى الرياح : « إنها من روح الله تأتى بالرحمة » .

* ثم ينبهنا إلى لطيفة اللطائف فى هذا الهواء (مما يعنينا فى موضوعنا هذا) ، وهى :

أن الصوت أثر يحدث عند اصطكاك الأجرام ، وليس نفس الاصطكاك ، كما قال ذلك من قاله ، ولكنه موجب الاصطكاك ، وقرع الجسم للجسم ، أو قلعه عنده ؛ فسببه قرع أو قلع ، فيحدث الصوت ، فيحمله الهواء ، ويؤديه إلى مسامع الناس ؛ فينتفعون به فى حوائجهم ومعاملاتهم بالليل والنهار ، وتحدث الأصوات العظيمة من حركاتهم .

فلو كان أثر هذه الحركات والأصوات يبقى فى الهواء ، كما يبقى الكُتاب فى القرطاس لامتلأ العالم منه ، ولعظم الضرر به ، واشتدت مؤنته ، واحتاج الناس إلى محوه من الهواء ، والاستبدال به أعظم من حاجتهم إلى استبدال الكتاب المملوء كتابة ؛ فإن ما يلقى من الكلام فى الهواء قرطاس خفى ، يحمل الكلام بقدر ما يبلغ الحاجة ، ثم يمحى بإذن ربه ، فيعود جديداً نقيًا لا شىء فيه ، فيحمل ما حمل كل وقت) .

* *

* وهذا وصف مبسط عند المحدثين لحرف من الحروف العربية ، يتبين منه كيف يتكون ، والمراحل التى مر بها ، حتى صار حقيقة تدرك ومعجزة تحققت مثلاً :

(حرف التاء) : وصفه علماء الأصوات بأنه : حرف مهموس ، شديد ، مستفل ، منفتح ، مصمت .

ويرجع همسه لعدم اهتزاز الأوتار الصوتية حال نطقه ؛ لانبساط فتحة المزمار ، واتساع مجرى الهواء .

كما أن شدته ترجع إلى حجزه الهواء خلفه حجزًا تامًا حال تقابل عضوى النطق ؛ وهما طرف اللسان وأصول الثنايا العليا .

وهو عند المحدثين انفجارى ؛ نظرًا لانطلاق الهواء بقوة حال انفصال هذين العضوين عن بعضهما .

ونظرًا لعدم ارتفاع اللسان به إلى أعلى كان مستفلاً ، ومنفتحًا .

ولما لم يعد ضمن حروف الخفة وهى (مر بنفل) كان مصمتًا .

ويتكون هذا الحرف مصاحبًا لهواء الرئتين ، فيمر بالقصبة الهوائية إلى أن يصل إلى الحنجرة فتنبسط فتحة المزمار ، ويبتعد الوتران الصوتيان عن بعضهما بما يسمح لمجرى الهواء بالاتساع ، مما ينجم عنه عدم الاهتزاز للأوتار

الصوتية ، ومن ثم عد هذا الحرف (مهموسًا) ، ثم يتابع الهواء سيره ، مارًا بالحلق فاللسان إلى أن يتصل طرفه بأصول الثنايا العليا اتصالاً محكمًا يمنع الهواء من التسرب ، ولذلك عدّ (شديدًا) ، وعندما ينفصل العضوان عن بعضهما ينطلق الهواء بقوة ، ولذا سمى (انفجاريًا) عند المحدثين ، ونظرًا لعدم ارتفاع اللسان به إلى أعلى كان (مستفلاً) و(منفتحًا) ، وهو مصمت لما سبق ، ونظرًا لغلبة الصفات الضعيفة عليه ، يعد من الحروف الضعيفة .

هذا ما قرره العلم الحديث لحدوث الصوت .. فما هو تصور ابن القيم فى هذا الجانب ؟

* *

يتصور ابن القيم ، حدوث الصوت اللغوى على النحو التالى ، يقول :

(.. ثم تأمل فى هذا الصوت الخارج من الحلق ، وتهيئة آلاته ، والكلام وانتظامه ، والحروف ومخارجها ، وأدواتها ومقاطعها وأجراسها .. تجد الحكمة الباهرة فى هواء ساذج يخرج من الجوف ، فيستهلك فى أنبوبة الحنجرة حتى ينتهى إلى الحلق واللسان والشفتين والأسنان ، فيحدث له هناك مقاطع ، ونهايات وأجراس ، يسمع له عند كل مقطع ونهاية كل جرس مبين منفصل عن الآخر ، يحدث بسببه الحرف :

فهو صوت واحد ساذج يجرى فى قصبة واحدة ، حتى ينتهى إلى مقاطع وحدود تسمع له منها تسعة وعشرين حرفًا ، يدور عليها الكلام كله : أمره ونهيه ، وخبره واستخباره ، ونظمه ونثره ، وخطبه ومواعظه وفضوله .. ومنه الكلمة التى لا يلقى لها بالاً صاحبها فيهوى بها فى النار .. والكلمة التى لا يلقى لها بالاً صاحبها يركض بها فى أعلى الجنان ، فى جوار رب العالمين ، فسبحان من أنشأ ذلك كله من هواء ساذج ، يخرج من الصدر ، لا يدرى ما يراد به ، ولا أين ينتهى ، ولا أين مستقره .

هذا إلى ما فى ذلك من اختلاف الألسنة واللغات ، التى لا يحصيها إلا الله

. . واللسان الذى هو الجارحة واحد فى الشكل والمنظر ، وكذلك الحلق والأضراس والشفتان ، والكلام مختلف متفاوت أعظم تفاوت . . .) .

* *

وعن تركيب آلات الكلام وعملها ، ومخارج الحروف وصفاتها . . يحدثنا بما لايبعد عن الذى قرره علماء الأصوات حديثًا ، يقول :

(فانظر الآن فى الحنجرة ، كيف هى كالأنبوب لخروج الصوت ، واللسان والشفتان والأسنان لصياغة الحروف والنغمات ، ألا ترى أن من سقطت أسنانه لم يقم الحروف التى تخرج منها ومن اللسان ، ومن سقطت شفته كيف لم يقم اللام والراء ، ومن عرضت له آفة فى حلقه كيف لم يتمكن من الحروف الحلقية !!

وقد شبه أصحاب التشريح مخرج الصوت بالمزمار ، والرئة بالزق الذى ينفخ فيه من تحته ، ليدخل الريح فيه والفضلات التى تقبض على الرئة ليخرج الصوت من الحنجرة بالأكف التى تقبض على الزق ، حتى يخرج الهواء فى القصبة والشفتين والأسنان التى تصوغ الصوت حروفًا ونغمًا بالأصابع التى تختلف على المزمار فتصوغه ألحانًا ، والمقاطع التى ينتهى إليها الصوت بالأبخاش التى فى القصبة ، حتى قيل : إن المزمار إنما اتخذ على مثل ذلك من الإنسان .

فإذا تعجب من الصناعة التى تعملها أكف الناس ، حتى تخرج منها تلك الأصوات . . فما أحراك بطول التعجب من الصناعة الإلهية التى أخرجت تلك الحروف والأصوات من اللحم والدم والعروق والعظام ! ويا بعد ما بينهما !

ولكن المألوف المعتاد لا يقع عند النفوس موقع التعجب ، فإذا رأت ما لا نسبة له إليه أصلاً إلا أنه غريب عندها . . تلقته بالتعجب وتسبيح الرب تعالى ، وعندها من آياته العجيبة ما هو أعظم من ذلك . . ما لا يدركه القياس.

* *

* ثم تأمل اختلاف هذه النغمات وتباين هذه الأصوات مع تشابه الحناجر والحلوق والألسنة والشفاه والأسنان !! فمن الذى ميز بينها أتم تمييز مع تشابه محالها . . سوى الخلاق العليم) .

ومن الحروف تتألف الكلمات ، ومن الكلمات تعبير وبيان لمن رق طبعه ولطف حسه ، ومن البيان سر وروعة .

* *

وعن نعمة البيان وأقسامه ، ومراتب الوجود ، ومدح من انتفع بذلك ، وذم سواه . يقول :

ثم تأمل نعمة الله على الإنسان بالبيانين : البيان النطقى ، والبيان الخطى ، وقد اعتد بهما سبحانه فى جملة ما اعتد به من نعمه على العبد ، فى قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (١) .

فقد تضمنت الآيات على إيجازها مراتب الخلق والوجود .

من ذكر عموم الخلق ، وهو إعطاء الوجود الخارجى - ثم ذكر ثانيًا خصوص خلق الإنسان . . ثم ذكر ثالثًا : التعليم بالقلم ، الذى هو من أعظم نعمه على عباده ؛ إذ به خلود العلوم ، وثبات الحقوق ، وتعلم الوصايا ، والحفظ والضبط . . . إلخ . أ هـ .

(فالله) أعطى (الإنسان) الذهن الذى يعى به ، واللسان الذى يترجم به، والبنان الذى يخط به ، وهيأ ذهنه لقبول هذا التعليم دون سائر الحيوانات . .

والتعليم بالقلم يستلزم مراتب الوجود الثلاثة ، والتى هى مسندة إليه سبحانه خلقاً وتعليمًا ، وهى :

---

(١) العلق : ١ - ٥

مرتبة الوجود الذهنى ، والوجود اللفظى ، والوجود الرسمى .. فمن فضله وكرمه ذكر تعليمين :

خاصًا ، وعامًا ، وكذلك خلقين : عامًا وخاصًا ..

وكذلك المتأمل فى قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ (١) .

فالله سبحانه أعطى مراتب الوجود بأسرها :

الإيجاد الخارجى فى خلق الإنسان ، والوجود العلمى الذهنى فى تعليم القرآن .

وتعليم البيان يتناول البيان الذهنى ، الذى يميز فيه بين المعلومات . والبيان اللفظى الذى يعبر عن المعلومات ويترجمها .

والبيان الرسمى الخطىّ ، الذى ترسم به تلك الألفاظ فتبين معانيها للناظر إليها ، فهذا بيان للعين ، والثانى بيان للسمع ، والأول بيان للقلب .

ولذا جمع سبحانه بين الثلاثة فى مثل قوله : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ (٢) . وقوله : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٣) ويذم من عدم الانتفاع بها فى اكتساب الهدى ، والعلم النافع، كقوله : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ (٤) ، وقوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ (٥) .

* *

ويذكر ابن تيمية - رحمه الله تعالى - فى كتابه : « مذهب السلف القويم،

---

(١) الرحمن : ١ - ٤ (٢) الإسراء : ٣٦ (٣) النحل : ٧٨

(٤) البقرة : ١٨ (٥) البقرة : ٧

فى تحقيق مسألة كلام الله القديم » ، خلاصة لما سبق فى عبارة وجيزة ، بأن لكل شيء أربعة وجودات :

وجود خارجى هو الوجود فى الأعيان .

ووجود علمى هو الوجود فى الأذهان .

ووجود لفظى هو الوجود فى المنطق واللسان .

ووجود رسمى وهو الوجود فى الخط بالبنان .

ولكون تعليم الخط يستلزم غالبًا تعليم العبارة ، واللفظ المستلزم لتعليم العلم ، قال تعالى : ﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ (١) .

وأطلق التعليم ، ثم خص ، فقال : ﴿ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (٢) .

وأخيرًا يجب أن نعلم أن للعرب فضلاً كبيرًا فى هذه المباحث الطبيعية ، انتفعت بها أوروبا إبان نهضتها . فالأجداد لم يقصروا فى حق الأبناء ولا فى تأدية رسالتهم ، وبقى دور الأحفاد .

* * *

(١) ، (٢) العلق : ٤ ، ٥

الفصل الثالث

حروف العربية بين التوزيع والتوظيف

- صفات الحروف فى اللغة العربية .
- مخارج الحروف في العربية .
- مخارج حروف لفظ الجلالة (الله) .
- السرّ فى الحروف المقطعة فى أول السور .
- نماذج تطبيقية في سورتى (ص) ، و (ق) .

● **تمهيد** (*) :

إمام النحو سيبويه وشيوخه وأصحابه رأوا أن **أصول حروف العربية** (أى الأصوات الرئيسية لحروفها) تبلغ فى عددها تسعة وعشرين حرفًا هى :

الهمزة ، والألف ، والهاء ، والعين ، والحاء ، والغين ، والخاء ، والكاف ، والقاف ، والضاد ، والجيم ، والشين ، والياء ، واللام ، والراء ، والنون ، والطاء ، والدال ، والتاء ، والصاد ، والزاى ، والسين ، والظاء ، والذال ، والثاء ، والفاء ، والباء ، والميم ، والواو .

* *

* وأحصى سيبويه **المخارج التى تخرج منها الأصوات العربية** ، فعدها خمسة عشر مخرجًا ، هى :

١ - ما بين الشفتين .

٢ - باطن الشفة السفلى وأطراف الأسنان .

٣ - طرف اللسان وأطراف الثنايا . ٤ - طرف اللسان وفويق الثنايا .

٥ - طرف اللسان وأصول الثنايا . ٦ - ما بين طرف اللسان وفويق الثنايا .

٧ - ما بين طرف اللسان وفويق الثنايا أدخل فى ظهر اللسان .

٨ - حافة اللسان إلى الطرف وما فوقهما .

٩ - حافة اللسان وما يليه من الأضراس .

١٠ - وسط اللسان ووسط الحنك الأعلى .

١١ - مؤخر اللسان وما يليه من الحنك الأعلى .

١٢ - أقصى اللسان وما يليه من الحنك الأعلى .

١٣ - أدنى الحلق . ١٤ - وسط الحلق . ١٥ - أقصى الحلق .

* *

(*) ذكرت التمهيد لهذا الفصل بالتعريف الموجز لمخارج حروف العربية وصفاتها ، لنفهم ما يشير إليه ابن القيم فى هذا الفصل .

* أما صفات الحروف فهى على النحو الآتى :

١ - الشدة والرخاوة ، وما بينهما ، واللين والهوى .

٢ - الجهر والهمس .

٣ - التفخيم والترقيق ، وجعل الشداد أربعة أقسام هى :

أ - ما يمتنع معه النفس . ب - المنحرف .

جـ - الأنفى . د - المكرر .

وإليك جدول الأصوات العربية للمخارج والصفات كما رآها سيبويه :

سيذكر ابن القيم فى هذا الفصل صفات للحروف ، ربما يصعب فهمها على غير المتخصص ، فأردت بهذه التقدمة ، ذكر صفات الحروف فى إيجاز ، ليفهم القارئ العادى ما ذكره إتمامًا للفائدة ، ورسوخًا للمعنى .

● من صفات الحروف :

١ - الجهر والهمس :

* **فالحرف المجهور** : هو الذى يمتنع معه النَّفَسُ أن ينطلق إلى الخارج ، ويهتز معه الوتران الصوتيان اقترابًا يسمح للهواء بالتأثير فيهما بالاهتزاز .

* **والحرف المهموس** : هو الذى ينطلق معه النَّفَس إلى الخارج ، ولا يهتز معه الوتران الصوتيان نتيجة انبساط فتحة المزمار ، واتساع مجرى الهواء ، وابتعاد الوترين الصوتيين عن بعضهما ابتعادًا يجعل الهواء حال مروره بينهما غير قوى . . وحروف المهموس جمعت فى هذه الجملة : (سكت فحثه شخص) والحروف المهموسة ما عداها .

* *

٢ - والشدة والرخاوة والتوسط :

* **فالحرف الشديد** : هو الذى ينحبس معه النَّفَسُ عند النطق به ، وحروفه جمعت فى هذا الضابط : وهو (أجدك قطبت) .

* **والحرف الرخو** : هو الذى ينطلق معه الهواء حال النطق به كالسين والصاد .

* **والحرف المتوسط** : هو الذى يسمح للهواء بالمرور الخفيف حال التفوه به ، وحروفه جمعت فى (لن عمر) ، وتسمى الحروف المائعة .

* *

٣ - حروف الإطباق والانفتاح :

* **الإطباق** : هو ارتفاع اللسان إلى أعلى الحنك ، حتى يصير كالطبق له ، وحروف الإطباق هى : (الصاد ، والضاد ، والطاء ، والظاء) .

* **والانفتاح** : عدم ارتفاع اللسان إلى أعلى الحنك ، وحروفه : عدا الحروف السابقة للإطباق .

* *

٤ - الاستعلاء والاستفال :

* **الاستعلاء** : هو ارتفاع اللسان إلى أعلى الحنك عند النطق بالحرف ، وحروفه جمعت فى (خص ضغط ، قظ) .

* **والاستفال** : هو عدم ارتفاع اللسان إلى أعلى الحنك ، وحروفه عدا السابقة .

٥ - الزلاقة والإصمات :

* **الزلاقة** : طلاقة اللسان وخفته ، وحروفها (مر بنفل) ، ومتى دخل حرف منها الاسم الرباعى أو الخماسى نحكم بعربيته . . إلا ما نص العلماء على عربيته مثل : (العسجد : للذهب ، والزهزقة : لشدة الضحك ، ودهدق : بمعنى كسر) .

* **والإصمات** : هى التى لا يكتفى بها فى تركيب الكلمات ، كأنه صمت أى ترك تركيب الكلمات منها ، وحروفه عدا ما سبق .

* *

٦ - **التفخيم والترقيق :**

* **التفخيم** : هو تعظيم الحرف فى النطق حتى يمتلئ الفم بصداه ، وحروفه هى حروف الإطباق ، وهى : (خص ضغط قظ) .

* **والترقيق** : جعل جسم الحرف نحيلاً ، فلا يمتلئ الفم بصداه .. وحروفه عدا السابق ذكرها .

* *

٧ - **الصفير ، والقلقلة ، والتفشى ، والتكرار :**

* **الصفير** : صوت زائد يخرج من بين الشفتين شبيهًا بصفير الطائر ، وحروفه : (السين ، والزاى ، والصاد) .

* **والقلقلة** : اضطراب الحرف عند النطق به ساكنًا ، وحروفه (قطب جد) .

* **والتفشى** : انتشار الصوت فى الفم ، وهو خاص بالشين .

* **التكرار** : تكرر الحرف على طرف اللسان ، وهو خاص بالراء .

* *

ويلاحظ أن فى الصفات المذكورة خمس صفات قوية ، وهى :

الجهر ، والشدة ، والاستعلاء ، والإطباق ، والإصمات .

ويقابلها خمس صفات ضعيفة ، وهى :

الهمس ، والرخاوة ، والاستفال ، والانفتاح ، والزلاقة .

وإذن فالحرف يحكم عليه بالقوة إذا غلبت عليه صفات القوة ، والعكس [١] . انتهى التمهيد .

* *

---

(١) لمزيد بيان راجع كتاب « التجويد والأصوات » : للدكتور إبراهيم نجا ، وكتاب : « اللغة العربية معناها ومبناها » : للدكتور تمام حسان .

● يتحدث الإمام ابن القيم هنا عن : نعمة الصوت ، وماهيته ، وكيفية تكوينه ، ووظيفته فى الأداء والبيان ، وتوزيعه ، واتساق اللفظ والمعنى ، ووضع الحرف فى موضعه من الكلمة . وإتيان المعنى على سمت اللفظ ، وخدمة اللفظ للمعنى ، ويمثل لذلك ، ويبين مخارج لفظ الجلالة . ويتعرض - بالتالى - لمعنى الحروف المقطعة فى أوائل بعض سور القرآن الكريم - مثل : ألم ، ألمص ، كهيعص ، ق ، ن ، ص . . . فى دراسة تطبيقية ، وبيان لإعجاز القرآن المجيد فى مبانيه ومعانيه . . .

يقول : (الصوت نعمة حين يتم التعارف به ، ويؤدى المطلوب - فى البيان اللفظى - وتلاشى الصوت نعمة ؛ حتى لا يمتلئ العالم به .

ومنشؤ الصوت هو أثر الاصطكاك ، لا الاصطكاك نفسه ، فهو موجب الاصطكاك ، وقرع الجسم للجسم ، أو قلعه عنه ، فسببه : قرع أو قلع ، فيحدث الصوت ، فيحمله الهواء ويؤديه إلى مسامع الناس ، فينتفعون به فى حوائجهم ومعاملاتهم بالليل والنهار ، وتحدث الأصوات العظيمة من حركاتهم) (١) .

فقد تنبه إلى أن الصوت من موجبات الاصطكاك ، وأن تلاشيه نعمة ، كما كان نعمة فى حدوثه ، والعلم الحديث يقول بأنه لا يتلاشى ، وإن كان ذلك أمل لم يتحقق بعد .

وهو يرى أن تلاشيه نعمة من الخالق كما قدمنا .

* *

● اختصاص بعض الحروف بمزية ، وتحليل (هذا) :

والمعنى واللفظ عنده متناغمان ، ويأتى المعني على سمت اللفظ ، ويخدم اللفظ المعنى فى اتساق وتناسب .

---

(١) مفتاح دار السعادة : ٢٨٩

ويضرب لذلك مثلاً بأن الاسم من (**هذا**) هو الذال وحدها ، **على أصح** القولين ، بدليل سقوط الألف فى التثنية والمؤنث ، وخصت الذال بذلك لأنها من طرف اللسان ، والمشار إليه مبهم ، يشار إليه بلفظ أو بيد ، ويشير مع ذلك بلسانه ، فإن الجوارح خدم القلب ، **فإذا ذهب القلب إلى شىء ذهابًا معقولاً ذهبت الجوارح نحوه ذهابًا محسوسًا** .

* والعمدة فى الإشارة فى مواطن التخاطب على اللسان ، ولا يمكن إشارته إلا بحرف يكون مخرجه من عذبة اللسان ، التى هى آلة الإشارة دون سائر أجزائه ، (وهى) إما **الذال** أو **التاء** :

« فالتاء » : مهموسة رخوة ، فالمجهور أو الشديد من الحروف أولى منها للبيان ، و « **الذال** » **مجهورة** ، فخصت بالإشارة إلى المذكر .

وخصت « التاء » بالإشارة إلى المؤنث ، لأصل الفرق .

وكانت « التاء » به أولى لهمسها ، وضعف المؤنث ، ولأنها قد ثبتت علامة للتأنيث فى غير هذا الباب) [1] .

فقد بين أن « الذال » من هذا ، عليها مدار الكلام وحدها ، وعلل لذلك للإقناع .

وخص « الذال » بالإشارة ، لكونها من طرف اللسان ، وبالتالى وظف اللسان فى الإشارة كاليد وغيرها ، فهو مشير ، والذال من طرفه لتكون أوضح فى الإشارة وأبين .

وجعل الجوارح خدمًا للقلب ، وجعل إرادته معقولة ، بينما إرادة الحواس، وفعلها محسوسًا ، ليكون منطقيًا فى حكمه وتعبيراته .

والمشار إليه مبهم ، ولا بد من الإشارة إليه ، بما من شأنه أن تتأتى منه الإشارة .

---

(١) بدائع الفوائد : ١/ ١٨٠

* ويفاضل بين « الذال » فى هذا ، و« التاء » فى هذه . لتوضيح المقام بقوة . حين الإشارة ، وفضلت « الذال » الشديدة بالجهر ، على « التاء » الرخوة بالهمس .

واختصت « الذال » المجهورة بإشارة المذكر ، القوى فى جنسه ، وخصت « التاء » الرخوة بالمؤنث تفرقة للجنس الضعيف فى عموميته .

* *

● مخارج لفظ الجلالة :

* ومن هذا الباب ما ينقله عن ابن فورك ، عن مخارج لفظ الجلالة (الله) حين قال :

الحكمة فى وجود (الألف) فى أوله ، أنها من أقصى مخارج الصوت ، قريبًا من القلب ، الذى هو محل المعرفة .

ثم (الهاء) فى آخره ، مخرجها من هناك أيضًا ، لأنه المبتدأ منه والمعاد إليه ، والإعادة أهون من الابتداء .

وكذلك لفظ « الهاء » أهون من لفظ الهمزة) (١) .

وهذا توظيف للحروف فى واقع ومعقول .

* *

● تطبيقات أخرى :

يقول رحمه الله تعالى :

* تأمل سر (ألم) ، كيف اشتملت على هذه الحروف الثلاثة :

« فالألف » إذا بدئ بها أولاً كانت همزة ، وهى أول المخارج من أقصى الصدر (٢) .

و« اللام » ، من وسط مخارج الحروف ، وهى أشد الحروف اعتمادًا على اللسان .

---

(١) بدائع الفوائد : ١/ ١٨٠ .

(٢) حروف الحلق (الصادرة) من أقصى الحلق ستة ، نظمها بعضهم فى :

همز ، فهاء ، ثم عين ، حاء مهملتـــــــان ، ثم غين خاء

« والميم » ، آخر الحروف ، ومخرجها من الفم .

وهذه الثلاثة هي أصول مخارج الحروف ، أعنى : الحلق ، واللسان ، والشفتين . وترتيب فى التنزيل : من البداية ، إلى الوسط ، إلى النهاية .

وهذه الحروف (الألف واللام والميم) معتمد المخارج الثلاثة ، التى تتفرع منها ستة عشر مخرجًا ، فيصير منها تسعة وعشرون حرفًا ، عليها مدار كلام الأمم الأولين والآخرين ، مع تضمنها سرًا عجيبًا :

وهو أن « للألف » البداية ، و« اللام » التوسط ، و« الميم » النهاية .

فاشتملت الأحرف الثلاثة على البداية والنهاية والواسطة بينهما .

وكل سورة استفتحت بهذه الأحرف الثلاثة ، فهى مشتملة على بدء الخلق ، ونهايته ، و« توسطه » فمشتملة على تخليق العالم وغايته ، وعلى التوسط بين البداية والنهاية من التشريع والأوامر . . .

فتأمل ذلك فى سور : البقرة ، وآل عمران ، وتنزيل السجدة ، وسورة الروم ،

* *

* **وتأمل اقتران « الطاء » بـ « السين » ، و« الهاء » فى القرآن** :

فإن « الطاء » جمعت من صفات الحروف خمس صفات لم يجمعها غيرها . وهى : الجهر ، والشدة ، والاستعلاء ، والإطباق .

و« السين » مهموس ، رخو ، مستفل ، صفيرى ، منفتح .

فلا يمكن أن يجمع إلى « الطاء » حرف يقابلها كـ « السين » ، و« الهاء » ، فذكر الحرفين اللذين جمعا صفات الحروف .

* *

* **وتأمل السور التى اشتملت على الحروف المفردة** ، تجد السورة مبنية على كلمة ذلك الحرف .

فمن ذلك « ق » ، والسورة مبنية على الكلمات « القافية » (أى تكرار القاف) من ذكر القرآن .

وذكر الخلق ، وتكرير القول ، ومراجعته مرارًا ، والقرب من ابن آدم ، وتلقى الملكين قول العبد ، وذكر الرقيب ، وذكر السائق والقرين ، والإلقاء فى جهنم ، والتقديم بالوعيد ، وذكر المتقين ، وذكر القلب ، والقرون ، والتنقيب فى البلاد .

وذكر القيل مرتين ، وتشقق الأرض ، وإلقاء الرواسى فيها ، وبسوق النخل ، والرزق ، وذكر القوم ، وحقوق الوعيد ، ولو لم يكن إلا تكرير القول والمحاورة .

* وسر آخر ؛ وهو : أن كل معانى هذه السورة مناسبة لما فى حرف « القاف » من الشدة ، والجهر ، والعلو ، والانفتاح .

* *

* وإذا أردت زيادة إيضاح هذا ، **فتأمل ما اشتملت عليه سورة « ص »** ، من الخصومات المتعددة .

فأولها : خصومة الكفارمع النبى ﷺ وقولهم : ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ (١) إلى آخر كلامهم .

* ثم اختصام الخصمين عند داود عليه السلام .

* ثم تخاصم أهل النار .

* ثم اختصام الملأ الأعلى فى العلم ، وهو الدرجات والكفارات .

* ثم مخاصمة إبليس واعتراضه على ربه فى أمره بالسجود لآدم .

---

(١) سورة ص : ٥

* ثم خصامه (إبليس لعنه الله) فى شأن بنى آدم ، وحلفه ليغوينهم أجمعين إلا أهل الإخلاص منهم .

* فليتأمل اللبيب الفطن ، هل يليق بهذه السورة غير (ص) ، وبسورة (ق) غير حروفها ؟!

وهذه قطرة من بحر من بعض أسرار هذه الحروف ، والله أعلم [1] .

* *

● **سر ترتيب الحروف :**

فالألف إذا بدئ بها أولاً كانت همزة .

وأشار إلى أن أول مخارج الحروف ما يخرج من أقصى الصدر ، أو ما يسمى بالحروف الحلقية ، وهى (كما مرّ) :

همز فهاء ثم عين حاء   مهملتان ثم غين خـاء

وينتقل من أقصى الحلق أو الصدر إلى الشفتين أو الفم كما أشار ومثل بالميم قسيمة الباء فى هذا المخرج .

ثم أشار إلى الوسط بين الطرفين وهو اللسان ، الذى تعتمد عليه أشد الحروف ، وهى اللام .

فذكر الحلق ، ومر باللسان ، وانتهى بالشفتين أو العكس ، فى الأماكن الثلاثة .

ومن هذه المخارج الثلاثة تتحرك الحروف على مدرجها ، لترينا ستة عشر مخرجًا ، تنتج تسعة وعشرين حرفًا ، عليها مدار الكلام كلها ، كما سبق .

وجعل الحروف الثلاثة فى (أ . ل . م) المتضمنة للبداية والتوسط والنهاية

---

(١) بدائع الفوائد : ٣/ ١٧٣ ، ١٧٤

ممثلة لبداية الخلق ونهايته وتوسطه ، أو على تخليق العالم فى بدايته ، ونهايته فى غايته ، والتوسط فى التشريع والتكليف والأوامر والعمل .

ونبه على أننا لو راجعنا سورة البقرة ، وآل عمران ، وتنزيل السجدة ، وسورة الروم ، وكلها ابتدأت بقوله تعالى : (ألم) ، لوجدنا معانى هذه السور تتحدث عن البداية ، والنهاية ، والغاية ، ثم توسط التشريع فى الأوامر ، والنواهى (١) .

* *

* وذكر أن لاقتران الحروف المقطعة فى أول السور سرًا فى الجمع ، يجمع بين صفات الحروف فى تناسق لطيف ، يتطابق فيه ما تتصف به الحروف من ضعف أو قوة فى توازن هندسى ، يقول :

تأمل اقتران الطاء بالسين والهاء فى القرآن الكريم .

فإن الطاء جمعت من صفات الحروف خمس صفات ، لم يجمعها غيرها ، وهى : الجهر ، والشدة ، والاستعلاء ، والإطباق .

بينما السين حرف مهموس رخو مستفل صفيرى منفتح .

فلا يمكن أن يجمع إلى الطاء حرف يقابلها كالسين والهاء .

* *

---

(١) راجع سورة السجدة - مثلاً - من ١ - ٩ لبدء الخلق ، ومن ١٠ - ٢٧ لبيان صفات المجرمين ، وصفات المؤمنين ، والآيات من ٢٨ إلى آخر السورة ، لبيان النهاية والرجوع إلى الله تعالى .

وراجع على سبيل المثال أيضًا : سورة البقرة من أولها حتى آية ٣٨ للحديث عن بدء الخلق ، ثم آيات التشريع للصلاة ، والقبلة ، والحج ، والصيام ، والأهلة ، والطلاق ، والحيض ، والقتال ، والإنفاق من أول آية ٣٨ حتى آية ٢٨٣ ، ثم النهاية ، والختام والآخرة من ٢٨٤ حتى آخر السورة .

فذكر الحرفين اللذين جمعًا صفات الحروف ، من قوة وضعف .

وعنى بالتطبيق فذكر دراسة مقتضبة عما تضمنته سورة (ق) ، وسر البدء بهذا الحرف . وكل المعانى التى ذكرها تدور حول ما يتناسب مع صفات حرف (القاف) وكلها أوجلها معانى تتطلب القوة والشدة من :

* إلقاء الرواسى فى الأرض ، وشموخ النخل وبسوقه ، وسوق الرزق للعباد ، وتنقص الأرض منهم .

وفوقية السماء ، ودأب الأقوام فى تكذيب الرسل ، وحق الوعيد ، وتنقص الأرض منهم ، والقدرة على البعث .

* كما كانت القدرة فى خلق الإنسان من لا شىء ، والحديث عن سكرة الموت ، وتمكن القرين ، وقهر كل جبار عنيد ، وإلقائه فى العذاب الشديد ، وحوار جهنم ، وإحكام القول ، وتنقيب الأشداء فى البلاد ، والاستعداد لإطلاق الصيحة ، وتشقق الأرض ، وزوال العمران ، والتذكير بالقرآن فى المبدأ ونهاية السورة . . .[1] إلخ .

فلا عجب أن يتكرر حرف « القاف » الذى بدأت به السورة الشريفة قرابة الستين مرة .

* وذكر نماذج لمثل هذه الدراسة عن سورة (ص) ، والمعانى التى تتضمنها السورة ، والتى طابقت صفات حرف الصاد . . .

وحبذا لو احتذى محتذ لمثل هذه الدراسات فى القرآن الكريم ، فى السور التى افتتحت بالحروف ، لتضيف إلى علمنا ببلاغة القرآن أشياء جديدة ، وآفاقًا واسعة ، تثرى الدراسات القرآنية ، وتجلى عبقرية اللغة العربية ، وحكمتها وفصاحتها فى دنياها الثرة والعجيبة .

* * *

(١) إذا تأمل قارئ القرآن الكريم وفكر . . . يجد بدايات كل سورة مطابقة لما تختم به سورة .

الفصل الرابع

أقسام الأفعال واستعمالاتها

- ماض ، ومضارع ، وأمر ، هذه أقسام الفعل ولكنها تنوب عن بعضها ؟
- متى يكون الأمر للاستقبال ؟ أو للتجدد ؟ أو للمضى والاستقبال ؟
- ومتى يصلح المضارع للحال والاستقبال ؟
- وهل يتغير الفعل الماضى للأدوات الداخلة عليه ؟
- ابن القيم يرد على كبار النحاة .
- ويجعل استشهاده بالقرآن والسُّنَّة ، وفصيح الكلام .
- ويصحح ما توهم فيه النحاة مصححًا ما ذكروه .
- أدبه فى رده على العلماء ودعاؤه لهم .

● أقسام الأفعال :

الأفعال ثلاثة : ماض ، ومضارع ، وأمر .

فالأمر : لا يكون إلا للاستقبال ، ولذلك فلا يقترن به ما يجعله لغيره، وأما وروده لمن هو ملتبس بالفعل فلا يكون المطلوب منه إلا أمرًا متجددًا ، وهو : إما الاستدامة ، وإما تكميل المأمور به ، نحو : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (١) .

وأما الماضى : فيصرف إلى الاستقبال بعد أدوات الشرط ، وفى الوعد والإنشاء ونحوه ، لا فى الخبر ، كقوله تعالى : ﴿ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ ﴾ ، ﴿ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ ﴾ (٢) ، وكقوله : ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ (٣) .

وكقول النبى ﷺ لعائشة رضى الله عنها : « إن كنت أَلْمَمْتِ بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه » ، ونظائره كثيرة جدًا .

ولا يخفى فساد تأويل ذلك بأن المعنى : إن ثبت فى المستقبل وقوع ذلك فى الماضى ؛ أفترى المسيحَ يقول لربه : إن ثبت فى المستقبل أنى قلته فى الماضى فقد علمته ؟ وهل هذا إلا فاسد فى الكلام ممتنع من العاقل إطلاقه .

وكذلك قول النبى ﷺ لعائشة : إنما أراد إن كان وجد فيما مضى ذنب فتداركيه بالتوبة .

وأما ما يصير به الماضى مستقبلاً فكقولك : إن أقمت أكرمتك ، وإن زرتنى أحسنت إليك ، فهذا ماضى اللفظ مستقبل المعنى . وللنحاة هنا مسلكان :

(أحدهما) أن التغيير وقع فى لفظ الفعل ، وكان الموضع للمستقبل ، فغير إلى لفظ الماضى ، والأداة هى التى تصرفت فى تغييره ، وهذا اختيار **أبى العباس المبرد** .

---

(١) النساء : ١٣٦ (٢) يوسف : ٢٦ ، ٢٧ (٣) المائدة : ١١٦

(والثانى) أن التغيير إنما هو فى المعنى ، والأداة وردت على فعل ماض فغيرت معناه إلى الاستقبال ، وهذا هو الصواب ؛ لأن الأدوات المغيرة للكلم إنما تغير معانيها دون ألفاظها كالاستفهام المغير لمعنى ما بعده من الخبر إلى الطلب ، وكالتمنى ، والترجى ، والطلب ، والنفى ، ونظائره .

* وينصرف إلى الحال **بقرينة الإنشاء**: كتزوجت ، وبعتك ، وطلقتك ، على أحد القولين فى هذه الصيغ . ومن جعلها أخبارًا عما قام بالنفس فهى ماضية على بابها . **والتحقيق** أنها إنشاء للخارج إخبار عما فى النفس فجهة الخبر فيها لا ينافى جهة الإنشاء .

* وينصرف إلى الاستقبال بقرينة **الطلب والدعاء** ، كقولك : غفر الله لك ، وأدخلك الجنة ، وأعاذك من النار ، ونحو : عزمت عليك ألا فعلت .

* وينصرف إليه أيضًا **بالوعد عند** بعضهم ، مستشهدًا بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ (١) ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ (٢) ، و ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللهِ ﴾ (٣) ، ونحوه ، وفيه نظر ظاهر للمتأمل .

* وينصرف أيضًا إلى الاستقبال **بعطفه على ما علم استقباله** ، كقوله تعالى : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ﴾ (٤) ، ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِى الأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللهُ ﴾ (٥) .

* وينصرف إلى الاستقبال أيضًا بالنفى **بلا وإن بعد القسم** ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِن أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ﴾ (٦) وكقول الشاعر :

رِدُوا فوالله لازدنا كم أبدا ... ما دام فى مائنا ورد لنزال

* ويحتمل **المضى والاستقبال بعد همزة التسوية** ، نحو : سواء علىّ أقمت أم قعدت .

---

(١) الكوثر : ١ — (٢) الزمر : ٦٩ — (٣) النحل : ١
(٤) هود : ٩٨ — (٥) النمل : ٨٧ — (٦) فاطر : ٤١

والصواب أن المراد هنا المصدر المدلول بالفعل ، وهو أعم من الحال والاستقبال ؛ فلم يجىء الاحتمال من جهة الهمزة بل من جهة القصد إلى المصدر .

(فإن قلت) فلو اقترن الفعل الواقع بعد أم بلم ، فهل يصلح الماضى للحال والاستقبال ؟ أم يتعين المضى ؟

(قلت) ذهب **صاحب التسهيل** إلى تعيين المضى ، واحتج بقوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

والصواب : أنه لا يتعين المضى ؛ فإن المعنى سواء عليهم الإنذار وعدمه ، فلا فرق بين ذلك وبين أن يقال : سواء عليهم أأنذرت أم تركت الإنذار .

وكذلك لو كان بعد أم جملة اسمية لم يتعين المضى فى الفعل ، كقوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾ (٢) .

وإذا وقع الماضى بعد حرف التحضيض صلُح أيضًا للماضى والمستقبل ، كقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُم إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴾ (٣) .

والصواب : أن الماضى ههنا باق على وضعه لم يتغير عنه ، كقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ ﴾(٤) ، ويقول : هلا اتقيت الله فيما أتيت . والآية إنما نزلت فى غزوة تبوك فى سياق ذم المتخلفين عن رسول الله ﷺ ، فأخبر تعالى أن المؤمنين لم يكونوا لينفروا كافة ، ثم وبخهم توبيخًا متضمنًا للحض على أن ينفر بعضهم ، ويقعد بعضهم .

وأصح القولين : أنه ينفر منهم طائفة فى السرايا والبعوث ، وتقعد طائفة

---

(١) البقرة : ٦ — (٢) الأعراف : ١٩٣

(٣) التوبة : ١٢٢ — (٤) هود : ١١٦

تتفقه فى الدين ، فتنذر القاعدة الطائفة النافرة إذا رجعت إليهم ، وتخبرهم بمانزل بعدهم من الحلال والحرام والأحكام لوجوه :

أحدها : أن الآية إنما هى فى سياق النفير فى الجهاد وتوبيخ القاعدين عنه.

الثانى : أن النفير إنما يكون فى الغزو ، ولا يقال لمن سافر فى طلب العلم : إنه نفر ولا استنفر ، ولا يقال للسفر فيه نفير .

الثالث : أن الآية تكون قد اشتملت على بيان حكم النافرين والقاعدين ، وعلى بيان اشتراكهم فى الجهاد والعلم ، فالنافرون أهل الجهاد ، والقاعدون أهل التفقه ، والدين إنما يتم بالجهاد والعلم ، فإذا اشتغلت طائفة بالجهاد وطائفة بالتفقه فى الدين ، ثم يعلم أهل الفقه للمجاهدين إذا رجعوا إليهم حصلت المصلحة بالعلم والجهاد ، وهذا الأليق بالآية والأكمل لمعناها ، وأما إذا جعل النفير فيها نفيرًا لطلب العلم لم يكن فيها تعرض للجهاد مع إخراج النفير عن موضعه .

والذى أوجب لهم دعوى أن النفير فى طلب العلم : أنهم رأوا الضمير إنما يعود على المذكور القريب ، فالمنذرون هم النافرون وهم المتفقهون .

وجواب هذا : أن الضمير إنما يرجع إلى الأقرب عند سلامته من معارض يقتضى الأبعد ، وقد بينا أن السياق يقتضى أن القاعد هو المتفقه المنذر للنافر الراجع ، والمقصود : أن (نَفَرَ) فى الآية ماض وإنما يفهم منه الاستقبال لأن التحضيض يؤذن به .

والتحقيق فى هذا الموضع : أن لفظة لولا وهلا .. إن تجرد للتوبيخ لم يتغير الماضى عن وضعه ، وإن تجرد للتحضيض تغير إلى الاستقبال ، وإن كان توبيخًا مشربًا معنى التحضيض صلح للأمرين ، وإن وقع بعد « كلما » جاز أن يراد به المضى ، كقوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا جَاء أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾ (١) وإن

---

(١) المؤمنون : ٤٤

يردا به الاستقبال ، كقوله : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾ (١) .

وقد ظن صاحب التسهيل :

أنه إذا وقع صلة للموصول جاز أن يراد به الاستقبال محتجًا بقوله تعالى : ﴿ إلاَّ الَّذينَ تَابُوا من قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) ، وهذا وهم منه (رحمه الله) والفعل ماض لفظًا ومعنى ، والمراد إلا الذين تقدمت توبتهم بالقدرة عليهم فخلوا سبيلهم ، والاستقبال الذى لحظه (رحمه الله) إنما هو لما تضمنه الكلام من معنى الشرط ، ففيه معنى من تاب قبل أن تقدروا عليه فخلوا سبيله ، فلم يجىء هذا من قبل الصلة ، ولو تجردت الصلة عن معنى الشرط لم يكن الفعل إلا ماضيًا وضعًا ومعنى ، كقوله تعالى : ﴿ الَّذينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ ﴾ (٣) ، ونظائره .

وأما قوله ﷺ : « نضر الله امرءًا سمع مقالتى » ، فقال صاحب التسهيل : إن الاستقبال فى سمع جاء من كونه وقع صفة لنكرة عامة ، وهذا وهم أيضًا : فإن ذلك لا يوجب استقبالاً بحال ؛ تقول كم مال انفقته ؟ وكم رجل لقيته ؟ وكم نعمة كفرها أبو جهل ، وكم مشهد شهده (على) مع رسول الله ﷺ ، وإنما جاء الاستقبال من جهة ما تضمنه الكلام من الشرط ، فهو فى قوة : من سمع مقالتى فوعاها نضره الله فتأمله .

وكذلك إذا وقع مضافًا إليه حيث صلح للاستقبال إذا تضمنت معنى الشرط ، كقوله تعالى : ﴿ ومنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ ، وحيثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ (٤) ، فلم يأت الاستقبال ههنا من قبل (حيث) كما ظنه ، وإنما جاء من قبل ما تضمنه الكلام من الشرط ؛ ولهذا لو تجرد من الشرط ؛ لم يكن إلا للمضى ، كقولك : إذهب حيث ذهب فلان .

---

(١) النساء : ٥٦
(٢) المائدة : ٣٤
(٣) آل عمران : ١٧٣
(٤) البقرة : ١٤٤

وأما قول الشاعر :

وإنى لآتيكم بذكر ما مضى   من الأمر واستحباب ما كان فى غد

فلم تكن (كان) ههنا مستقبلة المعنى ؛ لكونها فى صلة الموصول ، بدليل وقوعها للمضى فى قوله : ما مضى من الأمر ، وإنما جاء الاستقبال من جهة الظرف الذى جعل وقتًا للفعل .

* *

● إذا نفى المضارع:

إذا نفى المضارع بلا فهل يختص فى الاستقبال ؟ أو يصلح له وللحال ؟ مذهبان للنحاة :

مذهب الأخفش : صلاحيته لهما ، ووافقه **ابن مالك** ، وزعم أنه لازم **لسيبويه** ؛ محتجًا بإجماعهم على صحة : قام القومُ لا يكون زيد ، فهو بمعنى إلا زيدًا ، ومن ذلك قولهم أتحبه أم لا تحبه ؟ وأتظن ذلك أم لا تظنه ؟ لا ريب أنه بمعنى الحال ، وقولهم مالك لا تقبل ؟ وأراك لا تبالى ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ ﴾ (١) ، و﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ (٢) ، و﴿ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ ﴾ (٣) ، ﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٤) .

وزعم الزمخشرى : أنه يتخلص بها للاستقبال ، أخذًا من قول سيبويه ، وإذا قال هو يفعل ولم يكن الفعل واقعًا فإن نفيه لا يفعل .

وهذا ليس صريحًا فى اختصاصه بالمستقبل ؛ فإن (لا) تنفى الحال والاستقبال ، وهو لم يقل لا تنفى الحال .

---

(١) المائدة : ٨٤
(٢) نوح : ١٣
(٣) النمل : ٢٠
(٤) يس : ٢٢

وإنما أراد سيبويه أن يفرق بين نفى الفعل (بما) ونفيه (بلا) فى أكثر الأمر ، فقال : وإذا قال هو يفعل أى هو فى حال فعل ، كان نفيه (ما يفعل) : وإذا قال هو يفعل ولم يكن الفعل واقعًا فإن نفيه (لا يفعل) ومعلوم أن (ما) لا يخلص الفعل المنفى بها للحال ، وسيبويه قد جعلها فى فعل الحال (كلا) فى فعل الاستقبال ؛ فعلم أنه إنما أراد الأكثر من استعمال الحرفين .

وتأمل كيف جاء نفى المضارع وهو مرفوع (بما ولا) وهما لا يزيلان رفعه لتشاكل المنفى بالمثبت ، ويقابل مرفوع بمرفوع ، والمشاكلة مهمة فى كلامهم حتى يغيروا بها بعض الألفاظ ، كقولهم : أخذ ما قدم وما حدث والغدايا والعشايا ونظائره .

وترجح الحال بدخول لام الابتداء عليه نحو : إنى لأحبك ، وأما قوله تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام : ﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ ﴾ (١) ، وذهابهم مستقبل ، وهو فاعل الحزن ؛ ويمتنع أن يكون الفاعل مستقبلاً والفعل حالاً ؛ فزعم صاحب التسهيل أن هذا دليل على أن اللام لا تخلص للحالية ، واحتج أيضًا بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُم يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (٢) .

ولقائل أن يقول : التخلص إنما يكون باللام المجردة ، وأما إذا اقترن بالفعل قرينة تخلصه للاستقبال لم تكن اللام للحال ، وهذا (كسوف) كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ (٣) ، فلولا هذه القرائن لتخلص للحال ، وهذا كان مع (لم) كقوله تعالى : ﴿ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا ﴾ (٤) ، فإنْ منعت اقتضاء لم للمضى .

وأما الآن وآنفًا والساعة ، فمخلصة للحال خلافًا لبعضهم . واحتج بقوله تعالى : ﴿ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ ﴾ (٥) ، والأمر إنما يكون للمستقبل وقد عمل فى الآن .

---

(١) يوسف : ١٣ (٢) النحل : ١٣٤ (٣) الضحى : ٥
(٤) المائدة : ٧٣ (٥) البقرة : ١٨٧

وأجيب عن ذلك :

بأن الآن هنا هو الزمن المتصل أوله بالحال مستمراً فى الاستقبال ، فعبر عنه بالآن اعتباراً بأوله كقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ (١) .

والصواب أن الآن فى الآية ظرف للأمر والإباحة ، لا لفعل المأمور به ، والمعنى : فالآن أبحت لكم مباشرتهن لا أن المعنى فالآن مدة وقوع المباشرة منكم .

وترجح الحالية بنفيه بما ، وليس ، وإنْ كقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ﴾ (٢) ، وكقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ (٣) .

ومثال نفيه بليس ، قول الشاعر :

ولســـــتُ وبيتِ اللهِ أرضَى بمثلها ... ولكنَّ مَنْ يمشى سيرضى بما ركب

وأما قوله :

فمـــا مثلُه فيهم ولا كان قَبْلَهُ ... وليس يكون الدهرُ ما دام بديل

فإنما جاء للاستقبال من تقسيم النفى إلى ماض وحال ومستقبل .

وقال ابن مالك : لا يخلصه النفى بذلك للاستقبال ، واحتج بهذا البيت :

والمرءُ ساعٍ لأمرٍ ليسَ يدرِكُه ... والعيشُ شحٌّ واشفاقٌ وتأميلُ

وبقول أبى ذؤيب :

أودى بنىَّ وأودعونى حسرةً ... عنـد الرقاد وعبرة ما تقلع

وبقول النابغة يمدح النبى ﷺ :

لـــــه نافلاتٌ ما يغيبُ نوالها ... وليس عطاءُ اليوم ما نعَهُ غدًا

وبقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِى إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىَّ ﴾ (٤) .

---

(١) الجن : ٩

(٢) الأحقاف : ٩

(٣) الأنبياء : ١٠٩

(٤) يونس : ١٥

والتحقيق فى ذلك : أن هذه الأدوات تنفى الفعل المبتدئ من الحال مستمر النفى فى الاستقبال ، فلا تنفيه فى الحال نفيًا منقطعًا عن التعرض للمستقبل ، ولا تنفيه فى المستقبل مع جواز التلبس به فى الحال فتأمله .

ويتخلص المضارع للاستقبال بعشرة أشياء :

حرف تنفيس ، أو مصاحبة ناصب ، أو أداة ترجٍّ ، أو إشفاق كلعل ، أو مجازاة ، أو نونى التأكيد ، أو لو المصدرية ، كقوله تعالى :

﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ (١) ، ومثال الإشفاق قول الشاعر :

فأمّا كيس فنجا ولكن   عسى يغتر بى حمق لئيم

أ . هـ

* * *

(١) القلم : ٩

الفصل الخامس

الاشتقاق اللغوى : نظرية وتطبيقًا

- هل الأصل فى الأفعال الثنائية أو الثلاثية ؟
- مم اشتقت بعض الألفاظ ؟
- للغة العربية فقه كغيرها من اللغات .
- الاشتقاق فى اللغة : صغير وكبير وأكبر ، وكبّار...
- المصدر والاشتقاق واستعمالاتهما .
- المشترك اللفظى ، والمشترك المعنوى .
- بعض أسرار المضمرات .
- الاتفاق والاختلاف فى صفات الحروف ومعانيها .
- أسرار بعض الحروف .

رأيه فى الاشتقاق اللغوى - نظرية وتطبيقًا

لابن القيم - رحمه الله تعالى - نظريات لغوية ، هى من صميم علم أصول اللغة ، والناظر فيها بتأمل وتأن يرى : أنها تكاد تعقد لهذا العلامة زعامة لغوية ، كما عقدت له زعامات علمية ودينية ، فى ميادين مختلفة لتنوع معارفه ، ووفرة ما أفاء الله سبحانه عليه من ألوان المعارف .

وفى هذا البحث نراه مشتملاً عباءة أصول اللغة فى مباحث الاشتقاق نظرية وتطبيقًا :

فيعنى بالاشتقاق نظرية وتطبيقًا لإيضاح المعنى أتم توضيح ، ويذكر تقاليب الكلمة ودوران المعانى والألفاظ ، ويفرق بين الحقيقة والمجاز ، ويتتبع استعمالات اللفظ ، ويرد توهم المتوهمين من اللغويين ، ويذكر الصحيح من المنقول والمعقول .

ويرينا اشتقاق (الجن ، وعاذ ، وأعوذ ، والوسوسة ، والفرق بين الخناس والوسواس وممَ اشتقت البركة) . . . إلخ .

* اللغة العربية لغة اشتقاق ، لا إلصاق وإضافة كغيرها من اللغات التى تعتمد على ذلك أكثر من الاشتقاق .

والاشتقاق كما قال علماء أصول اللغة باب عظيم من أبواب تنميتها والتصرف فى فنونها ، وسبب فى مرونتها وسعتها وحيويتها .

والاشتقاق له أبواب متعددة : من صغير أو أصغر ، إلى كبير أو أكبر ، إلى كُبَّار ، وهو « النحت » ، وترجع تقاليب الكلمة فى العربية إلى معنى واحد ، هو جامعها ومحور دوران حروفها فى بناءاتها المختلفة (١) .

لابن القيم فى هذا الصدد باع واسع ، يتميز بالوضوح ، ومعرفة أوجه

---

(١) راجع كتابنا « اللغة العربية وعوامل تنميتها » - نشر مكتبة وهبة .

الاستعمال ، وأثر هذا الاستعمال فى تحديد الأصل اللغوى ، ثم بيان الاستعمالات المجازية الأخرى ، سواء تنوسى الأصل أو لمح ، أو انتقل المعنى إلى شىء جديد فى الاستعمال .. إلخ .

نسوق مثالاً لذلك من تفسيره لقوله تعالى فى سورة الناس : ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ (١) . يقول : « .... الجن ، إنما سموا جنًا من الاجتنان وهو الاستتار ، فهم مستترون عن أعين البشر ، فسموا جنا لذلك ، من قولهم : جنَّه الليل وأجنه ، إذا ستره ، وأجن الميت إذا ستره فى الأرض .

قال الشاعر :

لا تبك ميتًا بعد ميت أجنَّه　　على وعباس وآل أبى بكر

يريد النبى ﷺ .

ومنه الجنين لاستتاره فى بطن أمه ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ (٢) .

ومنه المجن لاستتار المحارب به من سلاح خصمه ، ومنه الجَنَّة (بالفتح) ، لاستتار داخلها بالأشجار .

ومنه الجُنَّة (بالضم) ، لما يقى الإنسان من السهام والسلاح ، ومنه المجنون لاستتار عقله (٣) .

* *

* ويبين المناسبة بين اللفظين فى اللفظ والمعنى ، ويذكر الاشتقاق الوسط ، أو عقد تقاليب الكلمة على معنى واحد ، ويقصد بذلك رجوع تقاليب الكلمة أى تصرفاتها إلى معنى واحد ، يقول :

(وأما - لفظ - الناس ، فبينه وبين الأنس مناسبة فى اللفظ والمعنى ، وبينهما اشتقاق أوسط ، وهو عقد تقاليب الكلمة على معنى واحد .

---

(١) الناس : ٦　　(٢) النجم : ٣٢　　(٣) بدائع الفوائد : ٢/٢٦٣ ، ٢٦٤

والأنس والإنسان مشتق من الإيناس ، وهو الرؤية والإحساس ومنه قوله تعالى :

﴿ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾ (١) ، أى رآها .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا ﴾ (٢) ، أى أحسستموه ورأيتموه ، فالإنسان سمى إنسانًا ، لأنه يؤنس ، أى يرى بالعين .

والناس ، فيه قولان :

أحدهما : أنه مقلوب من أنس ، وهو بعيد ، والأصل عدم القلب .

والثانى : وهو الصحيح : أنه من النوس ، وهو الحركة المتتابعة ، فسمى الناس ناسًا للحركة الظاهرة والباطنة ، كما سمى الرجل : حارث وهمام ، وهما أصدق الأسماء كما جاء فى الخبر ؛ لأن كل أحد له هم وإرادة ، وهى مبدأ وحرث وعمل هو منتهى .

فكل أحد حارث وهمام ، والحرث والهم حركتا الظاهر والباطن ، وهو حقيقة النوس .

وأصل ناس : نوس ، تحركت الواو وقبلها فتحة فصارت ألفًا .

هذان هما القولان المشهوران فى اشتقاق الناس ، « أى أنه مقلوب من أنس أو أنه من النوس وهو الحركة المتتابعة » .

وأما قول بعضهم : أنه من النسيان ، وسمى الإنسان إنسانًا لنسيه ، وكذلك الناس سموا ناسًا لنسيانهم ، فليس هذا القول بشىء ، وأين النسيان الذى مادته (ن س ى) إلى الناس ، الذى مادته (ن و س) .

وكذلك : أين هو من الأنس الذى مادته (أ ن س) ؟

والألف والنون فى آخره (لفظ الإنسان) زائدتان ، لا يجوز فيه غير هذا ألبتة ؛ إذ ليس فى كلامهم (أنسن) حتى لا يكون إنسانًا إفعالاً منه .

---

(١) القصص : ٢٩ (٢) النساء : ٦

ولا يجوز أن يكون الألف والنون فى أوله زائدتين ، إذ ليس فى كلامهم (انفعل) فيتعين أنه فعلان من الأنس ، ولو كان مشتقًا من نسى لكان نسيانًا لا إنسانًا .

فإن قلت : فهلا جعلته إفعلالاً ، وأصله إنسيانه ، كليلة إصحيان ، ثم حذفت الياء تخفيفًا ، فصارت إنسان ؟

قلت : يأبى ذلك عدم إفعلال فى كلامهم ، وحذف الياء بغير سبب ، ودعوى ما لا نظير له ، وذلك كله فاسد .

على أن الناس ، قد قيل أصله الأناس ، فحذفت الهمزة فقيل : الناس ، واستدل على ذلك بقول الشاعر :

* إن المنايا يطلعن على الأناس ألفافًا *

ولا ريب أن أناسًا فعال ، ولا يجوز فيه غير ذلك ألبتة .

فإن كان أصل ناس أناسًا ، فهو أقوى الأدلة على أنه من أنس ، ويكون الناس كالإنسان سواء فى الاشتقاق ، ويكون وزن ناس على هذا القول (عال) لأن المحذوف فاؤه .

* وعلى القول الأول يكون وزنه (فعل) لأنه من النوس .

* وعلى القول الضعيف يكون وزنه (فلع) لأنه من نسى ، فقلبت لامه إلى موضع العين فصار ناسًا ووزنه (فلعًا) (١) . أ . هـ .

* *

تتبع ابن القيم اللفظ فى اشتقاقه ، وبين الأقوال التى قيلت فيه ، ورجح ما ارتآه ، ووهن غيره ، وأرجع تقاليب الكلمة إلى معنى واحد ، ورد توهم المتوهمين بالدليل والبينة ، ثم جاء بميزان اللفظ على جميع الأقوال ليوضح الصحيح ، ويرد الضعيف .

* *

---

(١) بدائع الفوائد : ٢/ ٢٦٤ ، ٢٦٥

ويعنى ابن القيم فى أبحاثه ببيان الاشتقاق ، ومصدره تبيانًا للحقيقة ، وإظهارًا للمعنى ، وتفرقة بين الحقيقة والمجاز ، وتتبعًا لاستعمالات اللفظ فى مواضع مختلفة .

ولو أن علماء اللغة عنوا بهذا الجانب حين جمعوا اللغة ، وتتبعوا مواطن الاستعمال لكان لنا من خرائط التاريخ اللغوى ما يعيننا على تبيان المعنى والاستعمال ، كسجل للفظ .

فهو يرى :

أن الظرف إن كان مشتقًا من فعل ، فهو يتعدى إليه بنفسه ، لأنه فى معنى الصفة التى لا تتمكن ، ولا يخبر عنها ، وذلك كقبل وبعد وقريبًا منك ، لأن فى قبل معنى المقابلة وهى من لفظ قبل . وبعد من لفظ (بعد) . .[1] .

والمصدر قد يبقى بينما فعله أميت ، وهذا ما تحاول بعض المجامع اللغوية اليوم البحث عن الفعل المفقود ، أو إحياء الفعل الذى أميت ، أو إكمال المادة اللغوية بصفة عامة .

يقول : ومن هذا القبيل - قبيل تعدى الفعل واشتقاقه : جلست خلفك وأمامك ، وفوق وتحت وعندك فى معنى القرب ، لأنها (عندك) من لفظ العند ، قال الراجز :

وكــــل شىء قد يحب ولده   حتى الحبارى فتطير (عنده)

أى إلى جنبه ، وهذه الألفاظ غير خاف أنها مأخوذة من لفظ الفعل :

فخلف (الظرف) من خلفت (الفعل) ، وقدام من تقدمت ، وأمام من أممت أى قصدت ، وكذلك سائرها (أى الظروف من أفعالها) إلا أنهم لم يستعملوا فعلاً من (تحت) ، ولكنها مصدر فى الأصل أميت فعله ... »[2] .

---

(١) بدائع الفوائد ٢/١٠٨

(٢) السابق : ١٠٩

وما دل على الهيئة لمح فيه الاشتقاق ، كما إذا وقع الحال جامدًا ، ويشترط فيه الاشتقاق كشرط الحال - لأن :

(الحذاق من النحاة) على أنه لا يشترط - فى الحال أن يكون مشتقًا - بل كل ما دل على هيئة صح أن يقع حالاً ، فلا يشترط فيها إلا أن تكون دالة على معنى متحول ، ولهذا سميت حالاً ، قال الشاعر :

لو لم تحل ما سميت حالاً وكـــــل ما حال فقد زالا

فإذا كان صاحب الحال قد أوقع الفعل فى صفة غير لازمة للفعل ، فلا تبالى أكانت مشتقة أم لا ؛ فقد جاء فى الحديث : « يتمثل لى الملك رجلاً » ، لأن صفة الرجولية طارئة هنا على الملك ، فوقعت حالاً ، إذ هى لازمة للملك فى وقت وقوع الفعل فقط أى (أنه تحول إليها للحظات) ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ (1) .

﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً ﴾ (2) ، ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا ﴾ (3) .

ويقولون : مررت بهذا العود شجرًا ، وهذا زيد أسدًا ، وتأويل كل ذلك بمشتق تعسف ظاهر ، ولكنها أفعال تحول الفاعل إليها ، فصلح أن يكون حالاً لدلالته على الهيئة .

* *

● الاشتقاق اللغوى :

لفظ المشتق قد يأتى واحدًا فى الوزن والهيئة ، ولكن يتنوع استعماله بحسب الفعل والإضافة ، فلفظ (البركة) نوعان :

أحدهما : بركة من فعله تبارك وتعالى ، والفعل منها بارك ، ويتعدى بنفسه تارة وبأداة (على) تارة ، وبأداة (فى) تارة ، والمفعول منها مبارك ، وهو ما جعل كذلك فكان مباركًا بجعله تعالى .

والنوع الثانى : بركة تضاف إليه (تعالى) إضافة الرحمة - والعزة ،

---

(1) غافر : 67 (2) الأعراف : 73 (3) مريم : 17

والفعل منها تبارك ، ولهذا لا يقال لغيره ذلك ، ولا يصلح إلا له - عزّ وجَلّ - فهو سبحانه المبارك ، وعبده ورسوله المبارك ، كما قال المسيح - عليه السلام - : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنتُ ﴾ (١) ، فمن بارك الله فيه وعليه فهو المبارك ، وأما صفته (تبارك) فمختصة به تعالى ، كما أطلقها على نفسه بقوله : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ (٢) .. أفلا تراها كيف أطردت في القرآن جارية عليه مختصة به ، لا تطلق على غيره ، وجاءت على بناء السعة والمبالغة ، كتعالى وتعاظم ونحوها ، فجاء بناء (تبارك) على بناء (تعالى) الذي هو دال على كمال العلو ونهايته ، فكذلك تبارك دال على بركته وعظمها وسعتها . . .) (٣) .



وتدور المعاني حول اللفظ متقاربة أو متنافرة ومن المتقاربة ما ذكره ابن القيم حول لفظ (عاذ) وما تصرف منها ، فهي تدل على التحرز والتحصن والنجاة . .

وحقيقة معناها : الهروب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه ، ولهذا يسمى المستعاذ به معاذًا ، كما يسمى ملجأ وزورًا ، وفي الحديث : أن ابنة الجون لما أدخلت على النبي ﷺ فوضع يده عليها ، قالت : « أعوذ بالله منك ، فقال لها : لقد عذت بمعاذ ، الحقي بأهلك » .

فمعنى أعوذ : ألتجيء واعتصم وأتحرز .

وفي أصله قولان : أحدهما : أنه مأخوذ من الستر . **والثاني** : أنه مأخوذ من لزوم المجاورة .

فأما من قال إنه من الستر ، قال : العرب تقول للبيت الذي في أصل الشجرة التي استتر بها عُوَّذ بضم العين وتشديد الواو وفتحها : فكأنه لما عاذ بالشجرة ، واستتر بأصلها وظلها سموه عوذًا ، فكذلك العائذ قد استتر من عدوه بمن استعاذ به منه ، واستجن به منه .

---

(١) مريم : ٣١ (٢) : أول الملك . (٣) بدائع الفوائد : ٢/ ١٨٥ ، ١٨٦

ومن قال : هو لزوم المجاورة قال : العرب تقول للحم إذا لصق بالعظم فلم يتخلص منه عوذ : لأنه اعتصم به واستمسك به ، فكذلك العائذ قد استمسك بالمستعاذ به واعتصم به ولزمه .

والقولان حق (الستر واللزوم) ، لأن الاستعاذة تنتظمهما معًا .

* *

وعن الوسوسة والوسواس وأصلها ، واشتقاقها ، وأصل تسميتها ، وسر التكرار فى سورتى (الفلق والناس) ، ومتابعة حركة اللفظ بإزاء المعنى فى متابعة حركتها ، وهل الرباعى فى (وسواس) بمعنى الثلاثى المضعف أولاً ، وما الفرق بين هذا الوزن وما شابهه ؟ .. إلخ يقول الإمام الفقيه اللغوى ابن القيم :

(الوسواس) فَعْلال من وسوس ، وأصل الوسوسة الحركة أو الصوت الخفى الذى لا يحس فيحترز منه :

فالوسواس الإلقاء الخفى فى النفس : إما بصوت لا يسمعه إلا من ألقى إليه ، وإما بغير صوت كما يوسوس الشيطان إلى العبد .

ومن هذا وسوسة الحلى ، وهو حركته الخفية فى الأذن ..

والظاهر - والله أعلم - أنها سميت وسوسة لقربها وشدة مجاورتها لمحل الوسوسة من شياطين الإنس وهو (الأذن) ، فقيل : وسوسة الحلى لأنه صوت مجاور للأذن كوسوسة الكلام الذى يلقيه الشيطان فى أذن من يوسوس له .

ولما كانت الوسوسة كلامًا يكرره الموسوس ويؤكده عند من يلقيه إليه - كرروا لفظها بإزاء تكرير معناها ، فقالوا : وسوس وسوسة ، فراعوا تكرير اللفظ ليفهم تكرير مسماه .

ونظير هذا ، تقدم من متابعتهم حركة اللفظ بإزاء متابعة حركة معناه ، كالدوران ، والغليان ، والنزوان ، وبابه ...

ونظير ذلك : زلزل ، ودكدك ، وقلقل ، وكبكب الشىء ، لأن الزلزلة حركة متكررة ، وكذلك الدكدكة ، والقلقلة ، وكذلك كبكب الشيء إذا كبه في مكان بعيد فهو يكب فيه كبًا بعد كب ، كقوله تعالى : ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴾ (١) . ومثله : رضرضه ، إذا كرر رضه مرة بعد مرة .

ومثله : ذرذره ، إذا ذره شيئًا بعد شيء ومثله : صرصر الباب ، إذا تكرر صريره .

ومثله : مطمط الكلام إذا مططه شيئًا بعد شيء ، ومثله : كفكف الشيء إذا كرر كفه وهو كثير .

وقد علم بهذا : أن من جعل هذا الرباعى بمعنى الثلاثى المضعف لم يصب ، لأن الثلاثى لا يدل على تكرار ، بخلاف الرباعى المكرر .

فإذا قلت : ذرّ الشيء ، وصرّ الباب ، وكفّ الثوب ، ورضّ الحب .. لم يدل على تكرار الفعل ، بخلاف : ذرذر ، وصرصر ، ورضرض ، ونحوه ... فتأمله ، فإنه مطابق للقاعدة العربية فى الحذو بالألفاظ حذو المعانى ..

وكذلك قولهم : عج العجل إذا صوت ، فإن تابع صوته .. قالوا : عجعج .

وكذلك بحّ الماء إذا صب ، فإن تكرر ذلك قيل بحبح .

والمقصود : أن الموسوس لما كان يكرر وسوسته ، قيل : وسوس (٢) .

فالوسوسة : الحركة أو الصوت الخفى ، أو بغير صوت ، وسميت كذلك لقربها من الأذن محل الوسوسة ، وكرر لفظها لتكرير معناها ، ولأن حركة اللفظ تواكب أو تتابع حركة المعنى ، ومن ينزل هذا الرباعى - فى وسوس - منزلة الثلاثى أخطأ ، لأن الثلاثى لا يدل على التكرار كالرباعى ، والعرب تحذو بالألفاظ حذو المعانى .

* *

---

(١) الشعراء : ٩٤

(٢) بدائع الفوائد : ٢/ ٢٥٠ ، ٢٥١

ويفرق العلامة ابن القيم بين لفظ الوسوسة والخناس فى المعنى وفى الاشتقاق ، ولم كان الاختلاف ؟ ولماذا جاء (الخناس) على فَعَّال ، دون خناس أو مَخْنس ؟ وكيف يكون الخنس ؟ . . .

وما حقيقة لفظ (خناس) ؟ ومم أخذ اشتقاقه ؟ من الرجوع إلى الوراء أو من الاختفاء ؟

وهل تسعف الشواهد - فى الاستعمال الفصيح - الاستعمالين ؟ وما ارتباط اللفظ بالمعنى ؟

يجيب عن أسئلتنا ابن القيم ، حين يقول : (وأما الخناس ، فهو فعال من خنس يخنس إذا توارى واختفى ، ومنه قول أبى هريرة : « لقينى النبى ﷺ فى بعض طرق المدينة وأنا جنب فانخنست منه » .

وحقيقة اللفظ اختفاء بعد ظهور فليست لمجرد الاختفاء . .

وقالت طائفة : الخنوس أصله الرجوع إلى وراء . . والخناس مأخوذ من هذين المعنيين : فهو مأخوذ من الاختفاء والرجوع والتأخر .

فإن العبد إذا غفل عن ذكر الله جثم الشيطان على قلبه ، وانبسط عليه ، وبذر فيه أنواع الوساوس التى هى أصل الذنوب كلها ، فإذا ذكر العبد ربه ، واستعاذ به انخنس وانقبض كما ينخنس الشىء ليتوارى .

وذلك الانخناس والانقباض هو أيضًا تجمع ورجوع وتأخر عن القلب إلى خارج ، فهو تأخر ورجوع معه اختفاء ، وخنس وانخنس يدل على الأمرين معًا .

وجىء من هذا الفعل بوزن فعّال الذى للمبالغة ، دون الخانس أو المنخنس إيذانًا بشدة هروبه ورجوعه وعظيم نفوره عند ذكر الله ، وأن ذلك دأبه وديدنه ، لا أنه يعرض له ذلك عند ذكر الله أحيانًا ، بل إذا ذكر الله هرب وانخنس وتأخر . . .

وتأمل كيف جاء بناء الوسوسة مكررًا لتكريره الوسوسة الواحدة مرارًا حتى يعزم عليها العبد .

وجاء بناء الخنّاس على وزن فعّال الذى يتكرر منه نوع الفعل ، لأنه كلما ذكر الله انخنس ، ثم إذا غفل العبد عاوده بالوسوسة فجاء بناء اللفظين مطابقًا لمعنييهما .

وتأمل ختامه لهذا الفصل بقوله : فجاء بناء اللفظين : (الوسوسة والخناس) مطابقًا لمعنييهما ، وما جاء فى حديثه من زيادة المعنى لزيادة المبنى ، ورجوع اللفظ للمعنيين ، ودوران اللفظ حول المعنى .

وقد قال علماء أصول اللغة إن هناك فرقًا فى المعنى بين الحروف حين تختلف صفة ومخرجًا ، كالحاء والخاء فى (نضح الماء ونضخ) وبين قولة أبى ذر - رضى الله عنه - فى صبر الفقراء وتقشفهم وتنعم المترفين حين قال : (ويخضمون ونقضم والموعد الله) فالقضم وفيه القاف لليابس والجامد ، والخضم بخائه للهش والطرى . .

وينطبق اللفظ على المعنى المستفاد من لفظى : الوسوسة والخنس عند ابن القيم ، فيقرر للفظ ما قرره علماء أصول اللغة للحرف بدءًا بالخليل ابن أحمد العبقرى ، ومرورًا بالألمعى ابن جنى ، وابن سينا ، والخفاجى ، ومعاصرة بالشيخ عبد الله العلايلى فى مقدمته لدراسة لغة العرب .

* *

● **الصوت والحركات :**

* يعلل ابن القيم حركات الإعراب والبناء ، ويشير إلى أن الحركة على الحرف ليست له وإنما هى للعضو اللافظ ، وحين نقول : إن الحرف متحرك فإنما ذلك على سبيل التجاوز لا الحقيقة ، ويرى أن الحركة بعض الحرف . .

* ويوضح معنى الجزم بالانقطاع الذى لا نتاج له ، لعدم مده ، بخلاف

الصوت الخفى للفتحة أو النصبة ، والذى إذا مُدَّ كان ألفًا ، ولماذا كانت حركات الإعراب وكان البناء . . . نستمع إليه يقول :

« قولهم : حرف متحرك ، وتحرك الواو ، ونحو ذلك . . تساهل منهم ، فإن الحركة عبارة عن انتقال الجسم من حيز إلى حيز ، والحرف جزء من الصوت ، ومحال أن تقوم الحركة بالحرف ، لأنه عرض والحركة لا تقوم بالعرض وإنما المتحرك فى الحقيقة هو العضو من الشفتين أو اللسان أو الحنك الذى يخرج منه الحرف :

فالضمة عبارة عن تحريك الشفتين بالضم عند النطق ، فيحدث مع ذلك صوت خفى مقارن للحرف : إن امتد كان واوًا ، وإن قصر كان ضمة ، (كما ذكر ابن جنى أن الحركة بعض الحرف) .

وكذلك الفتحة عبارة عن فتح الشفتين عند النطق بالحرف ، وحدوث الصوت الخفى الذى يسمى فتحة أو نصبة ، وإن مدت كانت ألفًا ، وإن قصرت فهى فتحة .

وكذلك القول فى القصر .

* *

* والسكون عبارة عن خلو العضو من الحركات عند النطق بالحرف ، فلا يحدث بعد الحرف صوت فينجزم عند ذلك ، أى ينقطع ، فلذلك سمى جزمًا اعتبارًا بانجزام الصوت ، وهو انقطاعه ، وسكونًا اعتبارًا بالعضو الساكن .

فقولهم : فتح وضم وكسر هو من صفة العضو .

وإذا سميت ذلك : نصبًا ورفعًا وجرًا وجزمًا ، فهى من صفة الصوت ، لأنه يرتفع عند ضم الشفتين ، وينتصب عند فتحهما ، وينخفض عند كسرهما، وينجزم عند سكونهما .

ولهذا عبروا عنه بالرفع والنصب والجر عن حركات الإعراب ، إذ

الإعراب، لا يكون إلا بعامل وسبب . كما أن هذه الصفات التى تضاف إلى الصوت من رفع ونصب وخفض إنما تكون بسبب ، وهو حركة العضو .

واقتضت الحكمة اللفظية أن يعبر بما يكون عن سبب عما يكون عن سبب وهو الإعراب .

وأن يعبر بالفتح والضم والكسر والسكون عن أحوال البناء ، فإن البناء لا يكون بسبب ، وأعنى بالسبب (العامل) . فاقتضت الحكمة أن يعبر عن تلك الأحوال بما يكون وجوده تغييراً له ، إذ الحركات الموجودة فى العضو لا تكون إلا بآلة ، كما تكون الصفات المضافة إلى الموصوف .

وعندى : أن هذا ليس باستدراك على النحاة ، فإن الحرف وإن كان عرضًا فقد يوصف بالحركة تبعًا لحركة محلية ، فإن الأعراض ، وإن لم تتحرك بأنفسها فهى تتحرك بحركة محالها .

وعلى هذا فقد اندفع الإشكال .

وأما المناسبة إلى ذكرها فى اختصاص الألقاب فحسنة ، غير أن كثيراً من النحاة يطلقون كلا منها على الآخر ، ولهذا يقولون فى قام زيد مرفوع علامةرفعه ضمة آخره ، ولا يقولون : رفعة آخره ، فدل على إطلاق كل منهما على الآخر [1] .

* *

● الاشتقاق والمصدر :

وقد فرق علماء اللغة بين المصدر الصريح والمصدر المؤول ، وبينوا أنواع الاشتقاق وأصّل علماء اللُّغة « أنواع الاشتقاق ، وقعدوا فقهها وبينوا الفروق

---

(١) بدائع الفوائد : ١/ ٣٤ ، ٣٥

بينها ، وبذلك قرت التعاريف والمفاهيم بين المدارس النحوية واللغوية ، على نحو ما زخرت به كتب النحو وأصول اللغة .

ولكن ابن قيم الجوزية بعقله الواعى ، وألمعيته يضع يدنا على موطن الاستعمال الدقيق ، وبيان ثمرة الخلاف ، وبخاصة فيما من شأنه أن يجعل الحكم مختلفًا ، والنتيجة ، وكذلك إذا كان ذلك وجهيًا - بمعنى التلاقى فى بعض الوجوه ، أو لا . ويرينا كيف وظف الفقهاء ألفاظ اللُّغة وجاءت أحكامهم تبعًا لذلك .

ويذكر تدليلاً على ذلك الفرق بين « تمليك المنفعة ، وتمليك الانتفاع » ، فالأول : يملك به الانتفاع والمعاوضة ، والثانى - تمليك الانتفاع - : يملك به الانتفاع دون المعاوضة . ويخرج على تلك القاعدة :

إجارة ما استأجره ، لأنه ملك المنفعة بخلاف المعاوضة على البضع ، فإنه لم يملكه وإنما ملك أن ينتفع به ، وكذلك إجارة ما ملك أن ينتفع به من الحقوق كالجلوس بالرحاب وبيوت المدارس والربط ونحو ذلك لا يملكها ، لأنه لم يملك المنفعة ، وإنما ملك الانتفاع .

وعلى هذا الخلاف تخرج إجارة المستعار :

فمن منعها كالشافعى وأحمد ومن تبعهما ، قال : هو قد ملك المنفعة ، ولهذا يلزم عنده بالتوقيت ، ولو أطلقها لزمت فى مدة ينتفع بمثلها عرفًا ، فليس له الرجوع قبلها [1] .

* *

● الإضافة والمشترك :

ويفرق بين حقوق المالك وحقوق الملك ، ونتيجة الخلاف فى هذه الإضافة ، يقول :

---

(١) بدائع الفوائد : ٣/١

حقوق المالك شيء ، وحقوق الملك شيء آخر :

فحقوق المالك تجب لمن له على أخيه حق ، وحقوق الملك تتبع الملك ، ولا يراعى بها المالك ، وعلى هذا حق الشفعة للذمى على المسلم : من أوجبه جعله من حقوق الأملاك ، ومن أسقطه جعله من حقوق المالكين .

والنظر الثانى أظهر وأصح ، لأن الشارع لم يجعل للذمىّ حقًا فى الطريق المشترك . . كما يرى الإمام أحمد (١) .

* وتتعدد المعانى بسبب المشترك اللفظى ، فتأتى ألفاظ المشترك المعنوى ، وتعطى دليلاً على ملاحظة وبقاء الفروق اللغوية فيما بين المترادف ، تلمح أحيانًا ، وتنسى إذا تنوسى الأصل عند الاستعمال . . وتتنوع المعانى تبعًا لاختلاف حروف الربط ، يقول :

(الخبر إن كان عن حكم عام يتعلق بالأمة : فإما أن يكون مستنده السماع فهو الرواية : وإن كان مستنده الفهم من المسموع فهو **الفتوى**) .

وإن كان جزئيًا يتعلق بمعين مستنده المشاهدة ، والعلم فهو **الشهادة** .

وإن كان خبرًا يتعلق بالمخبر عنه والمخبر به هو مستمعه أونائبه فهو **الدعوى** .

وإن كان خبرًا عن تصديق هذا الخبر فهو **الإقرار** .

وإن كان خبرًا عن كذبه فهو **الإنكار** .

وإن كان خبرًا نشأ عن دليل فهو **النتيجة** .

وتسمى قبل أن يحصل عليها الدليل **مطلوبًا** .

وإن كان خبرًا عن شيء يقصد منه نتيجته فهو **دليل وجزؤه مقدمته**(٢) .

* *

* ومثال آخر فى هذا المقام يوضح الموضوع ، يقول :

---

(١) السابق : ١/ ٢ (٢) السابق : ١/ ٧

« شهد » فى لسانهم لها معان :

أحدها :

الحضور ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ ، وفيه قولان :

أحدهما : من شهد المصر فى الشهر ، **والثانى :** من شهد الشهر فى المصر متلازمان .

والثانى :

الخبر ، ومنه : (شهد عندى رجال مرضيون وأرضاهم عندى عمر ، أن رسول الله ﷺ - نهى عن الصلاة بعد العصر وبعد الصبح) .

والثالث :

الإطلاع على الشىء [1] ، ومنه : ﴿ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [2] .

* *

● الترادف :

الترادف ركن من أركان التنمية اللغوية لا شك فى ذلك .. ومع ثباته وثبوته واستقلاله بنفسه فى العربية إلا أنه لا يمكن التغاضى أحيانًا عن الفروق اللغوية بين ألفاظ الترادف ، وبخاصة إذا لم تنس بكثرة الاستعمال للمترادفات ، أو لمح الأصل والفرع أو نسيان الأصل ..

يشير إلى ذلك ابن القيم حين يفرق بين الشهادة والرواية ، يقول : (الفرق بين « الشهادة ، والرواية » .

أن الرواية يعم حكمها الراوى وغيره على مر الأزمان .

---

(١) السابق : ١/٨ (٢) البروج : ٩

والشهادة تخص المشهود عليه وله ، ولا يتعداهما إلا بطريق التبعية المحضة: فإلزام المعين - أى عند الشهادة - يتوقع منه العداوة وحق المنفعة والتهمة الموجبة للرد ، فاحتيط لها - للشهادة - بالعدد والذكورية ، وردت بالقرابة والعداوة ، وتطرق التهم .

ولم يفعل مثل هذا فى الرواية التى يعم حكمها ولا يخص . .

فلم يشترط فيها عددًا ولا ذكورية ، بل اشترط فيها ما يكون مغلبًا على الظن صدق المخبر وهو العدالة المانعة من الكذب ، واليقظة المانعة من غلبة السهو والتخليط . . .) .

* ويأتى بمسائل على هذه القاعدة ، منها :

الإخبار عن رؤية هلال رمضان ، من اكتفى فيه بالواحد جعله رواية لعمومه للمكلفين فهو كالأذان .

ومن اشترط فيه العدد ألحقه بالشهادة ، لأنه لا يعم الأعصار ولا الأمصار، بل يخص تلك السنة وذلك المصر فى أحد القولين ، وهذا ينتقض بالأذان نقضًا لا محيص عنه .

* وعلى هذا أيضًا : الجَرْحُ للمحدّث والشاهد . ومنها الترجمة للفتوى والخط - والشهادة وغيرها . ومنها المخبر عن نجاسة الماء . . هل يشترط فى ذلك التعدد لأنه بمنزلة الشهادة ، أو لا يشترط كالرواية والحكم ؟

ويرى : أن القاعدة السابقة لا تجرى على ما بيد الإنسان وتحت تصرفه :

يقول : (قبول قول القصاب فى الذكاة ليس من هذا الباب - باب الشهادة والرواية - بل هو من قاعدة أخرى ، وهى : أن الإنسان مؤتمن على ما بيده ، وعلى ما يخبر به عنه) .

فإذا قال الكافر - يعنى الكتابى - هذه ابنتى ، جاز للمسلم أن يتزوجها .

وكذا ، إذا قال هذا ما لى جاز شراؤه وأكله .

فإذا قال : هذا زكيته جار أكله .

فكل أحد مؤتمن على ما يخبر به مما هو فى يده ، فلا يشترط هنا عدالة ولا عدد .

ويقول : (إذا كان المؤذن يقبل قوله وحده ، مع أن لكل قوم فجرًا وزوالاً وغروبًا يخصهم ، فلأن يقبل قول الواحد فى هلال رمضان أولى وأحرى) [1] .

* *

● (العين) والمشترك اللفظى :

وعلماء اللغة (أصول اللغة) أشبعوا لفظ العين كلامًا ، وتشريحًا وتفريعًا ، وابن القيم يدلى برأيه فى اللفظ بفلسفة مستقلة ، مستقاة من الإطلاقات والاستعمال وما يتعلق باختلاف المعنى لها تبعًا لتنوع الاستعمال ، والانتقال بها من الحقيقة إلى المجاز ، يقول :

(العين ، يراد بها حقيقة الشىء المدركة بالعيان أو ما يقوم مقام العيان ، وليست - اللفظة على أصل موضوعها ، لأن أصلها أن يكون مصدرًا وصفة لمن قامت به ، ثم عبر عن حقيقة الشىء بالعين ، كما عبر عن الوحش بالصيد ، وإنما الصيد فى أصل موضوعه مصدر من صاد يصيد .

ومن هنا لم يرد فى الشريعة عبارة عن نفس البارى سبحانه وتعالى ، لأن نفسه سبحانه غير مدركة بالعيان فى حقنا اليوم .

وأما عين القبلة ، وعين الذهب ، وعين الميزان ، فراجعة إلى هذا المعنى .

وأما العين الجارية فمشبهة بعين الإنسان لموافقتها لها فى كثير من صفاتها .

وأما عين الإنسان فمسماة بما أصله أن يكون صفة ومصدرًا ، لأن العين فى أصل الوضع مصدر كالدين ، والزين ، والبين ، والأين ، وما جاء على بنائه .

---

(١) بدائع الفوائد : ١/٥ - ٧ بتصرف .

* ومما يدل على أنها مصدر فى الأصل قوله تعالى : ﴿ عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ [1] ﴿ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾ [2] فالعلم والحق مصدران مضافان إلى اليقين فكذلك العين . هكذا قال السهيلى - رحمه الله تعالى - وفيه نظر :

لأن إضافة عين إلي اليقين من باب قولهم نفس الشىء وذاته ، فعين اليقين نفس اليقين ، والعين التى هى عضو سميت عينًا ، لأنها آلة ومحل لهذه الصفة التى هى العين ، وهذا من قولهم : امرأة ضيف وعدل ، تسمية للفاعل باسم المصدر والعين التى هى حقيقة الشىء ونفسه من باب تسمية المفعول بالمصدر كصيد . . أ هـ .

فأصل « العين » المصدر أو الصفة فى الوضع ، وبعض استعمالاتها لصفة تلمح فى المشابهة بهذا الأصل أو ما يشابه ، وذلك فى الصفات ، ورد ما رآه السهيلى لأن الإضافة من إضافة الشىء إلى نفسه [3] .

ثم يرد توهم السهيلى مرة ثانية ، فى أن إضافة العين إلى البارئ سبحانه حقيقة لا مجازًا فى قوله تعالى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِى ﴾ [4] ويرد عليه وعلى المعتزلة ما قالوه فى الصفات ويفند قولهم من وجوه ، بما ينصر مذهب أهل السنة والجماعة . .

كما يشير إلى ما ذكره حذاق اللغة وفقهها من أن الأصل اللغوى فى الوضع كثيرًا ما ينسى وتنسى حقيقته ، ورب مجاز كثر واستعمل حتى نسى أصله وتركت حقيقته كما فى بعض استعمالات لفظ « العين » ، وغيره من ألفاظ المشترك .

ولا يكتفى ابن القيم ببحث اللفظ وإطلاقاته ، ولكنه يرينا ما قيل فى

---

(١) التكاثر : ٥ (٢) الواقعة : ٩٥

(٣) بدائع الفوائد : ٢/٣ . (٤) طه : ٣٩

استعمالاته بطرق مختلفة ، من حيث التعدى بحروف مختلفة ، أو من حيث اللزوم ، فيحكى مثلاً ما حكاه السهيلى - رحمه الله تعالى - فى استعمالات لفظ « العين » ثم يستدرك عليه بما يدل عليه الجمع والإفراد حين الاستعمال ، مما يدل على حسه اللغوى ، وبعد نظره وثاقب فكره . .

يقول ولحرف الجر دخل كبير فى تنوع المعنى ، ويشير إلى ذلك ابن القيم :
(قال : ومن فوائد هذه المسألة - مسألة الإرادة والمحبة وتلازمها أولاً ، عند الأشاعرة وغيرهم أن يسأل عن المعنى الذى لأجله قال تعالى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِى ﴾ (1) بحرف على ، وقال تعالى : ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ (2) بالباء ، ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (3) ، وما الفرق ؟ .

فالفرق : أن الآية الأولى وردت فى إظهار أمر كان خفيًا ، وإبداء ما كان مكتومًا ، فإن الأطفال إذ ذاك كانوا يغذون ويصنّعون سرًا ، فلما أراد أن يصنع موسى ويغذى ويربى على حال أمر وظهور ، لا تحت خوف واستسرار دخلت « على » على اللفظ تنبيهًا على المعنى ، لأنها تعطى الاستعلاء ، والاستعلاء ظهور وإبداء ، فكأنه يقول سبحانه وتعالى ، ولتصنع على أمن لا تحت خوف .

وذكر العين لتضمنها معنى الرعاية والكلاءة .

* وأما قوله تعالى : ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ ، و﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ فإنه إنما يريد برعاية منا وحفظ ما تقدم أ . هـ هذا كلامه ، أى كلام السهيلى .

ويعقب عليه ابن القيم بقوله :

ولم يتعرض - لوجه الإفراد هناك (على عينى) ، والجمع هنا (بأعيننا) ، وهو من ألطف المعانى للآية .

---

(1) طه : 39 (2) القمر : 14 (3) هود : 37

* والفرق بينهما يظهر من الاختصاص الذى خص به موسى فى قوله تعالى : ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ ، فاقتضى هذا الاختصاص الاختصاص الآخر فى قوله : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِى ﴾ فإن هذه الإضافة إضافة تخصيص .

وأما قوله تعالى : ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ ، و﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ فليس فيه من الاختصاص ما فى صنع موسى على عينه سبحانه وتعالى ، واصطناعه إياه لنفسه ، وما يسنده سبحانه إلى نفسه بصيغة ضمير الجمع قد يريد به ملائكته ، كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ ، وقوله : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ ، ونظائره ، فتأمل أ . هـ .

* * *

اللغة والأدب والنقد

● فلسفة الكلام اللغوى ، وسرّ المضمرات :

النحاة يرون أن الكلام لغة كل ما أفاد - بينما يفضل ابن القيم ما يراه السهيلى :

أن الكلام هو تعبير عما فى نفس المتكلم من المعانى ، فإذا أضمر ذلك المعنى فى نفسه - أى أخفاه - ودل المخاطب عليه بلفظ خاص سمى ذلك اللفظ ضميراً ، تسمية له باسم مدلوله . .) فكلام النحاة أخص ، وما اختاره ابن القيم من كلام السهيلى أعم وأشمل .

وعن سر المضمرات ، وعددها ، وأحوالها ، وسر ترتيب حروفها ، يقول : والمضمرات فى كلامهم نحو ستين ضميراً ، وأحوالها معلومة ، لكن ننبه على أسرارها من أحكام المضمرات :

اعلم أن المتكلم لما استغنى عن اسم الظاهر فى حال الأخبار لدلالة المشاهدة عليه ، جعل مكانه لفظًا يومىء به إليه ، وذلك اللفظ مؤلف من همزة ونون .

أما الهمزة فلأن مخرجها من الصدر ، وهو أقرب مواضع الصوت إلى المتكلم ، إذ المتكلم فى الحقيقة محله وراء حبل الوريد ، قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (١) ألا تراه يقول : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة ق : ١٦ (٢) سورة ق : ١٨

يعنى ما يلفظ المتكلم ، فدل على أن المتكلم أقرب شىء إلى حبل الوريد، فإذا كان المتكلم على الحقيقة محله هناك ، وأردت من الحروف ما يكون عبارة عنه ، فأولاها بذلك ما كان مخرجه من جهته وأقرب المواضع إلى محله ، ليس إلا (الهمزة) أو (الهاء) ، والهمزة أحق بالمتكلم لقوتها بالجهر والشدة ، وضعف الهاء بالخفاء ، فكان ما هو أجهر أقوى وأولى بالتعبير عن اسم المتكلم الذى الكلام صفة له ، وهو أحق بالاتصاف به » .

* وفى تحليل الفاهم المدقق بَيَّن سر اتصال حروف الضمائر وترتيبها ، واختصاصها بحركاتها ، وأصحابها من متكلم أو مخاطب أو غائب ، والثوابت فى أصول حروفها والطوارئ ، والفرق بين علامات التثنية ، والجمع من الحروف الدالة على ذلك ، واختصاص حالات معينة بحروف معينة فى الضمائر دون غيرها . . . حتى يصل إلى ضمير « نحن » فيقول عنه فيما قال:

« . . . ثم كانت الكلمة آخرها نون وفى أولها : إشارة إلى الأصل المتقدم الذى لم يمكنه الإتيان به ، وهو تثنية « أنا » التى هى بمنزلة عطف اللفظ على مثله ، فإذا لم يمكنهم ذلك في اللفظ مثنى ، كانت النون المكررة تنبيهًا عليه ، وتلويحًا عليه .

وخصت « النون » بذلك دون الهمزة ، لما تقدم من اختصاص ضمير الجمع بالنون ، وضمير المتكلم بالهمزة ، ثم جعلوا بعد النون (حاء) ساكنة لقربها من مخرج الألف الموجودة فى ضمير المتكلم قبل النون وبعدها .

ثم بنوها على الضم دون الفتح والكسر ؛ إشارة إلى أنه ضمير مرفوع ، وشاهده ما قلناه فى الباب من دلالة الحروف المقطعة على المعانى ، والرمز بها إليها ، وقوع ذلك فى منثور كلامهم ومنظومه :

فمنه : قلت لها قفى . قالت : قاف .

ومنه : ألاتا ، فيقول الآخر : ألافا . يعنى : ألا ترحل ، فيقول : ألا فارحل .

ومنه :

بالخيـــر خيراتا ، وإن شرافًا وما أريد الشرّ إلا أنْ تشا[1]

وقولهم :

مهيم ، فى أنا هذا يا امرؤ ؟ وأيـــــش ، فى أى شىء

و« م الله » ، فى أيمن الله ، ومن هذا الباب حروف التهجى فى أوائل السور) [2] .

* *

ويعود إلى مزيد بيان لسر ترتيب الحروف فى الكلمات والضمائر ، من أقوال أئمة العلماء ، رابطًا استعمال اللغة بالدين ، يقول :

(وقد رأيت لابن فورك ، نحوا من هذا فى اسم (الله) ، قال : الحكمة فى وجود الألف فى أوله : أنها من أقصى مخارج الصوت قريبًا من القلب ، الذى هو محل المعرفة إليه .

ثم الهاء فى آخره مخرجها من هناك أيضًا ، لأن المبتدأ منه والمعاد إليه ، والإعادة إليه أهون من الابتداء .

وكذلك لفظ الهاء أهون من لفظ الهمزة [3] .

وهذا معنى كلامه [4] ، فلم يقل ما قلناه فى المضمرات إلا اقتضابًا من أصول أئمة النحاة واستنباطًا من قواعد اللغة .

---

(١) رواه ابن منظور فى لسان العرب على هذا النحو :

بالخير خيرات وإن شرًا فا ولا أريد الشرّ إلا أن تشا

قال : وزعم بعضهم أنه أراد (الفاء والتاء) فرخم .

(٢) مثل : ألم ، والمص ، وحم ، وكهيعص ، والمر ، وص ، وق . . .

(٣) الهمزة صوت مجهور عند فريق من علماء الأصوات المحدثين ، وعند آخرين وسط بين الجهر والهمس ، شديد ، مستفل ، منفتح ، مصمت ، بينما الهاء صوت مهموس ، رخو ، مستفل ، منفتح ، مصمت .. وهذا سر ضعفها .

(٤) يشير إلى ابن فورك .

فتأمل هذه الأسرار ، ولا يزهدنك فيها نبو طباع أكثر الناس عنها ، واستغناؤهم بظاهر من الحياة الدنيا عن الفكر فيها ، والتنبيه عليها ، فإنى لم أفحص عن هذه الأسرار ، وخفى التعليل فى الظواهر والإضمار ، إلا قصد التفكر والاعتبار فى حكمة مَنْ خلق الإنسان وعلمه البيان .

فمتى لاح لك من هذه الأسرار سر ، وكشف لك عن مكنونها فكر ، فاشكر الواهب للنعمى ، وقل رب زدنى علمًا) [1] أ هـ .

رأينا ابن القيم يبذل قصارى جهده فى جعل الأمور العلمية مرتبطة بوشائج دينية ، كقوله : « إن مخرج الهمزة من الصدر ، لأن محل المتكلم وراء حبل الوريد ، ويستشهد بالآية الكريمة كما سبق ، وإشارته إلى قوة الهمزة بالجهر والشدة وضعف الهاء . . وأولى الحروف بقرب أو بعد هو ما ناسب أن يكون من قربه مخرجًا قبل غيره ، ولا بد من حروف الحلق ما هو أقوى من غيرها جهرًا وشدة كالهمزة أو الهاء كانت أقرب إلى المتكلم حين لفظه ، حتى يتحقق معنى الآية الكريمة بمعنى ما يلفظ المتكلم » .

ثم يحدثنا على الحروف التى تتصل بالضمائر ، والحال المقتضى لذلك ، بما يقنع القارئ ، والمتأمل ، والباحث عن السر من المختصين فى اللغويات وأصولها » .

كما يبين الفرق بين احتياج الأشخاص الثلاثة (المتكلم ، والمخاطب ، والغائب) إلى الحروف التى تكون الضمائر المناسبة لهم ، والتى لا يحتاج إليها بعضهم حتى تتضح الأمور اللغوية فى الضمائر ، وفلسفة هذا الضم حين الاحتياج أو عدمه .

ويجعل دلالة الحروف المقطعة دالة على المعانى والرمز بها إليها . . بما يجرنا إلى بحث أصول الكلمات اللغوية فى العربية ، وهل هى ثنائية ، أو أحادية [2] .

---

(١) بدائع الفوائد : ١٧٥ - ١٨٠ بتصرف .

(٢) لى كتاب عن اللغة العربية وهل أصولها ثنائية أم ثلاثية ؟ طبع مكتبة وهبة ، وظهر لى أن أصول كلمات كثيرة أحادية أيضًا .

وقلنا : إن ابن القيم - رحمه الله تعالى - يريد أن يجعل كل شىء « حتى فى الجانب اللغوى من تقوى القلوب ، ويلبسه ثوب المهابة والجلال » ، فهو يشير إلى ما ذكره ابن فورك ، من أن :

« الألف فى اسم « الله تعالى » فى أول اللفظ لأنها من أقصى مخارج الصوت وقريبًا من القلب » . . وقد تحدث ابن جنى - رحمه الله تعالى - عن ترتيب الحروف وتقاليبها ، وبقاء المعنى فى معظم التقاليب أو كلها . . وغير ابن جنى ولع بالإشارة إلى الأصل الثلاثى أو الثنائى . . والمعنى المستقى من ذلك . . كما صنع ابن سينا ، والخفاجى ، والسكاكى ، وانتهاء بالشيخ العلايلى - رحمه الله تعالى - بالبحث عن المعنى المستقى من الحرف الأحادى ، كما ورد فى الجدول الفنيقى . .

ولكن ابن القيم يرى أن الألف من اسم الجلالة (الله) كانت فى أول الاسم لقرب مخرجها من القلب ، وهذه لفتة طيبة من رجل صالح .



● الحرف الواحد ، وأصل اللفظ :

لعل البعض قد أخذته الدهشة حين ذكرنا أن أصول العربية تدور حول الثنائية والثلاثية فى كتابنا [١] ، وقد أشرنا فيه إلى أن بعضهم ذهب إلى أن المعنى فى العربية يرجع إلى الأحادية ، كما فى الجدول الفنيقى ، الذى ذكره الشيخ عبد الله العلايلى فى « مقدمته » .

ووراء هذه المعانى الدقيقة يغوص العلامة ابن القيم ، ليقدم لنا : « فائدة بديعة » فى أن المعنى قد يستقى من حرف واحد ، يقول :

(الاسم من (هذا) الذال وحدها دون الألف على أصح القولين ، بدليل : سقوط الألف فى التثنية والمؤنث) : ويبين لماذا اختصت الذال بذلك ، فيقول :

---

(١) سبقت الإشارة إليه .

وخصت « الذال » بهذا الاسم لأنها من طرف اللسان ، والمبهم مشار إليه، فالمتكلم يشير نحوه بلفظه أو بيده ، ويشير مع ذلك بلسانه ، فإن الجوارح خدم القلب ، فإذا ذهب القلب إلى شيء ذهابًا معقولاً ذهبت الجوارح نحوه ذهابًا محسوسًا ، والعمدة فى الإشارة فى مواطن التخاطب على اللسان .

ولا يمكن إشارته إلا بحرف يكون مخرجه من عذبة اللسان ، التى هى آلة الإشارة دون سائر أجزائه ، فأما « الذال » أو « التاء » ، فالتاء مهموسة رخوة ، فالمجهور أو الشديد من الحروف أولى منها للبيان .

و« الذال » مجهورة فخصت بالإشارة إلى المذكر وخصت التاء بالإشارة إلى المؤنث لأجل الفرق ، وكانت التاء به أولى (بالمؤنث) لهمسها وضعف المؤنث ، ولأنها قد ثبتت علامة التأنيث فى غير هذا الباب ، ثم بينوا حركة الذال بالألف ، كما فعلوا فى النون من أنا ، وربما شركوا المؤنث مع المذكر فى الذال ، فاكتفوا بالكسرة فرقًا بينهما ، وربما اكتفوا بوجود لفظ التاء فى الفرق بينهما وربما جمعوا بين لفظ التاء والكسرة حرصًا على البيان . أ هـ .

« فالجوارح عنده تتبع القلب ، لأنها خدمه ، وفرق بين التبعية الحسية والعقلية ، والعمدة فى الإشارة اللسان ، ومن عذبته يكون حرف الإشارة .

ويشير إلى أنهم زادوا « اللام » توكيدًا . . وكانت « اللام » أولى بهذا الموطن حين أرادوا الإشارة إلى البعيد ، فكثرت الحروف حين كثرت مسافة هذه الإشارة - وقللوها حين قلت .

وكذلك جئت بكاف الخطاب (ذلك) فكأنك تقول له : لك أقول ، ولك أرمز بهذا الاسم . ففى اللام طرف من هذا المعنى . .

« وأما دخول هاء التنبيه (هذه وهذا) فلأن المخاطب يحتاج إلى تنبيه على الاسم الذى يشير به إليه ، لأن للإشارة قرائن حال يحتاج أن ينظر إليها ، فالمتكلم كأنه آمر له بالالتفات إلى المشار إليه ، أو منبه له ، فلذلك اختص هذا الموطن بالتنبيه . .



* وابن القيم ليس حاكيًا ولا مقلدًا ولا تابعًا ، بل له رأيه وترجيحه واستقلاله ، وإن ذهب علماء اللغة والنحو إلى نحو آخر .. فهو يقول عن حرف التنبيه (الهاء) وعدم جواز أن تعمل معانيها فى الأحوال والظروف ، يقول :

(وعندى أن حرف التنبيه بمنزلة حرف النداء ، وسائر حروف المعانى ، لا يجوز أن تعمل معانيها فى الأحوال ، ولا فى الظروف ..) (١) .

* كما يشير إلى الصحيح والأصح فى ترجيحه فى العامل فى هذا الباب ، فليراجع هذه المباحث البديعة من شاء مزيدًا من البحث الممتع المفيد والعميق ، وليحيط بالموضوع من جميع أطرافه .

* *

● الاتفاق والاختلاف فى صفات الحروف ومعانيها :

واتفاق الحروف فى الصفات يتبعه اتفاق المعانى ، واختلاف بعض الحروف فى الصفات ينوع المعانى ، ويأتى بالفروق بينها ، يقول : (وأما « حتى » فموضوعة للدلالة على أن ما بعدها غاية لما قبلها ، وغاية كل شىء حده ، ولذلك كان لفظها كلفظ « الحد » فإنها « حاء » قبل تاءين ، كما أن الحد حاء قبل دالين ، والدال كالتاء فى المخرج والصفة إلا فى الجهر ، فكانت لجهرها (فى الحد) أولى بالاسم لقوته ، والتاء (فى حتى) لهمسها أولى بالحرف لضعفه .

ومن حيث كانت حتى كانت للغاية خفضوا بها كما يخفضون « بإلى » التى للغاية .

والفرق بينهما : أن « حتى » غاية لما قبلها وهو منه ، وما بعد « إلى » ليس مما قبلها ، بل عنده انتهى ما قبل الحرف ، ولذا فارقتها فى أكثر أحكامها .

---

(١) بدائع الفوائد : ١/ ١٨١

ولم تكن « إلى » عاطفة لانقطاع ما بعدها عما قبلها بخلاف حتى . ومن ثم دخلت « حتى » فى حروف العطف ، ولم يجز دخولها على المضمر المخفوض إذا كانت خافضة (لا تقول : قام القوم حتاك .

ومن حيث كانت ما بعدها غاية لما قبلها لم يجز فى العطف : قام زيد حتى عمرو ولا أكلت خبزًا حتى تمرًا ، لأن الثانى ليس بحد للأول ولا ظرف)[1] اهـ .

بين ابن القيم صفة بعض الحروف ، ونتيجة ذلك فى المعنى ، وفرق بين المعنى بناء على اختلاف الصفات ، وفرق بين اللفظتين فى العمل كما فرق بينهما فى المعنى وضرب أمثلة توضح المعنى وتبينه ، وتظهر العمل والحكم استقصاء للفائدة وبيانًا لمزيد من الفوائد البديعة .

* *

* ويذكر أحيانًا ما يستحسنه ويرجحه ، ويعلن رأيه بصراحة فيما ليس بصحيح : فهو يرد على المتوهمين ، ويذكر ما كان يجب أن يذكره العلماء فى المسألة مما أغفلوه ولم ينبهوا عليه ، ويذكر بأمانة العلماء ما ذكره الغير فى المسألة مما يرتضيه ويكتفى به ، يقول :

(ليس المراد من كون « حتى » لانتهاء الغاية ، وأن ما بعدها ظرفًا أن يكون متأخرًا فى الفعل عما قبلها ، فإذا قلت : (مات الناس حتى الأنبياء ، وقدم الحاج حتى المشاة) لم يلزم تأخر موت الأنبياء عن الناس وتأخر قدوم المشاة عن الحاج .

ولهذا قال بعض الناس إن « حتى » مثل الواو لا تخالفها إلا فى شيئين :

أحدهما : أن يكون المعطوف من قبيل المعطوف عليه ، فلا تقول : قدم الناس حتى الخيل بخلاف « الواو » .

---

(١) بدائع الفوائد : ١/ ١٨١

الثانى : أن تخالفه بقوة أو ضعف ، أو كثرة أو قلة ، وأما أن يفهم منها الغاية والحد فلا والذى حمله على ذلك ما تقدم من المثالين .

ولكن فاته (فات بعض الناس) أن يعلم المراد بكون ما بعدها غاية وظرفًا، فاعلم أن المراد به أن يكون غاية فى المعطوف عليه لا فى الفعل ؛ فإنه يجب أن يخالفه فى الأشد والأضعف والقلة والكثرة .

وإذا فهمت هذا ، فالأنبياء غاية للناس فى الشرف والفضل ، والمشاة غاية للحجاج فى الضعف والعجز .

وأنت إذا قلت : « أكلت السمكة حتى رأسها » فالرأس غاية لانتهاء السمكة ، وليس المراد أن غاية أكلك كان الرأس ، بل يجوز أن يتقدم أكلك للرأس . وهذا مما أغفله كثير من النحويين لم ينبهوا عليه أ هـ [1] .



* ويرد ابن القيم التوهم الشائع ، وينسب القول لأهله كأمانة الفضلاء ، ويرجح الأصوب ، يقول : « أو » وضعت للدلالة على أحد الشيئين المذكورين معها ، ولذلك وقعت فى الخبر المشكوك فيه ، حيث كان الشك ترددًا بين أمرين من غير ترجيح لأحدهما على الآخر ، لا أنها وضعت للشك : فقد تكون فى الخبر الذى لا شك فيه ، إذا أبهمت على المخاطب ، ولم تقصد أن تبين له ، كقوله سبحانه : ﴿ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [2] ، أى أنهم من الكثرة بحيث يقال فيهم : هم مائة ألف أو يزيدون (فأو) على بابها : دالة على أحد الشيئين : إما مائة ألف بمجردها ، وإما مائة ألف مع زيادة ، والمخبر فى كل هذا لا يشك [3] .

وقوله تعالى : ﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [4] ذهب فى (أو)

---

(١) بدائع الفوائد : ١/١٩٧ - ١٩٩ بتصرف .
(٢) الصافات : ١٤٧
(٣) وقال بعض العلماء « أو » فى هذه الآية بمعنى : بل.
(٤) البقرة : ٧٤

هذه كالتى فى قوله سبحانه : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ [1] إلى أنها « أو » التى للإباحة : أى أبيح للمخاطبين أن يشبهوا بهذا ، أو هذا ، وهذا فاسد ، فإن « أو » لم توضع للإباحة فى شىء من الكلام ، ولكنها على بابها ، أما قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ فإنه تعالى ذكر مثلين مضروبين للمنافقين فى حالتين مختلفتين : فهم لا يخلون من أحد الحالتين ، « فأو » على بابها من الدلالة على أحد المعنيين ، وهذا كما تقول : زيد لا يخلو أن يكون فى المسجد أو الدار ، ذكرت « أو » لأنك أردت أحد الشيئين . .

وتأمل الآية بما قبلها وافهم المراد منها تجد الأمر كما ذكرت لك ، وليس المعنى أبحت لكم أن تشبهوهم بهذا وهذا .

وأما قوله سبحانه : ﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ فإنه ذكر قلوبًا ولم يذكر قلبًا واحدًا ، فهى على الجملة قاسية ، أو على التعيين لا تخلو من أحد أمرين : إما أن تكون كالحجارة ، وإما أن تكون أشد قسوة ، ومنها كالحجارة ، ومنها ما هو أشد قسوة منها ، ومن هذا قول الشاعر :

فقلت لهم شيئان لا بد منهما   صدور رماح أشرعت أو سلاسل

أى لا بد منهما فى الجملة ، ثم فصل الاثنين بالرماح والسلاسل : فبعضهم له الرماح قتلاً ، وبعضهم له السلاسل أسرًا ، فهذا على التفصيل والتعيين ، والأول على الجملة فالأمران واقعان جملة وتفصيلهما بما بعد « أو ».

وقد يجوز فى قوله تعالى : ﴿ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ مثل أن يكون فيما فى قوله تعالى : ﴿ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [2] . . .

وأما أو التى زعموا أنها للإباحة ، نحو : (جالس الحسن أو ابن سيرين) ، فلم توجد الإباحة من لفظ « أو » ، ولا من معناها ولا تكون « أو » قط

---

(1) البقرة : ١٩   (2) الصافات : ١٤٧

للإباحة وإنما أخذت من لفظ الأمر الذى هو للإباحة ، ويدل على هذا : أن القائلين بأنها للإباحة يلزمهم أن يقولوا : إنها للوجوب إذا دخلت بين شيئين لا بد من أحدهما نحو قولك للمكفِّر : أطعم عشرة مساكين ، أو أكسهم ، فالوجوب هنا لم يوجد من « أو » ، وإنما أخذ من الأمر ، فكذا : جالس الحسن أو ابن سيرين) (١) . أ هـ .

* أطلنا النقل فى هذه الفائدة البديعة ، لنندلل على تتبع العلامة ابن القيم للجزئيات وتلمس الشاهد والدليل على قوله ، والتعليل المعقول لما يختاره ، ورد التوهم الذى وقع فيه ممن سبقه ، ومناقشة القضايا التى يسوقها مناقشة علمية عقلية ، وإسناد الرأى لقائله ، وبصره بصفات حروف اللغة العربية ومخارجها ، وتنوع المعنى أو اتحاده تبعًا للمخرج والصفة ، - وتتبع معانى الحروف والإشارة إلى أحكامها ، وبيان وجه الجواز أو الامتناع فى استعمالها وبيان وجه التجوز فى قول اللغويين والنحاة ، وذكر وجه الحقيقة كأصل فى الاستعمال وإن أهملت بكثرة الاستعمال للمجاز ، أو التجوز فى القول . . إلخ . . .

فله بصر بالعلوم اللغوية وأصولها ، بجانب كونه فقيهًا له بصر بضروب المعارف الإسلامية وصنوفها ، ومن تتبع أمثال هذه المباحث فى كتبه رأى صدق ما قلناه ، وسعة عقله ووفرة معارفه وعمق تفكيره ، وتلمس الرابطة الدينية ما أمكن . .

واقرأ له على سبيل المثال فى هذا الصدد مباحث : (أصل تركيب لكن) ، و« أم » فى الاتصال والانقطاع ، والسر فى إضمار حرف العطف . . فى كتابه : « بدائع الفوائد » ترى فوائد جمة ، وصدق ما ذهبنا إليه .

* * *

(١) بدائع الفوائد : ١/ ١٩٩

الفصل السادس

الوسواس ، والجنة والناس ، نحواً وصرفًا

- اشتقاق الوسواس ، وهل هو وصف أم مصدر ؟ وهل هو بمعنى الثلاثى المضعف ؟
- وبم يتعلق الجار والمجرور ؟ وما موضع الجار والمجرور إذا كان حالاً أو صفة ؟
- و« الناس » مم اشتق ؟
- وكيف وقع اسم الرجال على الجنّ ؟ وهل يطلق عليهم اسم الناس؟
- هل يوسوس الإنسى للجن ؟

* قوله تعالى : ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ (*) اختلف المفسرون فى هذا الجار والمجرور بم يتعلق ، فقال الفَراء وجماعة :

هو بيان « للناس » الموسوس فى صدورهم ، والمعنى : يوسوس فى صدور الناس الذين هم من الجن والإنس . . أى الموسوس فى صدورهم قسمان : إنس وجن . فالوسواس يوسوس للجنى كما يوسوس للإنسى . .

وعلى هذا القول فيكون « من الجنة والناس » نصب على الحال ؛ لأنه مجرور بعد معرفة على قول البصريين ، وعلى قول الكوفيين : نصب بالخروج من المعرفة.

هذه عبارتهم ، ومعناها : أنه لما لم يصلح أن يكون نعتًا للمعرفة انقطع عنها فكان موضعه نصبًا . . والبصريون يقدرونه حالاً : أى كائنين من الجنة والناس ، وهذا القول ضعيف جدًا لوجوه :

أحدها : أنه لم يقم دليل على أن الجِنّى يوسوس فى صدور الجِن ويدخل فيه كما يدخل فى الإنسى ، ويجرى منه مجراه من الإنسى ، فأىّ دليل يدلُّ على هذا حتى يصح حمل الآية عليه ؟

الثانى : أنه فاسد من جهة اللفظ أيضًا ؛ فإنه قال : « الذى يوسوس فى صدور الناس » ، فكيف يُبيّن الناس بالناس ، فإن معنى الكلام على قوله يوسوس فى صدور الناس ، الذين هم أو كائنين من الجنة والناس . . أفيجوز أن يقال فى صدور الناس الذين هم من الناس وغيرهم ؟ هذا ما لا يجوز ولا هو استعمال فصيح .

الثالث : أن يكون قد قسم الناس إلى قسمين : جنة وناس ، وهذا غير صحيح ؛ فإن الشىء لا يكون قسيم نفسه .

(*) الجنة : اسم جمع جنىّ بياء النسب إلى نوع الجن ، والجنىّ واحد من نوع الجن، كما يقال : إنسىّ لواحد من الأنس، قدَّمَ الجنة على الناس هنا لأنهم أصل الوسواس ، وقدم الناس على الجن هناك : لأن خبثاء الناس أشد مخالطة للأنبياء من الشياطين ، لأن الله تعالى عصم أنبياءه من تسلط الشياطين : ﴿ إنّ عِبَادِى لَيْسَ لك عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ . . . . الغَاوِينَ ﴾ .

الرابع : أن الجنة لا يطلق عليهم اسم الناس بوجه لا أصلاً ولا اشتقاقًا ولا استعمالاً ، ولفظهما يأبى ذلك ، فإن الجن إنما سمّوا جنا من الاجتنان ، وهو الاستتار ؛ فهم مستترون عن أعين البشر ، فسموا جِنا لذلك من قولهم جَنَّه الليل وأَجَنَّه إذا ستره ، وأجنَّ الميت إذا ستره فى الأرض .

قال الشاعر :

ولا تبك ميتًا بعدَ ميتٍ أجَنَّهُ عليّ وعباس ، وآل أبى بكر

يريد النبى ﷺ ، ومنه الجنينَ لاستتاره فى بطن أمه ، قال تعالى :

﴿ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ (١) .

ومنه المِجَنّ لاستتار المحارب به من سلاح خصمه ، ومنه الجَنّة (٢) لاستتار داخلها بالأشجار ، ومنه الجُنّة (بالضم) لما يقى الإنسان من السهام والسلاح ، ومنه المجنون لاستتار عقله .

* *

وأما (الناس) : فبينه وبين الأنس مناسبة فى اللفظ والمعنى ، وبينهم اشتقاق أوسط ، وهو : عقد تقاليب الكلمة على معنى واحد ، والأنس والإنسان مشتق من الإيناس ، وهو الرؤية والإحساس ، ومنه قوله تعالى : ﴿ آنَسَ من جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾ (٣) ، أى رآها ، ومنه : ﴿ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا ﴾ (٤) ، أى أحسستموه ورأيتموه .

فالإنسان سمّى إنسانًا لأنه يُؤنَس أى يُرى بالعين .

* *

● اشتقاق الناس(*)

* الناس فيه قولان : **أحدهما** : أنه مقلوب من أنس ، وهو بعيد والأصل عدم القلب .

والثانى : وهو الصحيح أنه من النّوس وهو الحركة المتتابعة ؛ فسمى الناس

---

(١) النجم : ٣٢ (٢) بالفتح .
(٣) القصص : ٢٩ (٤) النساء : ٦
(*) « الناس » من المخلوقات الخفية والجن والشياطين .

ناسًا للحركة الظاهرة والباطنة ، كما سمى الرجل حارث وهمام ، وهما أصدق الأسماء ، كما قال النبى ﷺ ؛ لأن كل أحد له هم وإرادة ، وهى مبدأ وحرث وعمل هو منتهى ، فكل أحد حارث وهمام والحرث والهم حركتا الظاهر والباطن ، وهو حقيقة النوس .

* وأصل « ناس » نوس تحركت الواو وقبلها فتحة فصارت ألفًا ، هذان هما القولان المشهوران فى اشتقاق الناس .

* وأما قول بعضهم : أنه من النسيان ، وسمى الإنسان إنسانًا لنسيانه ، وكذلك الناس سموا ناسًا لنسيانهم ، فليس هذا القول بشىء ، وأين النسيان الذى مادته (ن س ى) إلى الناس الذى ماته (ن و س) ؟ وكذلك أين هو من الأنس الذى مادته (أ ن س) ؟

وأما إنسان فهو فِعْلان من (أ ن س) والألف والنون فى آخره زائدتان ، لا يجوز فيه غير هذا ألبتة ؛ إذ ليس فى كلامهم أنسن حتى يكون إنسانًا إفعالاً منه ، ولا يجوز أن يكون الألف والنون فى أوله زائدتين إذ ليس فى كلامهم انفعل ، فيتعين أنه فعلان من الإنس ، ولو كان مشتقًا من نسى لكان نسيانًا لا إنسانًا .

* *

* (فإن قلت) فهلا جعلته إفعلالاً وأصله (إنسيان) كليلة إصحيان ، ثم حذفت الياء تخفيفًا فصار إنسانًا .

(قلت) : يأبى ذلك عدم إفعلال فى كلامهم ، وحذف الياء بغير سبب ودعوى ما لا نظير له ، وذلك كله فاسد .

على أن الناس قد قيل : إن أصله : الأناس ، فحذفت الهمزة ، فقيل : الناس واستدل بقول الشاعر :

* إن المنايا يطلعن على الأناس الغافلينا *

ولا ريب أن أناسًا (فعال) ولا يجوز فيه غير ذلك البتة ؛ فإن كان أصل ناس أناسًا فهو أقوى الأدلة على أنه من أنس ، ويكون الناس كالإنسان سواء فى الاشتقاق ، ويكون وزن (ناس) على هذا القول (عال) ؛ لأن المحذوف

فاؤه ، وعلى القول الأول يكون وزنه (فَعْل) لأنه من النوس ، وعلى القول الضعيف يكون وزنه (فلع) لأنه من نسى فقلبت لامه إلى موضع العين فصار ناسًا ووزنه فلعًا .

* *

* والمقصود أن (الناس) اسم لبنى آدم فلا يدخل الجن في مسماهم ؛ فلا يصح أن يكون من الجنة والناس بيانًا لقوله تعالى : ﴿ فِى صُدُورِ النَّاسِ ﴾ ، وهذا واضح لا خفاء فيه .

* (فإن قيل) : لا محذور فى ذلك ، فقد أطلق على الجن اسم الرجال كما فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ (١) .

فإذا أطلق عليهم اسم (الرجال) لم يمتنع أن يطلق عليهم اسم (الناس) .

(قلت) : هذا هو الذى غر من قال : إن الناس اسم للجن والإنس فى هذه الآية ، وجواب ذلك :

أن اسم (الرجال) إنما وقع عليهم وقوعًا مقيدًا فى مقابلة ذكر الرجال من الإنس ، ولا يلزم من هذا أن يقع اسم الناس والرجال عليهم مطلقًا : وأنت إذا قلت إنسان من حجارة ، أو ورجل من خشب ونحو ذلك ، لم يلزم من ذلك وقوع اسم الرجل والإنسان عند الإطلاق على الحجر والخشب .

وأيضًا فلا يلزم من إطلاق اسم الرجل على الجنى .. أن يطلق عليه اسم الناس ، وذلك لأن الناس والجنة متقابلان ، وكذلك الإنس والجن ، فالله سبحانه يقابل بين لفظين كقوله تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ ﴾ (٢) .. وهو كثير فى القرآن الكريم ، وكذلك قوله : ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ ﴾

---

(١) الجن : ٦ (٢) الأنعام : ١٣٠

يقتضى أنهما متقابلان فلا يدخل أحدهما فى الآخر ، بخلاف الرجال والجن فإنها لم يستعملا متقابلين . فلا يقال : الجن والرجال ، كما يقال : الجن والإنس .

وحينئذ فالآية أبين حجة عليهم فى أن الجن لا يدخلون فى لفظ الناس ؛ لأنه قابل بين الجنة والناس ، فعلم أن أحدهما لا يدخل فى الآخر .

* فالصواب القول الثانى ، وهو أن قوله تعالى : ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ بيان للذى يوسوس ، وأنهم نوعان : إنس وجن ، فالجنى يوسوس فى صدور الإنس ، والإنسى أيضًا يوسوس إلى الإنسى .

فالموسوس نوعان : إنس وجن ، فإن الوسوسة هى الإلقاء الخفى فى القلب ، وهذا مشترك بين الإنس والجن ، وإن كان إلقاء الإنسى ، ووسوسته إنما هى بواسطة الأذن ، والجنى لا يحتاج إلى تلك الواسطة ؛ لأنه يدخل فى ابن آدم ويجرى منه مجرى الدم ، على أن الجنى قد يتمثل له ويوسوس إليه فى أذنه كالإنسى ، كما فى حديث عروة عن عائشة ، عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الملائكة تُحَدِّث فى العنان - والعنان الغمام - بالأمر يكونُ فى الأرضِ ، فتستمعُ الشيطان الكلمة فتُقرُّها فى أذنِ الكاهنِ كما تقرّ القارورة ، فيزيدون معها مائةَ كذبةَ من عند أنفسهم » (١) .

فهذه وسوسة وإلقاء من الشيطان بواسطة الأذن ، ونظير اشتراكهما فى هذه الوسوسة اشتراكهما فى الوحى الشيطانى ، قال تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ﴾ (٢) .

فالشيطان يوحى إلى الإنسى باطله ، ويوحيه الإنسى إلى إنسى مثله ، فشياطين الإنس والجن يشتركان فى الوحى الشيطانى ، ويشتركان فى الوسوسة .

---

(١) رواه البخارى .   (٢) الأنعام : ١١٢

وعلى هذا فتزول تلك الإشكالات والتعسفات التى ارتكبها أصحاب القول الأول ، وتدل الآية على الاستعاذة من شر نوعى الشياطين : شياطين الإنس والجن . وعلى القول الأول : إنما تكون الاستعاذة من شر شياطين الجن فقط فتأمله فإنه بديع جداً .

* *

● مم اشتق الوسواس ؟ :

الوسواس فَعْلال من وَسْوَسَ ، وأصل الوسوسة : الحركة أو الصوت الخفى الذى لا يُحَسُّ فيحترز منه .

فالوسواس : الإلقاء الخفى فى النفس إما بصوت خفىّ لا يسمعه إلا مَنْ أُلقى إليه : وإما بغير صوت كما يوسوس الشيطان إلى العبد .. ومن هذا وسوسة الحلى وهو حركته الخفية فى الأذن .

والظاهر - والله أعلم - إنها سُمِّيت وسوسة ؛ لقربها وشدة مجاورتها لمحل الوسوسة من شياطين الإنس وهو الأذن ، فقيل : وسوسة الحلى ؛ لأنه صوت مجاور للأذن ، كوسوسة الكلام الذى يلقيه الشيطان فى أذن من يوسوس له .

* *

* ولما كانت الوسوسة كلاماً يُكرره الموسوس ، ويؤكده عند من يلقيه إليه ، كرروا لفظها بإزاء تكرير معناها فقالوا : « وَسوسَ وسوسةً » فراعوا تكرير اللفظ ليفهم منه تكرير مسماه ، ونظير هذا ما تقدم من متابعتهم حركة اللفظ بإزاء متابعة حركة معناه ، كالدوران والغليان والنزوان وبابه (١) .

ونظير ذلك زلزل ودكدك وقلقل ، وكبكب الشىء ؛ لأن الزلزلة حركة

---

(١) ذكر هذا ابن جنى - عبقرى العربية - فى كتابه الخصائص .

متكررة ، وكذلك الدكدكة والقلقلة ، وكذلك كبكب الشيء إذا كبَّه في مكان بعيد ، فهو يكبّ فيه كبا بعد كبٍّ ، كقوله تعالى : ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴾ (١) .

ومثله رضرضه : إذا كرر رَضَّه مرة بعد مرة ، ومثله ذرذره : إذا ذرَّه شيئًا بعد شيء ، ومثله صَرصَرَ الباب : إذا تكرر صريره ، ومثله مَطْمَط الكلام : إذا مَطَّطه شيئًا بعد شيء ، ومثله كَفكَفَ الشيء إذا كرر كفّه ، وهو كثير .

* *

وقد علم بهذا أن مَن جَعل هذا الرباعي بمعنى الثلاثي المضاعف لم يصب ؛ لأن الثلاثي لا يدُلّ على تكرارٍ ، بخلاف الرباعي المكرر ؛ فإذا قلت : ذَرَّ الشيء ، وصَرّ البابُ ، وكَفَّ الثوب ، ورضَّ الحبّ ، لم يدل على تكرار الفعل ، بخلاف ذَرْذَر وصَرصَرَ ورَضرَض ونحوه ، فتأمّله فإنه مطابق للقاعدة العربية في الحذو بالألفاظ حذو المعاني (٢) ، وقد تقدم التنبيه على ذلك فلا وجه لإعادته ، وكذلك قولهم : « عَجَّ العجل » : إذا صوت فان تابع صوته قالوا عَجْعَج ، وكذلك « ثَجَّ الماءُ » إذا صبَّ فإن تكرر ذلك قيل : ثجثج ، والمقصود : أن الموسوس لما كان يكرر وسوسته ويتابعها قيل وسوس .

* *

● وهل الوسواس وصف أو مصدر ؟ :

اختلف النُّحاةُ في لفظ الوسواس : هل هو وصف أو مصدر على قولين . ونحن نذكر حُجَّة كل قول ، ثم نُبيّن الصحيحَ من القولين بعون الله وفضله :

* فأما مَن ذهب إلى أنه مصدرٌ فاحتجَّ بأن الفعل منه فَعْلَلَ والوصف من فَعْلَل إنما هو مُفَعْلِلٌ : كمُدَحْرِجٌ ومُسَرْهِفٌ ومُبَيْطِرٌ ومُسَيْطِرٌ ، وكذلك هو من فَعلَ بوزن مفعل كمقطع ومخرج وبابه .

---

(١) الشعراء : ٩٤

(٢) ذكر ذلك ابن جنى في كتابه « الخصائص » .

فلو كان الوسواس صفةً لقيل : مُوَسْوِس ، ألا ترى أن اسم الفاعل من زَلْزَلَ مُزَلْزِلٌ لا زَلزال ، وكذلك من دَكْدَكَ مُدَكْدِكٌ ، وهو مطرد ، فدل على أن الوسواس مصدر وصف به على وجه المبالغة ، أو يكون على حذف مضاف تقديره (ذو الوسواس) . . قالوا : والدليل عليه أيضًا قول الشاعر :

* تسمع للحلى بها وسواسًا *(١)

فمعنى مصدر بمعنى الوسوسة سواء .

* *

* وقال أصحاب القول الآخر : الدليل على أنه وصف أن فَعْلَلَ ضربان .

١ - صحيح لا تكرار فيه : كدحرج وسرهف وبيطر ، وقياس مصدر هذا الفَعللة كالدَّحرجة والسرهفة والبيطرة ، والفعلان بكسر الفاء كالسرهاف والدحراج ، والوصف منه مُفَعلل كمدحرج ومبيطر .

٢ - فَعْلَل الثنائى المكرر كَزلزَل ودَكدك ووَسوس ، وهذا فرع على فعلل المجرد عن التكرار ؛ لأن الأصل السلامة من التكرار ، ومصدر هذا النوع والوصف منه مساوٍ لمصدر الأول ووصفه ؛ فمصدره يأتى على الفعللة كالوَسوسة والزلزلة ، والفِعلال كالزلزال .

وأقيس المصدرين وأولاهما بنوعى فعلل الفِعلال لأمرين :

(أ) أن فَعْلَل مشاكل لأَفْعَل فى عدد الحروف وفتح الأول والثالث والرابع وسكون الثانى ؛ فجعَل إفعال مصدر أَفْعَل ، وفعلال مصدر فعلل ، ليتشاكل المصدران كما يتشاكل الفعلان : فكان الفِعلال أولى بهذا الوزن من الفَعللة .

(ب) أن أصل المصدر أن يخالف وزنه وزن فعله ، ومخالفة فعلال لفعلل ، أشد من مخالفة فعللة له ؛ فكان فعلال أحق بالمصدرية من فعللة ، أو تساويا فى الإطراد ، مع أن فعللة أرجح فى الاستعمال وأكثر ، هذا هو الأصل .

---

(١) قال الأعشى :

تسمع للحَلْى وسواسًا إذا انصرفت   كما استعان بريح عِشرق زجـــل

(عشرق : نوع من الشجر ، زجل : صوت الريح) .

وقد جاءوا بمصدر هذا الوزن المكرر مفتوح الفاء فقالوا : وَسوس الشيطان وَسواسًا ، ووعوع الكلب وَعواعًا ، إذا عوى . وعَظعظ السهم عَظعاظًا .

والجارى على القياس فِعلال بكسر الفاء أو فعللة ، وهذا المفتوح نادر ؛ لأن الرباعى الصحيح أصل للمتكرر ولم يأت مصدر الصحيح مع كونه أصلاً إلا على فَعللة وفِعلال بالكسر ، فلم يحسن بالرباعى المكرر لفرعيته أن يكون مصدره إلا كذلك ؛ لأن الفرع لا يخالف أصله بل يحتذى فيه حذوه ، وهذا يقتضى ألا يكون مصدرُه على فَعلال بالفتح فإن شذ حُفِظ ولم يزد عليه .

* قالوا : وأيضًا فإن فعلالاً المفتوح الفاء قد كثر وقوعه صفة مصوغة من فَعلل المكرر ، ليكون فيه نظير فعال من الثلاثى ؛ لأنهما متشاركان وزنًا ، فاقتضى ذلك : ألا يكون لفعلال من المصدرية نصيب ، كما لم يكن لفعال فيها نصيب ، فلذلك استندروا وقوع وسواس ووعواع وعظعاظ مصادر ، وإنما حقها أن تكون صفات دالة على المبالغة فى مصادر هذه الأفعال .

* قالوا : وإذا ثبت هذا فحقٌّ ما وقع منها محتملاً للمصدرية والوصفية أن يُحمل على الوصفية ، حملاً على الأكثر الغالب ، وتجنُّبًا للشاذ .

فمن زعم أن الوسواس مصدر مضاف إليه (ذو) تقديرًا ، فقوله خارج عن القياس والاستعمال الغالب ، ويدل على فساد ما ذهب إليه أمران :

أحدهما : أن كل مصدر أضيف إليه ذو تقديرًا فتجرُّده للمصدرية أكثر من الوصف به كرضى ، وصوم ، وفطر ، وفعلال المفتوح لم يثبت تجرده للمصدرية إلا فى ثلاثة ألفاظ فقط : (وَسواس وَوَعواع وعَظعاظ) .

على أن منع المصدرية فى هذا ممكن ، لأن غاية ما يمكن أن يستدل به على المصدرية قولهم : وسوس إليه الشيطانُ وَسواسًا ، وهذا لا يتعين للمصدرية ؛ لاحتمال أن يراد به الوصفية ، وينتصب وسواسًا على الحال ، ويكون حالاً مؤكدة ؛ فإن الحال قد يؤكد بها عاملها الموافق لها لفظًا ومعنى ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً ﴾ (١) ، وقوله تعالى :

---

(١) النساء : ٧٩

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَ النُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴾ (١) .

نعم ، إنما تتعين مصدرية الوسواس : إذا سمع أعوذ بالله من وسواس الشيطان ونحو ذلك ، مما يكون الوسواس فيه إلى مضافًا إلى فاعله كما سمع ذلك فى الوسوسة ، ولكن أين لكم ذلك ؟ فهاتوا شاهده ، فبذلك يتعين أن يكون الوسواس مصدرًا لا بانتصابه بعد الفعل .

الوجه الثانى : من دليل فساد من زعم أن وسواسًا مصدر مضاف إليه ذو تقديرًا : أن المصدر المضاف إليه (ذو) تقديرًا لا يؤنث ولا يثنى ولا يجمع ، بل يلزم طريقة واحدة ، ليعلم أصالته فى المصدرية ، وأنه عارض الوصفية ، فيقال : امرأة صَوْمٌ ، وامرأتان صوم ، ونساء صوم ؛ لأن المعنى : ذات صوم ، وذاتا صوم ، وذوات صوم .

وفَعلال الموصوف به ليس كذلك ، بل يثنى ويجمع ويؤنث ، فتقول : رجل ثرثار ، وامرأة ثرثارة ، ورجال ثرثارون ، وفى الحديث :

« أبغضكم إلَيَّ الثرثارون المتفَيْهقُونَ » (٢) .

* وقالوا : ريحٌ رَفرافة : أي تحرك الأشجار ، وريح سَفسافة أى تُنخّل التراب ، ودِرْعٌ فَضفاضة أى متسعة .

والفعل من ذلك كله فَعْلَلَ ، والمصدر فعللة وفعلال بالكسر ، ولم ينقل فى شىء من ذلك فَعلال بالفتح ، وكذلك قالوا : تَمتام ، وفَأفاء ، ولَضلاض : (أى ماهر فى الدلالة) ، وفَجفَاج : كثير الكلام ، وهَرهَار : أى ضحّاك كهكاه ، ووطواط أى ضعيف ، وحشحاش وعسعاس : أى خفيف وهو كثير ... ومصدره كله الفَعللة ، والوصف فَعلال بالفتح ، ومثله هَفْهَاف أى خميص ، ومثله دَحْدَاح أى قصير ، ومثله بَجْبَاج أى جسيم ، وتَخْتَاخ أى ألكن ، وشَمْشَام أى سريع ، وشيه خَشْخَاش ، أي : مَصوّت ، وقعقاع مثله ، وأسد قَضقَاض أى كاسر ، وحيَّةٌ نَضناض : تُحرّك لسانها .. فقد رأيت

---

(١) النحل : ١٢ (٢) رواه الترمذى فى « البر » ، وأحمد فى « المسند » .

فعلال فى هذا كله (وصفًا) لا مصدرًا ، فما بال الوَسواس أخرج عن نظائره وقياس بابه ؟!

فثبت أن وسواسًا (وصفٌ) لا مصدر كثَرثَار وتمتام ودَحداح وبابه . . .

* *

* ويدل عليه وجه آخر ، وهو : أنه وصفه بما يستحيل أن يكون مصدراً ، بل هو متعين (الوصفية) وهو الخنَّاس : فالوسواس والخناس وصفان لموصوف محذوف وهو الشيطان ، وحَسَّنَ حذفَ الموصوف ههنا غلبةُ الوصف حتى صار كالعلم عليه .

والموصوف إنما يقبحُ حذفُه . . إذا كان الوصفُ مشتركًا فيقع اللبس : كالطويل والقبيح ، والحسن ، ونحوه ، فيتعين ذكر الموصوف ؛ ليعلم أن الصفة له لا لغيره .

فأما إذا غلبَ الوصفُ ، واختص ولم يعرض فيه اشتراكٌ ، فإنه يجرى مجرى الاسم ، ويحسن حذفُ الموصوف ؛ كالمسلم والكافر ، والبر والفاجر، والقاصى والدانى ، والشاهد والوالى ، ونحو ذلك ؛ فحذف الموصوف هنا أحسن من ذكره .

وهذا التفصيل أولى من إطلاق من منع حذف الموصوف ولم يفصل .

* ومما يدل على أن الوسواس وصف لا مصدر :

أن الوصفية أغلب على فعلال من المصدرية كما تقدم ، فلو أريد المصدر ؛ لأتى (بذو) المضافة إليه ليزول اللبس وتتعين المصدرية ؛ فإن اللفظ إذا احتمل الأمرين على السواء فلا بد من قرينة تدل على تعيين أحدهما ، فكيف والوصفية أغلب عليه من المصدرية ؟ وهذا بخلاف صوم وفطر وبابهما ؛ فإنها مصادر لا تلتبس بالأوصاف ، فإذا جرت أوصافًا . . علم أنها على حذف مضاف أو تنزيلاً للمصدر منزلة الوصف مبالغة على الطريقتين فى ذلك .

فتعين أن الوسواس هو (الشيطان) نفسه ، وأنه ذات لا مصدر ، والله أعلم .

* * *

الفصل السابع

هل تبدل النكرة من المعرفة وتبينها ؟(*)

- هل الفائدة فى النكرة ، أو المعرفة ؟ فإن كانت فى واحدة منهما . فلم ذكرت الثانية ؟
- وهل يراد المعين ، أو الجنس ؟
- ولو طرحت (المبدل منه) وأبقيت (البدل) فيما دخله النفى ، هل يختل الكلام ؟

(*) سيأتى ذلك فى تفسيره لآخر سورة الفاتحة .

● هل تبدل النكرة من المعرفة ؟

ما الفائدة فى إبدال النكرة من المعرفة وتبيينها بها ، فإن كانت الفائدة فى النكرة ، فلم ذكرت المعرفة ؟ وإن كانت فى المعرفة فما بال ذكر النكرة ؟

(قيل) : هذا فيه نكتة بديعة وهى :

أن الحكم قد يعلق بالنكرة السابقة فتذكر ، ويكون الكلام فى معرض أمر معين من الجنس مدحًا أو ذما ، فلو اقتصر على ذكر المعرفة لاختص الحكم به، ولو ذكرت النكرة وحدها لخرج الكلام عن التعرض لذلك المعين .

فلما أريد الجنس أتى بالنكرة ووصفت إشعارًا بتعليق الحكم بالوصف .

ولما أتى بالمعرفة كان تنبيهًا على دخول ذلك المعين قطعًا .

ومثال ذلك : قوله تعالى : ﴿ لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾(١) ؛ فإن الآية كما قيل نزلت فى أبى جهل ، ثم تعلق حكمها بكل من اتصف به ، فقال : ﴿ لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ ﴾ تعيينًا ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ ﴾ لعدمه وتنبيهًا ، ولذلك اشترط فى النكرة فى هذا الباب أن تكون منعوتة لتحصل الفائدة المذكورة وليتبين المراد . وأما قوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا ﴾ (٢) ففيه قولان :

أحدهما : أن شيئًا بدل من رزقا ، ورزقًا أبين من شيئًا ؛ لأنه أخص منه ، والأخصّ أبين من الأعم ، وجاز هذا من أجل تقدم النفى ؛ لأن النكرة إنماتفيد بالإخبار عنها بعد النفى فلما اقتضى النفى العام ذكر الاسمَ العام الذى هو أنكر النكرات ، ووقعت الفائدة به من أجل النفى . . صلح أن يكون بدلاً من رزق . ألا ترى أنك لو طرحت الاسم الأول واقتصرت على الثانى لم يكن إخلالاً بالكلام .

---

(١) العلق : ١٥ ، ١٦ (٢) النحل : ٧٣

والقول الثانى : أن شيئًا هنا مفعول المصدر الذى هو الرزق ، وتقديره : لا يملكون أن يرزقوا شيئًا .

وهذا قول الأكثرين إلا أنه يرد عليهم أن الرزق هنا اسم لا مصدر ؛ لأنه بوزن الذِّبح والطِّحن للمذبوح والمطحون ، ولو أريد المصدر لجاء بالفتح ، نحو قول الشاعر يخاطب عمر بن عبد العزيز رحمه الله وعفا عنه :

واقصـــد إلى الخير ولا توقه وارزق عيال المسلمين رَزْقه [1]

وقد يجاب عن هذا : بأن الرزق من المصادر التى جاءت على فِعل بكسر أوائلها : كالفسق ويطلق على المصدر والاسم بلفظ واحد : كالنِّسخ للمصدر والمنسوخ وبابه وهذا أحسن .

والبيت لا نسلم أن راءه مفتوحة ، وإنما هى مكسورة ، وهذا اللائق بحال عمر بن عبد العزيز والشاعر ؛ فإنه طلب منه أن يرزق عيال المسلمين رِزق الله الذى هو المال المرزوق ، لا أنه يرزقهم كرزق الله الذى هو المصدر .. هذا مما لا يخاطب به أحد ولا يقصده عاقل ، والله أعلم .

* * *

(١) الضمير فيه يرجع إلى ما سبق فى الأبيات وهو عمر الفاروق فيزول الإشكال وليرجع إلى القصيدة فى « الكامل » : للمبرد .

القسم الثانى : (مع التفسير)

الفصل الأول
من أقسام القرآن الكريم (*)

قال الله تعالى :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

فى هذا الفصل :

- معنى مواقع النجوم : آيات القرآن ؟ أو النجوم والكواكب ومواقعها؟ أو يوم القيامة ؟
- هل هناك مناسبة بين النجوم والقرآن ؟
- المقسم عليه هو القرآن الكريم .
- لم جاء الاعتراض بين الصفة والموصوف ؟ وما قيمته ؟
- من الأغراض البلاغية للاعتراض .
- من بلاغة الاعتراض فى القرآن الكريم .
- لم وصف القرآن بالكريم ، الذى هو اسم من أسمائه تعالى ؟
- ما هو الكتاب المكنون ؟ وهل هو المصحف أو الكتاب الذى بأيدى الملائكة فى اللوح المحفوظ ؟ - ابن تيمية يرجح الثانى لعشرة وجوه .

(*) من كتابه « التبيان فى أقسام القرآن » ، فصل : ٥٦ إلى ٦٠ .

(١) الواقعة : ٧٥ - ٨٠

● القلوب الطاهرة المخلصة تفهم القرآن ، وغيرها لا .

● فائدة التأكيد والتقرير فى قوله تعالى : ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

● وما هو التنزيل ؟

● كيف استدلت السيدة خديجة - رضى الله عنها - بصفات الله ورسوله على صحة نبوة محمد ﷺ ؟ وهل استدلالها كان بالفقه الأكبر؟ أو بالفقه العملى ؟ .

* *

● ما قبل التفسير :

يجب أن نعرف أن من ميزات القرآن الكريم على غيره ما يلى :

- بلاغته اللفظية التى تتجلى فى نظامه الصوتى ، وسلاسته اللغوية . .

- وبلاغته فى اختيار الحروف والمقاطع والكلمات المعبرة .

- جودة سبكه ، وإحكام سرده ، ووحدة مواضيعه في تنوعها وكأنها سبيكة واحدة تأخذ بالألباب .

- جمعه بين الإجمال والبيان ، ووضع كل شىء فى المكان المناسب ، ولذا فليس فيه تكرار ، وإذا أمعنا النظر فى تكرار قصة أو موضوع نجد فائدة جديدة فى ثنايا الإعادة ، تناسب المقام والمقال .

- إرضاؤه للعقل والعاطفة ، والجمع بين الحق والجمال فى اتزان .

- براعته فى تصريف القول ، وإيراد المعنى فى ألفاظ مختلفة وطرق شتى .

- التنزه عن الرتابة ، والوفاء بالمعنى مع القصد فى اللفظ .

- إرضاؤه العامة والخاصة . . مهما اختلفت مداركهم - فيحس الجميع بجلاله وروعته وجماله .

- ومن هنا كانت عناية العلامة ابن القيم بين اللفظ وتحليله ، والحرف ونظمه ، والكلمة وموقعها ، واختيار الحروف وبيان موقعها ومدرجها الصوتى؛ ليجئ النظم باهرًا ، والتوزيع فى نظام موسيقى رائع .



● التفسير والتأويل :

التفسير لغة : الإيضاح ، والتبيان ، والكشف ، ومنه قوله تعالى :

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ (١) .

---

(١) الفرقان ٣٣

واصطلاحًا : هو المبين لألفاظ القرآن الكريم ، ومفهومها .

أو هو علم يبحث عن مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية .

والتأويل : لغة مأخوذ من الأول (بسكون الواو) ، وهو الرجوع .

والفرق بينهما : قيل هما مترادفان بمعنى واحد . وقيل : التفسير أعمّ من التأويل ، ويستعمل التفسير فى الألفاظ ، والتأويل فى المعانى ، أو التفسير - بمعنى الكشف والبيان يرجع إلى الرواية ، والتأويل يرجع إلى الدراية ، وملحوظ فيه ترجيح أحد محتملات اللفظ بالدليل بمعرفة أساليب اللغة ومفرداتها .

والتأويل - عند المتأخرين : هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح ، إلى المعنى المرجوح ؛ لدليل يقترن به .

*** مصادر التفسير :**

مصادر التفسير هى : القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة ، والنقل عن الصحابة والتابعين ، والأخذ بمطلق اللغة للعليم بها ، ومعانى الكلام .

● تقديم بين يدى التفسير :

أذكر هنا فى عجالة معنى : علم التفسير ، وبعض أنواعه ، ولماذا دخلت الإسرائيليات بعضها ، وغرض المفسر ، وما هو واضح جلى فى القرآن الكريم - وما يحتاج إلى علم المتخصصين ؛ لأن القرآن لم يفسر أول الأمر كاملا بعد نزوله ، وإنما كانت أسئلة إذا غمض شىء ، والباقى إذا فهمه العرب من لغتهم فيكفيهم ، وبقى فى القرآن إشارات لأزمان لاحقة تنكشف على يديهم بعلمهم الحديث ، وما استأثر الله تعالى به ، نفوض فيه إلى الله ، لأن القرآن عطاء لكل القرون . . وبهذا التقديم نفهم مكانة ابن القيم ، ومن سبقه ومن جاء بعده .

* *

* التفسير علم يبحث عن بيان معانى القرآن الكريم ، وما يستفاد منه باختصار أو توسع .

وابتدأ اشتغال علماء المسلمين به قبل الاشتغال بأى علم آخر ، فى عهد النبى ﷺ ، لأنه من علوم الأصول .. ومن العلوم المحمودة ، ويشتمل على بيان أصول التشريع وكلياته .

وكان علمًا ؛ لأن مباحثه تؤدى إلى استنباط علوم كثيرة ، وقواعد كلية .

يقول الإمام الغزالى - رحمه الله - العلوم المحمودة أربعة ، وهى :

(أ) الأصول ، وهى : القرآن ، والسنة ، والإجماع .

(ب) الفروع ، وهى : ما فهم من الأصول ، مثل الفقه ، وأحوال القلوب.

(جـ) والمقدمات : وهى : النحو ، واللغة .

(د) والمتممات ، وهى : تفسير القرآن ، والسُّنَّة ، والآثار ، والقراءات ، وأحوال الرجال .

* *

● من أنواع التفاسير :

التفاسير كثيرة : منها السلفى أو المأثور ، والتفسير بالرأى ، والأحكام ، والبلاغى ، والإشارى ، والعلمى .. إلخ .

(أ) **التفسير السلفى** : بمعنى ما أثر عن السلف الصالح ، مثل تفسير مالك ابن أنس ، والطبرى ، وابن كثير ، والذودى تلميذ السيوطى ... رحمهم الله تعالى .

والمراد بالسَّلَف الصالح من عاشوا فى القرون الثلاثة الأولى ، من أهل الفضل والعلم والتقى ، ومن تبعهم بإحسان ، وحظ تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه ابن القيم فى هذا النوع كبير وعظيم ، ولهما إسهام بالتفسير بالرأى عن علم وبصيرة لبصرهما بعلوم اللغة العربية وبلاغتها .

(ب) **والتفسير بالرأى** : وهى تفاسير من سلك مسلك الرأى والنظر ، مثل تفسير الزجاج ، وأبى على الفارسى ، وقد دخلت الإسرائيليات فى تفاسيرهم [1] . . حتى أتى الزمخشرى ، فنقاها من الإسرائيليات فى « كشافه » .

وابن عطية فى تفسيره « المحرر الوجيز » ، ومن حذا حذوهم . . إلا أن البلاغة غلبت فى كشاف الزمخشرى .

(جـ) **وتفسير الأحكام والتشريع والفقه** : عند عبد الحق بن عطية ، فى « المحرر الوجيز » . . رحمهم الله وجزاهم عنًا خير الجزاء .

(د) **والتفاسير العلمية** : مثل تفسير الشيخ طنطاوى رحمه الله ، ومن حذا حذوه ، ولنأخذ حذرنا من هذه التفاسير ؛ لأن العلم كل يوم يأتى بجديد ، ونظرياته لا يستقر لها قرار ، وكشوفه لا تنتهى .

وشروط المفسر : صحة الاعتقاد ، والتجرد عن الهوى ، ومراعاة التفسير السَّلَفى ؛ لأن أصحابه أعلم بمراد الشريعة ، وبأقوال النبى ﷺ وصحابته وتابعيهم ،

---

(١) أظن أن السبب فى دخول الإسرائيليات فى التفسير : هى محنة المسلمين فى هجوم المغول على البلاد الإسلامية ، وإلقاء المكتبة النادرة فى بغداد إلى النهر ، وفرار علماء المسلمين إلى مصر بدون كتبهم ، وصادف ذلك أيضًا محنة المسلمين فى بلاد الأندلس ، بعد أن نشروا الحضارة والإنسانية فى أوروبا وأسبانيا ، ففر العلماء والحكماء والأدباء إلى المغرب أو إلى مصر . . وصار العلماء يؤلفون ما عرفوه ويعيدون ما خلفوه بدون مراجع مهمة وميسورة كالتى كانت فى مكتبةبغداد والأندلس . . واعتمدوا على الذاكرة والمحفوظ والمسموع ، فاستعان بعضهم بما وجد وما سمع من علماء بنى إسرائيل . . فدخل فى بعض التفسير إسرائيلياتهم ، وما احتوته كتبهم .

والمسلمون اليوم بحاجة إلى نهضة قوية وشاملة لغربلة كل ذلك ، لحفظ التراث وتنقيته وتجليته . . . وليظهر الوجه المشرق السليم والصحيح والمشرف لذخائر المسلمين والعرب .

ولم ترج سوق الآداب واللُّغة وعلومها وقتذاك ؛ لأن الشعوب الإسلامية كانت وقتئذ فى ظلام وتأخر . . وحكامها معظمهم من الأعاجم .

والعلم بأصول العلوم المتصلة بالقرآن ، ودقة الفهم ، وسعة الإطلاع ، والتبحر فى العربية . . ولابن القيم حظ كبير فى ذلك .

(هـ) وهناك تفاسير يجب أن تجتنب ويحذر منها ، مثل :

تفاسير أهل الباطن ، والتفسير بالرمز والإشارة ، وما فيه لبس وعدم فهم ، مثل : تفسير القلب بفرعون ، وأن الأعراف (مقر أهل المعارف) ، ومثل : (لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة) : بأن البيت هو القلب ، والكلب والصورة : هى الصفات الرديئة كالغضب والشهوة ، والحسد والحقد والعجب وكلها كلاب نابحة . . .

وكل ذلك - لا شك - يؤدى إلى اللبس ، فتركه أولى وأفضل ؛ لأن كل الناس ليسوا أذكياء ، وما ذكر يوقع فى لبس ، وتقعر لا طائل تحته .

* *

● هل التفسير علم ؟ :

نعم هو علم ؛ لأنه يشتمل على علوم كثيرة وقواعد كلية : فللقرآن إشارات إلى الحكم والعلوم ، فلا بأس بأن يفسر بها إعلاء لشأن القرآن الكريم .

ويذكر صاحب تفسير (التحرير والتنوير) : أن علاقة العلوم بالقرآن على أربع مراتب :

(أ) علوم تضمنها القرآن ، كأخبار الأنبياء والأمم السابقين ، وتهذيب الأخلاق ، والفقه ، والاعتقاد ، والتشريع ، والأصول ، والعربية وعلومها .

(ب) علوم تزيد المفسر علمًا : كالحكمة ، والهيأة ، وخواص المخلوقات .

(جـ) علوم أشار إليها أو جاءت مؤيدة له ، كعلم طبقات الأرض ، والطب والمنطق .

(د) علوم لا علاقة لها به ؛ إمّا لبطلانها : كالزجر والعيافة والميثولوچيا

(كالتطيّر والتشاؤم والتنجيم والخرافات والأساطير) ، وإما لأنها لا تعين على خدمته كعلم العروض والقوافى .

* *

● غرض المفسر :

غرض المفسر للقرآن الكريم فى إيجاز هو :

إصلاح الاعتقاد ، والتعليم الصحيح ، وبيان التشريع ، وتهذيب الأخلاق ، وسياسة الأُمم ، وقصص الأنبياء السابقين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - وأممهم ؛ للتأسى وأخذ العبرة ، والتعليم بما يناسب حال الأُمم فى أزمانها ، وللوعظ والإنذار والتبشير ، وبيان الإعجاز ؛ لإثبات صدق الرسول والرسالة .

* *

● إشارات القرآن إلى الحكم والعلوم :

أشار القرآن الكريم إلى الحكم والعلوم ؛ لفتًا للنظر ، وحثًّا على التقدم والبحث العلمى الدينى والمدنى ، لما فيه خير البشرية ورقي الحياة والأحياء ... مثل :

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ (١) ، ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (٢) ، وفى الاقتصاد آية الدين والرهن (٣) ، وقوله تعالى : ﴿ كَيْلَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ (٤) ، والجاذبية واختلالها : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ .. ﴾ (٥) ، وقضية خلق الإنسان (٦) ، وأحكام سليمان وداود عليهما السلام (٧) ، وقصة موسى مع

---

(١) الذاريات : ٤٧ ، ٤٨ (٢) البقرة : ٢٦٩ (٣) البقرة : ٢٨٢ ، ٢٨٣
(٤) الحشر : ٧ (٥) التكوير : ١ - ٧ (٦) المؤمنون : ١٢ - ١٦
(٧) الأنبياء : ٧٨ ، ٧٩

الخضر عليهما السلام (١) ، والسماء والأفلاك (٢) ، وطبقات الجو (٣) ، وخلق الجنين (٤) ، ومبدأ خلق السموات والأرض (٥) . .

وبعض المفسرين منع ذلك ، وبعضهم بالغ ، وبعضهم توسط .

يقول رحمه الله :

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِّنْ رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٦) ، ذكر سبحانه هذا القسم عقيب ذكر القيامة الكبرى ، وأقسام الخلق فيها ، ثم ذكر الأدلة القاطعة على قدرته ، وعلى المعاد بالنشأة الأولى ، وإخراج النبات من الأرض ، وإنزال الماء من السماء ، وخلق النار ، ثم ذكر بعد ذلك أحوال الناس فى القيامة الصغرى عند مفارقة الروح للبدن ، وأقسم بمواقع النجوم على ثبوت القرآن ، وأنه تنزيله .

* *

● مواقع النجوم :

وقد اختلف فى النجوم التى أقسم بمواقعها ، فقيل : هى آيات القرآن ، ومواقعها : نزولها شيئًا بعد شىء . . وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما ، فى رواية عطاء ، وقول سعيد بن جبير ، والكلبى ، ومقاتل ، وقتادة .

وقيل : النجوم هى الكواكب ، ومواقعها : مساقطها عند غروبها . . هذا قول أبى عبيدة وغيره .

وقيل : مواقعها انتشارها وانكدارها يوم القيامة ، وهذا قول الحسن ، ومن حجة هذا القول أن لفظ مواقع تقتضيه ؛ فإنه مفاعل من الوقوع ، وهو

---

(١) الكهف : ٦٠ - ٨٢ (٢) فصلت : ٩ - ١٢ (٣) الأنعام : ١٢٥

(٤) العلق : ٢ ، والطارق : ٥ - ٧ (٥) الملك : ٣ - ٥ (٦) الواقعة : ٧٥ - ٨٠

السقوط ؛ فلكل نجم موقع وجمعها مواقع .. ومن حجة قول من قال هى مساقطها عند الغروب ؛ أن الرب تعالى يقسم بالنجوم وطلوعها وجريانها وغروبها ؛ إذ فيها وفى أحوالها الثلاث آية وعبرة ودلالة كما تقدم فى قوله تعالى : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ (٣) ، ويرجح هذا القول أيضًا أن النجوم حيث وقعت فى القرآن : فالمراد منها الكواكب ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ (٤) ، وقوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ .... ﴾ (٥) .

* *

● النجوم والقرآن :

وعلى هذا ، فتكون المناسبة بين ذكر النجوم فى القسم ، وبين المقسم عليه ، وهو القرآن من وجوه :

* أن النجوم جعلها الله يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، وآيات القرآن يهتدى بها فى ظلمات الجهل والغى : فتلك هداية فى الظلمات الحسية ، وآيات القرآن فى الظلمات المعنوية ، فجمع بين الهدايتين .

* مع ما فى النجوم من الرجوم للشياطين ، وفى آيات القرآن من رجوم شياطين الإنس والجن .

* والنجوم آياته المشهودة المعاينة ، والقرآن آياته المتلوة السمعية .

* مع ما فى مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول .

---

(١) التكوير : ١٥ ، ١٦ — (٢) النجم : ١ — (٣) المعارج : ٤٠

(٤) الطور : ٤٩ — (٥) الأعراف : ٥٤

* ومن قرأ (بموقع النجوم) على الإفراد ، فلدلالة الواحد المضاف إلى الجمع على التعدد ، والمواقع اسم جنس ، والمصادر إذا اختلفت جمعت ، وإذا كان النوع واحدًا أفردت ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ (١) فجمع الأصوات لتعدد النوع ، وأفرد صوت الحمير لوحدته ، فإفراد موقع النجوم لوحدة المضاف إليه ، وتعدد المواقع لتعدده ؛ إذ لكل نجم موقع .

* *

● **المقسم عليه وسر الاعتراض هنا :**

والمقسم عليه ههنا قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ ووقع الاعتراض بين القسم وجوابه بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ ووقع الاعتراض بين الصفة والموصوف في جملة هذا الاعتراض بقوله تعالى :

﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ فجاء هذا الاعتراض في ضمن هذا الاعتراض ، ألطف شيء وأحسنه موقعًا .

وأحسن ما يقع هذا الاعتراض إذا تضمن : تأكيدًا ، أو تنبيهًا ، أو احترازًا ، كقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾(٢) ، فاعترض بين المبتدأ والخبر بقوله : ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ لما تضمنه ذلك من الاحتراز الدافع لتوهم متوهم : أن الوعد إنما يستحقه من أتى بجميع الصالحات ، فرفع ذلك بقوله : ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ .

وهذا أحسن من قول من قال : أنه خبر عن الذين آمنوا ، ثم أخبر عنهم بخبر آخر ، فهما خبران عن مخبر واحد ، فإن عدم التكليف فوق الوسع لا يخص الذين آمنوا ، بل هو حكم شامل فلجميع الخلق ، مع ما في هذا التقدير من إخلاء الخبر عن الرابط وتقدير صفة محذوفة أي نفسًا منهم ، وتعطيل هذه الفائدة الجليلة .

* *

---

(١) لقمان : ١٩ (٢) الأعراف : ٤٢

● أغراض الاعتراض البلاغية :

ومن ألطف الاعتراض وأحسنه ، قوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لله الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ (١) ، فاعترض بقوله (سبحانه) بين الجعلين (٢) .

وفوائد الاعتراض تختلف بحسب قصد المتكلم وسياق الكلام : من قصد الاعتناء والتقرير ، والتوكيد ، وتعظيم المقسم به ، والمخبر عنه ، ورفع توهم خلاف المراد ، والجواب عن سؤال مقدر وغير ذلك . . .

فمن الاعتراض الذى يقصد به التقرير والتوكيد قول الشاعر :

لو أن الباخلين - وأنت منهم - رأوك تعلموا منك المطـــالا

* ومما يقصد به الجواب عن سؤال مقدر قول الآخر :

فلا هجره يبدو - وفى اليأس راحة - ولا وصلــه يصفو لنا فنكارمـــه

فقوله : وفى اليأس راحة ، جواب لتقدير سؤال سائل ، وما يغنى عنك هجره ؟ ، فقال : وفى اليأس راحة ، أى المطلوب أحد أمرين : إما يأس مريح ، أو وصال صاف .

* ومن اعتراض الاحتراز قول الجعدى :

ألا زعمت بنو جعـــد بأنى - وقد كذبوا - كبير السن فانى

ومنه قول نصيب :

فكدت - ولم أخلق من الطير - إن بدا سـنا بارق نحو الحجاز أطيـــر

فقوله : ولم أخلق من الطير ، لرفع استفهام يتوجه عليه على سبيل الإنكار لو قال : فكدت أطير ؛ فيقال له : وهل خلقت من الطير ، فاحترز بهذا الاعتراض .

وعندى أن هذا الاعتراض يفيد غير هذا ، وهو قوة شوقه ونزوعه إلى أرض الحجاز ، فأخبر أنه كاد يطير ، على أنه أبعد شيء من الطيران ، فإنه

---

(١) النحل : ٥٧ (٢) جعل الله سبحانه وجعلهم .

لم يخلق من الطير ، ولا عجب طيران من خلق من الطير وإنما العجب طيران من لم يخلق من الطير لشدة نزوعه وشوقه إلي جهة محبوبه فتأمله .

* ومن مواقع الاعتراض الاعتراض بالدعاء كقول الشاعر :

قـد كنت أبكى وأنت راضيـــة   حـــذار هذا الصدود والغضـــب
إن تم ذا الهجــر يا ظلوم - ولا   تم - فما لى فى العيش من أرب

وقول الآخر :

إن سليمى - والله يكلؤها -   ضنت بشىء ما كان يرزؤها

وقول الآخر :

إن الثمـــــانين - وبلغتهـــــا -   قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

* ومنه الاعتراض بالقسم ، كقوله :

ذاك الذى - وأبيك - يعرف مالكًا   والحـــــق يدفع ترهات الباطل

* ومن اعتراض الاستعطاف قوله :

فمــــن لى بعين التى كنت مرة   إلى بها - نفسى فداؤك - تنظر

فاعترض بقوله : نفسى فداؤك ، استعطافًا .

* فتأمل حسن الاعتراض وجزالته فى قول الرب تعالى : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ - واللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ - قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ﴾ (١) ، فقوله تعالى : ﴿ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ اعتراض بين الشرط وجوابه أفاد أمورًا :

منها الجواب عن سؤال سائل : ما حكمة هذا التبديل وما فائدته . **ومنها** أن الذى بدل وأتى بغيره منزل محكم نزوله قبل الإخبار بقولهم . **ومنها** أن

(١) النحل : ١٠١

مصدر الأمرين عن علمه تبارك وتعالى وأن كلا منهما منزل فيجب التسليم ، والإيمان بالأول والثانى .

* ومن الاعتراض الذى هو فى أعلى درجات الحسن قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْه - حَمَلَته أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِى عَامَيْنِ - أن اشْكُرْ لِى وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ (١) ، فاعترض بذكر شأن حمله ووضعه بين الوصية والموصى به ، توكيدًا لأمر الوصية بالوالدة التى هذا شأنها ، وتذكيرًا لولدها بحقها ، وما قاسته من حمله ووضعه مما لم يتكلفه الأب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُم تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ (٢) فاعترض بقوله : ﴿ وَاللهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُم تَكْتُمُونَ ﴾ بين الجمل المعطوف بعضها على بعض ، إعلامًا بأن تدارؤهم وتدافعهم فى شأن القتيل ليس نافعًا لهم فى كتمانه : فالله يظهره ولا بد .

ولا تستطل هذا الفصل وأمثاله ؛ فإنه يعطيك ميزانًا ، وينهج لك طريقًا يعينك على فهم الكتاب ، والله المستعان .

* *

● وصف القرآن الكريم :

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ ، فوصفه بما يقتضى حسنه ، وكثرة خيره ، ومنافعه ، وجلالته ، فإن الكريم هو البهى الكثير الخير العظيم النفع ، وهو من كل شىء أحسنه وأفضله ، والله سبحانه وصف نفسه بالكرم ، ووصف به كلامه ، ووصف به عرشه ، ووصف به ما كثر خيره ، وحسن منظره من النبات ، وغيره ،

ولذلك فسر السَّلَفُ الكريمُ القرآنَ بالحُسن ، قال الكلبى : إنه لقرآن كريم ، أى حسن كريم على الله ، وقال مقاتل : كرمه الله وأعزه ؛ لأنه كلامه ، وقال

(١) لقمان : ١٤ (٢) البقرة : ٧٢

الأزهرى : الكريم اسم جامع لما يحمد ، والله كريم جميل الفعال ، وإنه لقرآن كريم يحمد ، لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة .

وبالجملة فالكريم الذى من شأنه أنه يعطى الخير الكثير بسهولة ويسر . وضده اللئيم الذى لا يخرج خيره النزر إلا بعسر وصعوبة ، وكذلك الكريم فى الناس واللئيم .

* *

● الكتاب المكنون :

ثم قال تعالى : ﴿ فِى كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ اختلف المفسرون فى هذا ، فقيل : هو اللوح المحفوظ ، والصحيح أنه الكتاب الذى بأيدى الملائكة ، وهو المذكور فى قوله تعالى : ﴿ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِى سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ (١) ويدل على أنه الكتاب الذى بأيدى الملائكة قوله تعالى : ﴿ لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ فهذا يدل على أنه بأيديهم يمسونه ، وهذا هو الصحيح فى معنى الآية ، ومن المفسرين من قال : إن المراد به أن المصحف لا يمسه إلا طاهر .

والأول أرجح لوجوه :

(أحدها) : أن الآية سيقت تنزيهاً للقرآن أن تنزل به الشياطين ، وأن محله لا يصل إليه فيمسه إلا المطهرون ، فيستحيل على أخابث خلق الله وأنجسهم أن يصلوا إليه أو يمسوه ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ (٢) ، فنفى الفعل وتأتيه منهم وقدرتهم عليه ، فما فعلوا ذلك ولا يليق بهم ، ولا يقدرون عليه ، فإن الفعل قد ينتفى عمن يحسن منه ، وقد يليق بمن لا يقدر عليه ، فنفى عنهم الأمور الثلاثة ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِى سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾(٣)

(١ ، ٣) عبس : ١٣ - ١٦ (٢) الشعراء : ٢١٠ - ٢١١

فوصف محله بهذه الصفات بيانًا أن الشيطان لا يمكنه أن يتنزل به ، وتقرير هذا المعنى أهم وأجل وأنفع من بيان كون المصحف لا يمسه إلا طاهر .

(الوجه الثانى) : أن السورة مكية ، والاعتناء فى السور المكية إنما هو بأصول الدين ، من تقرير التوحيد والمعاد والنبوة ، وأما تقرير الأحكام والشرائع فمظنة السور المدنية .

(الثالث) : أن القرآن لم يكن فى مصحف عند نزول هذه الآية ، ولا فى حياة رسول الله ﷺ ، وإنما جمع فى المصحف فى خلافة أبى بكر ، وهذا وإن جاز أن يكون باعتبار ما يأتى ، فالظاهر أنه إخبار بالواقع حال الإخبار يوضحه .

(الوجه الرابع) : وهو قوله تعالى : ﴿ فِى كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ والمكنون المصون المستور عن الأعين الذى لا تناله أيدى البشر ، كما قال الله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ [1] ، وهكذا قال السلف . قال الكلبى : مكنون من الشياطين ، وقال مقاتل : مستور ، وقال مجاهد : لا يصيبه تراب ولا غبار . وقال أبو إسحق : مصون فى السماء يوضحه .

(الوجه الخامس) : أن وصفه بكونه مكنونًا نظير وصفه بكونه محفوظًا فقوله تعالى : ﴿ قُرْآنٌ كَرِيمٌ فِى كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [2] يوضحه .

(الوجه السادس) : أن هذا أبلغ فى الرد على المكذبين ، وأبلغ فى تعظيم القرآن ، من كون المصحف لا يمسه محدث .

(الوجه السابع) : قوله تعالى : ﴿ لا يَمَسُّهُ إلا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ بالرفع فهذا خبر لفظًا ومعنى ، ولو كان نهيًا لكان مفتوحًا ، ومن حمل الآية على النهى احتاج إلى صرف الخبر عن ظاهره ، إلى معنى النهى ، والأصل فى الخبر والنهى

---

(١) الصافات : ٤٩ (٢) البروج : ٢٢

حمل كل منهما على حقيقته ، وليس ههنا موجب يوجب صرف الكلام عن الخبر إلى النهى .

(الوجه الثامن) : أنه قال تعالى : ﴿ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ ، ولم يقل إلا المتطهرون .

ولو أراد به منع المحدث من مسه لقال إلا المتطهرون . كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (١) ، وفى الحديث : « اللَّهُمَّ اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين »(٢) ، فالمتطهر فاعل التطهير ، والمطهر الذى طهره غيره ، فالمتوضئ متطهر ، والملائكة مطهرون .

(الوجه التاسع) : أنه لو أريد به المصحف الذى بأيدينا لم يكن فى الإخبار عن كونه مكنونًا كبير فائدة ، إذ مجرد كون الكلام مكنونًا فى كتاب ، لا يستلزم ثبوته ، فكيف يمدح القرآن بكونه مكنونًا فى كتاب ، وهذا أمر مشترك ، والآية إنما سيقت لبيان مدحه وتشريفه ، وما اختص به من الخصائص ، التى تدل على أنه منزل من عند الله ، وأنه محفوظ مصون ، لا يصل إليه شيطان بوجه ما ، ولا يمس محله إلا المطهرون ، وهم السفرة الكرام البررة .

(الوجه العاشر) : ما رواه سعيد بن منصور فى سننه حدثنا أبو الأحوص ، حدثنا عاصم الأحول ، عن أنس بن مالك ، فى قوله تعالى : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ قال : المطهرون الملائكة .. وهذا عند طائفة من أهل الحديث فى حكم المرفوع ، وقال الحاكم : تفسير الصحابة عندنا فى حكم

---

(١) البقرة : ٢٢٢

(٢) رواه الترمذى عن أبى إدريس الخولانى ، عن عمر ، عن النبى ﷺ قال : « من توضأ فأحسن الوضوء ، ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين ، فتحت له ثمانية أبواب الجنة ، يدخل من أيها شاء » ، قال الترمذى : وهذا حديث فى إسناده اضطراب ، ولا يصح عن النبى ﷺ فى هذا الباب كثير شىء ، قال البخارى : أبو إدريس لم يسمع من عمر شيئًا اهـ .

المرفوع ، ومن لم يجعله مرفوعًا فلا ريب أنه عنده أصح من تفسير من بعد الصحابة ، **والصحابة أعلم الأمة بتفسير القرآن** . ويجب الرجوع إلى تفسيرهم ، وقال حرب فى مسائله : سمعت إسحق فى قوله : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ قال : النسخة التى فى السماء لا يمسها إلا المطهرون ، قال : الملائكة .

وسمعت شيخ الإسلام [1] يقرر الاستدلال بالآية على أن المصحف لا يمسه المحدث بوجه آخر ، فقال : هذا من باب التنبيه والإشارة ، إذا كانت الصحف التى فى السماء لا يمسها إلا المطهرون ، فكذلك الصحف التى بأيدينا من القرآن لا ينبغى أن يمسها إلا طاهر ، والحديث مشتق من هذه الآية .

وقوله : « لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر » رواه أهل السنن من حديث الزهرى ، عن بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، عن أبيه ، عن جده ، أن فى الكتاب الذى كتبه النبى ﷺ إلى أهل اليمن فى السنن ، والفرائض ، والديات : « أن لا يمس القرآن إلا طاهر » ، قال أحمد : أرجو أن يكون صحيحًا ، وقال أيضًا : لا أشك أن رسول الله ﷺ كتبه ، وقال أبو عمر بن عبد البر : هو كتاب مشهور عند أهل السير ، معروف عند أهل العلم . معرفة يستغنى بشهرتها عن الإسناد ؛ لأنه أشبه التواتر فى مجيئه ، لتلقى الناس له بالقبول والمعرفة ، ثم قال : وهو كتاب معروف عند العلماء وما فيه فمتفق عليه إلا قليلاً ، وقد رواه ابن حبان فى صحيحه ، ومالك فى موطئه ، وفى المسألة آثار أخر مذكورة فى غير هذا الموضع .

* *

● القلوب الطاهرة تفهم القرآن ويلامسها ، وغير الطاهرة بعيدة عن ذلك :

ودلت الآية بإشارتها وإيمائها على أنه لا يدرك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة ، وحرام على القلب المتلوث ، بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه وأن يفهمه كما ينبغى ، قال البخارى فى صحيحه فى هذه الآية :

---

(١) ابن تيمية شيخه .

لا يجد طعمه إلا من آمن به ، وهذا أيضًا من إشارة الآية وتنبيهها :

وهو أنه لا يلتذ به وبقراءته ، وفهمه وتدبره إلا من شهد أنه كلام الله ، تكلم بها حقًا ، وأنزله على رسوله وحيا .

ولا ينال معانيه إلا من لم يكن فى قلبه حرج منه بوجه من الوجوه :

فمن لم يؤمن بأنه حق من عند الله ففى قلبه منه حرج ، ومن لم يؤمن بأن الله سبحانه تكلم به وحيا وليس مخلوقًا من جملة مخلوقاته ، ففى قلبه منه حرج .

ومن قال : إن له باطنًا يخالف ظاهره ، وإن له تأويلاً يخالف ما يفهم منه ، ففى قلبه منه حرج .

ومن قال : إن له تأويلاً لا نفهمه ولا نعلمه ، وإنما نتلوه متعبدين بألفاظه ، ففى قلبه منه حرج .

ومن سلط عليه آل الآرائيين ، وهذيان المتكلمين [١] ، وسفسطة السفسطين [٢] ، وخيالات المتصوفين [٣] ، ففى قلبه منه حرج .

ومن جعله تابعًا لنحلته ومذهبه ، وقول من قلده دينه ، ينزله على أقواله ، ويتكلف حمله عليها ، ففى قلبه منه حرج .

ومن لم يحكمه ظاهرًا وباطنًا فى أصول الدين وفروعه ، ويسلم وينقاد لحكمه أين كان ، ففى قلبه منه حرج .

ومن لم يأتمر بأوامره ، وينزجر عن زواجره ، ويصدق جميع أخباره ، ويحكم أمره ونهيه وخبره ، ويرد له كل أمر ونهى وخبر خالفه . ففى قلبه منه حرج .

---

(١) الآرائيين : أصحاب الآراء الفاسدة ، والمتكلمين : أصحاب القول فى العقيدة بلا علم .

(٢) أباطيل المتفلسفين . (٣) المبالغين بلا حد معقول أو مقبول .

وكل هؤلاء لم تمس قلوبهم معانيه ، ولا يفهمونه كما ينبغى أن يفهم ، ولا يجدون من لذة حلاوته وطعمه ما وجده الصحابة ومن تبعهم .

* وأنت إذا تأملت قوله : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ وأعطيت الآية حقها من دلالة اللفظ وإيمائه وإشارته وتنبيهه ، وقياس الشيء على نظيره ، واعتباره بمشاكله وتأملت المشابهة التى عقدها الله سبحانه وربطها بين الظاهر والباطن – فهمت هذه المعانى كلها من الآية . . وبالله التوفيق .

* *

● فائدة التأكيد والتقرير :

ثم أكد ذلك وقرره وأطده بقوله تعالى : ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وكما أنه لازم لكونه قرآنًا كريمًا فى كتاب مكنون فهو ملزوم له ، فهو دليل عليه مدلول له .

* وأفاد كونه تنزيلاً من رب العالمين مطلوبين عظيمين من أجلِّ مطالب الدين :

(أحدهما) : أنه المتكلم ، وأنه منه نزل ، ومنه بدأ وهو الذى تكلم به . ومن هنا قال السَّلَف : منه بدأ ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَلَكِن حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّى ﴾ (1) وقوله تعالى : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ ﴾ (2) .

(والثانى) : علو الله سبحانه فوق خلقه ، فإن النزول والتنزيل الذى تعقله العقول ، وتعرفه الفطر – هو وصول الشيء من أعلا إلى أسفل ، والرب تعالى إنما يخاطب عباده بما تعرفه فطرهم ، وتشهد به عقولهم ، وذكر التنزيل مضافًا إلى ربوبيته للعالمين المستلزمة تملكه لهم ، وتصرفه فيهم ، وحكمه عليهم ، وإحسانه وإنعامه عليهم ، وأن من هذا شأنه مع الخلق كيف يليق به

---

(1) السجدة : ١٣ (2) النحل : ١٠٢

مع ربوبيته التامة أن يتركهم سدى ، ويدعهم هملاً ، ويخلقهم عبثًا ، لا يأمرهم ولا ينهاهم ، ولا يثيبهم ولا يعاقبهم ؟؟ فمن أقر بأنه رب العالمين أقر بأن القرآن تنزيله على رسوله ، واستدل بكونه رب العالمين على ثبوت رسالة رسوله ، وصحة ما جاء به .

وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق ، وإن كانت دلالتها أقرب إلى أذهان عموم الناس ، وتلك إنما تكون لخواص العقلاء .

وقد أشار سبحانه إلى الطريقين في غير موضع من كتابه . كقوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ ﴾ (١) ، فهذا استدلال بالآيات المعاينة المخلوقة ، ثم قال سبحانه : ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٢) فهذا استدلال بكمال ربوبيته وكمال أوصافه على صدق رسوله فيما جاء به ، وهذه الطريق أخص وأقوى وأكمل وأعلى ، والأول أعم وأشمل ، وقد تقدم بيانها عند قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴾ (٣) ، وأين الاستدلال بأوصاف الرب تعالى وكماله المقدس على ثبوت النبى وبعثه ، من الاستدلال عليه ببعض مخلوقاته ؟!

* وتأمل فرق ما بين استدلال سيدة نساء العالمين خديجة رضى الله عنها بصفات الرب تعالى ، وصفات محمد ﷺ ، واستنتاجها من بين هذين الأمرين صحة نبوته ، وأنه رسول الله حقًا ، وأن من كانت هذه صفات ربه ، وخالقه تأبى أن يخزيه ، وأنه يؤيده ، ويعليه ، ويتم نعمته عليه (٤) .

(١ ، ٢) فصلت : ٥٣ (٣) الحاقة : ٤٤ .

(٤) روى البخارى فى بدء الوحى من حديث عائشة رضى الله تعالى عنها : فرجع بها ﷺ يرجف ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها ، فقال : « زملونى زملونى » فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة - وأخبرها الخبر - « لقد خشيت على نفسى » ، فقالت : كلا والله ما يخزيك الله أبدًا ؛ إنك لتصل الرحم وتحمل الكَلَّ ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

* وأنت إذا تأملت هذه الطريقة وهذا الاستدلال وجدت بينها وبين طريقة المتكلمين من الفرق ما لا يخفى . وإذا حصل للعبد الفقه فى **الأسماء والصفات** انتفع به فى باب معرفة الحق والباطل من الأقوال ، والطرائق والمذاهب والعقائد - أعظم انتفاع ، وأتمه ، وقد بينا فى كتابنا المعالم (١) بطلان التحيل وغيره من الحيل ، الربوبية من أسماء الرب وصفاته ، وأنه يستحيل على الحكيم أن يحرم الشيء ويتوعد على فعله بأعظم أنواع العقوبات، ثم يبيح التوصل إليه بنفسه بأنواع التحيلات ، فأين ذلك الوعد الشديد وجواز التوصل إليه بالطريق البعيد ؛ إذ ليست حكمة الرب تعالى ، وكمال علمه وأسمائه وصفاته ، تنتقض بإحالة ذلك وامتناعه عليه ، فهذا استدلال **بالفقه الأكبر** فى الأسماء والصفات على الفقه العملى فى باب الأمر والنهى . وهذا باب حرام على الجهمى المعطل أن يلجه إلى الجنة ، حرام عليه ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسين ألف سنة ، والله العزيز الوهاب لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، وبه التوفيق . أ هـ .

* * *

---

(١) كتاب « إعلام الموقعين » ، الذى لم يؤلف في أصول الدين مثله ، ولم ينسج أحد على منواله .

الفصل الثانى

نظرات فى قول الله تعالى :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ (التكوير : ١٥ - ٢٢) .

فى هذا الفصل :

- الخنس ، والجوار الكنس ، وعسعسة الليل ، والصبح إذا تنفس .
- المقسم عليه هو رسول الوحى جبريل عليه السلام .
- وصف جبريل بخمس صفات زكية رفيعة .
- الاستشهاد باختيار الصحابة والتابعين .
- لله أن يقسم بما يشاء ، وليس لنا أن نقسم إلا بالله .
- لماذا اختار أن يكون التفسير بالنجوم ، ورد التفسير بالحيوانات ؟ وما أدلة ترجيحه لذلك ؟ ترجيحه لعشرة أدلة ارتآها .
- المقسم عليه هو القرآن الكريم كلام الله تعالى .
- الرسول هنا هو جبريل عليه السلام .

● القسم بالخنس والكنس وعسعسة الليل ، وتنفس النهار :

ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ (١) .

أقسم سبحانه بالنجوم فى أحوالها الثلاثة : من طلوعها ، وجريانها ، وغروبها ، هذا قول على ، وابن عباس ، وعامة المفسرين ، وهو الصواب (٢) .

والخنس جمع خانس ، والخنس الانقباض والاختفاء ، ومنه سمى الشيطان خناسًا ، لانقباضه وانكماشه حين يذكر العبد ربه ، ومنه قول أبى هريرة فانخنست (٣) .

والكنس جمع كانس ، وهو الداخل فى كناسه ، أى فى بيته ، ومنه تكنست المرأة إذا دخلت فى هودجها ، ومنه كنست الظباء ، إذا أوت إلى أكناسها .

والجوارى جمع جارية ، كغاشية وغواش . قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : النجوم تخنس بالنهار ، وتظهر بالليل . وهذا قول مقاتل وعطاء وقتادة وغيرهم .

قالوا : الكواكب تخنس بالنهار ، فتختفى ولا ترى ، وتكنس فى وقت

---

(١) التكوير : ١٥ - ١٨

(٢) لله سبحانه أن يقسم بما يشاء - لأنه الخالق المهيمن - على ما يشاء ، وليس لنا أن نقسم إلا بالله .

(٣) روى أحمد والبخارى ومسلم وأصحاب السنن عن أبى هريرة ، أن النبى ﷺ ، لقيه فى بعض طرق المدينة وهو جنب ، فانخنس منه فذهب فاغتسل ، ثم جاءه ، فقال له : « أين كنت يا أبا هريرة » ؟ فقال : كنت جنبًا ، فكرهت أن أجالسك وأنا على غير طهارة ، فقال ﷺ : « سبحان الله ، إن المؤمن لا ينجس » .

غروبها . ومعنى تخنس - على هذا القول - تتأخر عن البصر ، وتتوارى عنه بإخفاء النهار لها .

وفيه قول آخر ، وهو أن خنوسها رجوعها ، وهى حركتها الشرقية ، فإن لها حركتين : حركة بفعلها ، وحركة بنفسها ، فخنوسها حركتها بنفسها راجعة .

وعلى هذا : فهو قسم بنوع من الكواكب ، وهى السيارة ، وهذا قول الفراء .

وفيه قول ثالث : وهو أن خنوسها وكنوسها اختفاؤها وقت مغيبها ، فتغيب فى مواضعها التى تغيب فيها ، وهذا قول الزجاج .

* ولما كان للنجوم حال ظهور ، وحال اختفاء ، وحال جريان ، وحال غروب - أقسم سبحانه بها فى أحوالها كلها . ونبه بخنوسها على حال ظهورها لأن الخنوس هو الاختفاء بعد الظهور . ولا يقال لما لايزال مختفيًا : أنه قد خنس ، فذكر سبحانه جريانها وغروبها صريحًا ، وخنوسها وظهورها ، واكتفى من ذكر طلوعها بجريانها الذى مبدؤه الطلوع ، فالطلوع أول جريانها.

فتضمن القسم طلوعها ، وغروبها ، وجريانها ، واختفاءها ، وذلك من آياته ودلائل ربوبيته .

* *

● رد التفسير بالحيوانات :

وليس قول من فسرها بالظباء ، وبقر الوحش ، بالظاهر لوجوه :

(أحدها) : أن هذه الأحوال فى الكواكب السيارة أعظم آية وعبرة .

(الثانى) : اشتراك أهل الأرض فى معرفته بالمشاهدة والعيان .

(الثالث) : أن البقر والظباء ليست لها حالة تختفى فيها عن العيان مطلقًا ، بل لا تزال ظاهرة فى الفلوات .

(الرابع) : إن الذين فسروا الآية بذلك قالوا ليس خنوسها من الاختفاء ، قال الواحدى : هو من الخنس فى الأنف ، وهو تأخر الأرنبة وقصر القصبة ، والبقر والظباء أنوفهن خنس والبقرة خنساء ، والظبى أخنس . ومنه سميت الخنساء [1] لخنس أنفها ، ومعلوم أن هذا أمر خفى يحتاج إلى تأمل ، وأكثر الناس لا يعرفونه ، وآيات الرب التى يقسم بها لا تكون إلا ظاهرة جلية يشترك فى معرفتها الخلائق ، وليس الخنس فى أنف البقرة والظباء بأعظم من الاستواء ، والاعتدال فى أنف ابن آدم ، فالآية فيه أظهر .

(الخامس) : أن كنوسها فى أكنتها ليس بأعظم من دخول الطير وسائر الحيوانات فى بيته الذى يأوى فيه ولا أظهر منه ، حتى يتعين القسم .

(السادس) : أنه لو كان جمعًا للظبى لقال الخنس - بالتسكين - لأنه جمع أخنس ، فهو كأحمر وحمر ولو أريد به جمع بقرة خنساء لكان على وزن فعلاء أيضًا ، كحمراء وحمر فلما جاء جمعه على فعل - بالتشديد - استحال أن يكون جمعًا لواحد من الظباء والبقر ؛ وتعين أن يكون جمعًا لخانس ، كشاهد وشُهّد ، وصائم وصوم ، وقائم وقوم ، ونظائرها .

(السابع) : أنه ليس بالبين إقسام الرب تعالى بالبقر والغزلان ، وليس هذا عرف القرآن ولا عادته ، وإنما يقسم سبحانه من كل جنس بأعلاه ، كما أنه لما أقسم بالنفوس أقسم بأعلاها ، وهى النفس الإنسانية ، ولما أقسم بكلامه أقسم بأشرفه وأجله ، وهو القرآن ، ولما أقسم بالعلويات أقسم بأشرفها وهى السماء ، وشمسها وقمرها ، ونجومها . ولما أقسم بالزمان أقسم بأشرفه ، وهو الليالى العشر .

وإذا أراد سبحانه أن يقسم بغير ذلك أدرجه فى العموم ، كقوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [2] ، وقوله : ﴿ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ ﴾ [3] فى قراءة رسول الله ﷺ ونحو ذلك .

---

(١) هى تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمية الشاعرة الصحابية رضى الله عنها .

(٢) الحاقة : ٣٨ ، ٣٩ (٣) النجم : ٤٥

(والثامن) : أن اقتران القسم بالليل والصبح يدل على أنها النجوم ، وإلا فليس باللائق اقتران البقر والغزلان والليل والصبح فى قسم واحد ، وبهذا احتج **أبو إسحاق** على أنها النجوم . فقال : هذا أليق بذكر النجوم منه بذكر الوحش .

(التاسع) : أنه لو أراد ذلك سبحانه لبينه وذكر ما يدل عليه ، كما أنه لما أراد بالجوارى السفن ، قال سبحانه : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ (١) ، وهنا ليس فى اللفظ ولا فى السياق ما يدل على أنها البقر والظباء ، وفيه ما يدل على أنها النجوم من الوجوه التى ذكرناه وغيرها .

(العاشر) : أن الارتباط الذى بين النجوم التى هى هداية للسالكين ورجوم للشياطين ، وبين المقسم عليه - وهو القرآن ، الذى هو هدى للعالمين ، وزينة للقلوب ، وداحض لشبهات الشيطان - أعظم من الارتباط الذى بين البقر والظباء والقرآن ، والله أعلم .



● عسعسة الليل :

واختلف فى عسعسة الليل ، هل هى إقباله أم إدباره (٢) .

فالأكثرون على أن عسعس بمعنى ولى وذهب وأدبر . هذا قول **على** ، **وابن عباس وأصحابه** قال الحسن : أقبل بظلامه ، وهو إحدى الروايتين عن **مجاهد.**

فمن رجح **الإقبال** قال :

أقسم الله سبحانه وتعالى بإقبال الليل وإقبال النهار ، فقوله : ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ مقابل لليل إذا عسعس . قالوا : ولهذا أقسم الله بـ ﴿ اللَّيْلِ إِذَا

---

(١) الرحمن : ٢٤

(٢) لفظ عسعس من الأضداد ، راجع كتابنا « المشترك اللفظى » نشر مكتبة وهبة .

يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ (١) ، وبالضحى . قالوا : فغشيان الليل نظير عسعسته ، وتجلى النهار نظير تنفس الصبح ، إذ هو مبدؤه ، وأوله .

ومن رجح أنه إدباره احتج بقوله تعالى : ﴿ كَلَّا وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴾ (٢) ، فأقسم بإدبار الليل وإسفار الصبح ، وذلك نظير عسعسة الليل ، وتنفس الصبح ، قالوا : والأحسن أن يكون القسم بانصرام الليل ، وإقبال النهار ، فإنه عقيبه من غير فصل ، فهذا أعظم فى الدلالة والعبرة ، بخلاف إقبال الليل وإقبال النهار ، فإنه لم يعرف القسم فى القرآن بهما ، ولأن بينهما زمنًا طويلاً . فالآية فى انصرام هذا ومجىء الآخر عقيبه بغير فصل أبلغ . فذكر سبحانه حالة ضعف هذا ، وإدباره ، وحالة قوة هذا وتنفسه ، وإقباله يطرد ظلمة الليل بتنفسه ، فكلما تنفس هرب الليل ، وأدبر بين يديه . وهذا هو القول ، والله أعلم .

* *

● المقسم عليه :

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه ، وهو القرآن ، وأخبر أنه قول رسول كريم ، وهو ههنا جبريل عليه السلام قطعًا ، لأنه ذكر صفته بعد ذلك بما يعينه به .

وأما الرسول الكريم فى الحاقة فهو : محمد ﷺ ؛ لأنه نفى بعده أن يكون قول من زعم من أعدائه أنه قوله . فقال سبحانه : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ، قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ ، قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣) ، فأضافه إلى الرسول الملكى (٤) تارة ، وإلى البشرى (٥) تارة ، وإضافته إلى

---

(١) الليل : ١ ، ٢ (٢) المدثر : ٣٢ - ٣٤ (٣) الحاقة : ٤١ ، ٤٢

(٤) هو جبريل عليه السلام (٥) هو محمد علية الصلاة والسلام

كل واحد من الرسولين إضافة تبليغ لا إضافة إنشاء من عنده ، وإلا تناقضت النسبتان .

ولفظ الرسول يدل على ذلك ، فإن الرسول هو الذى يبلغ كلام من أرسله . وهذا صريح فى أنه كلام من أرسل جبريل عليه السلام ، ومحمدًا ﷺ ، وأن كلا منهما بلغه عن الله ، فهو قوله مبلغًا ، وقول الله الذى تكلم به حقًا .

فلا راحة لمن أنكر أن يكون الله متكلمًا بالقرآن وهو كلامه حقًا فى هاتين الآيتين ، بل هما من أظهر الأدلة على كونه كلام الرب تعالى ، وأنه ليس للرسولين الكريمين منه إلا التبليغ ، فجبريل سمعه من الله ، ومحمد ﷺ سمعه من جبريل .

* ووصف رسوله الملكى فى هذه السورة بأنه كريم ، قوى ، مكين عند الرب تعالى ، مطاع فى السموات ، أمين (١) . .

* * *

---

(١) خمس صفات تتضمن التزكية والرفعة .

الفصل الثالث

يقول الله تعالى :

﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (*) .

(الذاريات : ٢١)

فى هذا الفصل :

● استعرض مبدأ الإنسان إلى نهايته .

● واستعرض أعضاء الإنسان ، وجميل صنع الله فيها .. في أسلوب أدبى علمى شيق ، تقوم أدلته على القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية الصحيحة .

● وأراحنا من خرافات (دارون) ومن لف لفه ، فكفى وشفى ، وأراح واستراح ، ورجح ما اطمأن إليه قلبه بالدليل ، وأنه الصحيح .

● ووفق بين الأحاديث إن تعارضت ، أو اضطرب سندها أو متنها ، وأبان صحيحها من سقيمها .. واستشهد بالصحيح .. ورد غيره .

● وأى الأعضاء خلق أولا فى جسد الإنسان ؟ ومتى تعلقت الروح بالجسد ؟ وسبب الإذكار والإيناث ، فشفى صدور قوم مؤمنين .. وأرضى الحيارى والغاضبين ، ومسح دموع الحزانى فى عدم إنجاب الذكور .

(*) راجع التبيان فى أقسام القرآن .

• وتعرض بإسهاب إلى مراتب التصوير والتخليق فى خلق ونمو الجنين ..

• حتى يصل إلى العظام والأعصاب والأوتار والشرايين والأوردة والأغشية واللحم فيثبت أن العظام كالأساس للبناء

• وتعقب قول الفلاسفة والعلماء والحكماء والأطباء وغيرهم - ورجح ما ذكره الله ورسوله .. ومن ود مزيد علم وبيان فى هذا الجانب فعليه بكتابه السالف .. ففيه شفاء لما فى الصدور والعقول .

وإنما ذكرنا شواهد فى هذا الكتاب - كغيرها فى فصول أخرى - لبيان عظمة الإمام ابن القيم ، ونبوغه ، وفضله ، وإشارات هادية إلى علمه ...

* *

قال الله تعالى :

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾

نذكر فصلاً مختصرًا فى حال الإنسان من مبدئه إلى نهايته لنجعله مرآة له ينظر فيها قول خالقه وبارئه ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾(١) .

لما اقتضى كمال الرب تعالى - جل جلاله - وقدرته التامة ، وعلمه المحيط ، ومشيئته النافذة ، وحكمته البالغة ، تنويع خلقه من المواد المتباينة ، وأنشاهم من الصور المختلفة ، والتباين العظيم بينهم فى المواد والصور ، والصفات ، والهيئات والأشكال والطبائع والقوى .

اقتضت حكمته سبحانه أن أخذ من الأرض قبضة من التراب ، ثم ألقى عليها الماء ، فصارت مثل الحمأ المسنون ، ثم أرسل عليها الريح فجففها ، حتى صارت صلصالاً كالفخار ، ثم قدر لها الأعضاء والمنافذ والأوصال والرطوبات ، وصورها فأبدع فى تصويرها ، وأظهرها فى أحسن الأشكال ، وفصلها أحسن تفصيل ، مع اتصال أجزائها ، وهيأ كل جزء منها لما يراد منه ، وقدره لما خلق له عن أبلغ الوجوه ، ففصلها فى توصيلها ، وأبدع فى تصويرها وتشكيلها ، والملائكة تراها ولا تعرف ما يراد منها ، وإبليس يطيف بها ، ويقول : لأمر ما خلقت ، فلما تكامل تصويرها ، وتشكيلها ، وتقدير أعضائها وأوصالها وصارت جسدًا مصورًا مشكلاً كأنه ينطق ، إلا أنه لا روح فيه ولا حياة . . أرسل إليه روحه ، فنفخ فيه نفخة ، وانقلب ذلك الطين لحمًا ودمًا وعظامًا وعروقًا وسمعًا وبصرًا وشمًا ولمسًا وحركة وكلامًا ، فأول

(١) الذاريات : ٢١

شيء بدأ به أن قال : « الحمد لله رب العالمين » ، فقال له خالقه وبارئه ومصوره : « يرحمك الله يا آدم » فاستوى جالسًا أجمل شيء ، وأحسنه منظرًا ، وأتمه خلقًا ، وأبدعه صورة .

فقال الرب تعالى لجميع ملائكته : ﴿ اسْجُدُوا لآدَمَ ﴾ فبادروا بالسجود ، تعظيمًا وطاعة لأمر الواحد المعبود ، ثم قال لهم : لنا فى هذه القبضة من التراب شرع أبدع مما ترون ، وجمال باطن أحسن مما تبصرون ، فلنزينن باطنه أحسنه من زينة ظاهره ، ولنجعلنه من أعظم آياتنا ، نعلمه أسماء كل شيء ، مما لا تحسنه الملائكة ، فكان التعليم زينة الباطن وجماله ، وذلك التصوير زينة الظاهر فى أكمل شيء ، وأجمله صورة ، ومعنى كل ذلك صنعته تبارك وتعالى فى قبضة من تراب .

ثم اشتق منه صورة هى مثله فى الحسن والجمال (حواء) ، ليسكن إليها وتقر نفسه ، وليخرج من بينهما من لا يحصى عدده من الرجال والنساء سواه .

* *

● تسلسل النسل :

ثم لما أراد الله سبحانه أن يذر نسلهما فى الأرض ويكثره ، وضع فيهما حرارة الشهوة ونار الشوق والطلب ، وألهم كلا منهما اجتماعه بصاحبه ، فاجتمعا على أمر قد قدر ، فاسمع الآن عجائب ما هناك :

لما شاء الرب تعالى أن يخرج نسخة هذا الإنسان منه أودع جسده حرارة ، وسلط عليه هيجانها ، فصارت شهوة غالبة ، فإذا هاجت حرارة الجسد تحللت الرطوبات من جميع أجزاء الجسد ، وابتدأت نازلة من خلف الدماغ ، من عروق خلف الأذنين إلى قفا الظهر ، ثم تخرج إلى الكليتين ، ثم تجتمع فى أوعية المنى ، بعد أن طبختها نار الشهوة ، وعقدتها حتى صار لها قوام وغلظ ، وقصرتها حتى ابيضت ، وقدر لها مجارى وطرق تنفذ فيها ، ثم اقتضت حكمته سبحانه أن قدر لخروجها أقوى الأسباب المستفرغة لها من خارج ومن داخل ، فقيض لها صورة حسنها فى عين الناظر ، وشوقه إليها ،

وساق أحدهما إلى الآخر بسلسلة الشهوة والمحبة ، فحن كل منهما إلى امتزاجه بصاحبه ، واختلاطه به ، ليقضى الله أمرًا كان مفعولاً . .

ثم يبين منشأ (المنى) ، وتخلقه وتركبه ، والخلاف فى ذلك ، ومن أين استلاله وتباينه مستشهدًا بالقرآن والسنة وقول الأطباء ، والفلاسفة ويناقشهم ويرد عليهم ، ويختار الأصوب فى رأيه . . فى نفس طويل لسنا بحاجة إليه فى هذه العجالة . . حتى يكتب الملك نوعه ، وشقاءه أو سعادته ، ورزقه وأجله فى بطن أمه .

إلى أن يقول : وأما قولكم : لو كان المنى مستلاً من جميع الأعضاء لكان الولد يتشكل بشكلهما معًا ، فقد أجاب النبى ﷺ ، عمن سأله عن ذلك بما شفى وكفى . .

ففى صحيح البخارى ، من حديث أنس رضى الله عنه قال :

بلغ عبد الله بن سلام مقدم رسول الله ﷺ المدينة ، وهو فى أرضه يخترف فأتاه ، وقال : إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى :

ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ ومن أى شىء ينزع الولد إلى أبيه ؟ ومن أى شىء ينزع إلى أخواله ؟ فقال رسول الله ﷺ :

« أخبرنى بهن آنفًا جبريل » .

فقال عبد الله : ذاك عدو اليهود من الملائكة .

أما أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت ، وأما الشبه فى الولد فإن الرجل إذا غشى المرأة فسبق ماؤه كان الشبه له .

فقال أشهد أنك رسول الله .

فهذا جواب جبريل أمين رب العالمين ، لا جبريل الطبيب .

وفى صحيح مسلم من حديث ثوبان عن النبى ﷺ : « إذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكر بإذن الله ، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل آنث بإذن الله » ، وقد

يتفق المآن فى الإنزال والقدر : وذلك من أندر الأشياء ، فيخلق للولد ذكر كذكر الرجل وفرج كفرج المرأة (هو الخنثى) ، فإذا شاء الله أن يغلب سلالة ماء الرجل على ماء المرأة أو سلالتها أمر ملك الأرحام بتصويره كذلك . فإن ذلك لا يخل بحكمته ولا يخرق عادته ، ولو خرقها لم يخل بحكمة أحكم الحاكمين .

ثم يذكر المشابهة فى الأعضاء ، والطباع والشعور والإحساس ومنشؤها . . ويثبت أن للمرأة منيًا ، مثل الرجل . . إلى أن يقول :

ذكر جالينوس فى التشنيع على أرسطاليس حين قال (لا ماء للمرأة) الشىء الكثير وأفاض فى الرد على أرسطاليس ، والأطباء من بعده فى اعتقادهم أنه لا ماء للمرأة فى نفس طويل ، مرجحًا أن لها منيًا . . يختزى منه ما يلى :

فإن قيل : فهذا تصريح منكم بأن المرأة لها منى ، وأن منها أحد الجزئين اللذين يخلق الله منهما الولد . وقد ظن طائفة من الأطباء أن المرأة لا منى لها .

قيل : هذا هو السؤال الذى أوردته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، وأم سلمة رضى الله عنها ، على النبى ﷺ ، وأجابهما عنه بإثبات منى المرأة :

ففى الصحيح : أن أم سليم رضى الله عنها قالت : يا رسول الله إن الله لا يستحى من الحق ، هل على المرأة من غسل إذا هى احتلمت ؟ قال : « نعم ، إذا رأت الماء » ، فقالت أم سلمة : أو تحتلم المرأة ؟ فقال : « تربت يداك ، فبم يشبهها ولدها ؟ »

وفيهما عن عائشة رضى الله عنها ، أن أم سليم رضى الله عنها ، سألت رسول الله ﷺ عن المرأة ترى فى منامها ما يرى الرجل ، هل عليها من غسل ؟ قال : « نعم ، إذا رأت الماء » ، قالت : فقلت له : أفترى المرأة ذلك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « وهل يكون الشبه إلا من ذلك ؟ إذا علا ماؤها ماء الرجل أشبه الولد أخواله . وإذا علا ماء الرجل ماءها أشبه أعمامه » هذا لفظ مسلم .

ثم يضرب صفحًا عن خيالات وشطحات بعضهم بعد أن يستعرضها

ويفندها فى كل ما هرفوا به ثم يذكر الحديث فيأتى كفلق الصبح .. وعن مراحل الخلق والتخليق يذكر ما جاء فى الصحيحين عن النبى المعصوم ﷺ : « إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يومًا ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث إليه الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع : يكتب رزقه وأجله ، وعمله وشقى أو سعيد » .

* *

وذكر بعض الأطباء كلامًا فى سبب تفاوت زمن الولادة .. ولم يعجب هذا ابن القيم .. فيذكره ويرد عليه : يقول بعض الأطباء : إذا تم تخليق الجنين فى مدة معينة .. فإنها إذا زاد عليها مثلها تحرك الجنين ، فإذا انضاف إلى المجموع مثلاه : انفصل الجنين ، قال : فإذا تم خلقه فى ثلاثين يومًا .

فإذا صار له ستون يومًا تحرك ، فإذا انضاف إلى الستين مثلاها ، صارت مائة وثمانين يومًا وهى ستة أشهر ، وهى مدة ينفصل لها الحمل ، وإذا تم خلقه فى خمسة وثلاثين يومًا تحرك لسبعين ، وانفصل لسبعة أشهر ، وإذا تم خلقه لأربعين تحرك لثمانين ، وانفصل لثمانية أشهر ، وإذا تم لخمسة وأربعين تحرك لتسعين ، وانفصل لتسعة أشهر . وعلى هذا الحساب أبدًا .

وهذا الذى ذكره هذا القائل يقتضى حركة الجنين قبل الأربعين ، وهذا خطأ قطعًا :

فإن الروح إنما تتعلق به بعد الأربعين الثالثة ، وحينئذ يتحرك ، فلا تثبت له حركة قبل مائة وعشرين يومًا ، وما يقدر من حركة قبل ذلك فليست حركة ذاتية اختيارية ، بل لعلها حركة عارضة بسبب الأغشية والرطوبات .

وما ذكره من الحساب لا يقوم عليه دليل ولا تجربة مطردة ، فربما زاد على ذلك أو نقص منه .

ولكن الذى نقطع به أن الروح لا تتعلق به إلا بعد الأربعين الثالثة ، وما يقدر من حركة قبل ذلك إن صحت لم تكن بسبب الروح . والله أعلم .

* *

● **مدة الحمل** : يزكى ما ذكره القرآن الكريم ، ويضرب صفحًا عن ترهات الفلاسفة فى أن امرأة ولدت ولدًا لمدة حمل هى ١٤٨ ليلة ، ويضرب صفحًا عن شطحات بعضهم فيما بلغه أن امرأة ولدت من نبتت له أسنان ، يقول :

وأما أقل مدة الحمل فقد تظاهرت الشريعة والطبيعة على أنها ستة أشهر ، قال تعالى : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ (٢)



● **سبب الإذكار والإيناث :**

ثم يتعرض لقضية تعرض للكثيرين فتؤرق مضاجعهم ، وتنغص حياتهم ، لعدم رضائهم بعطاء الله تعالى ، حتى يريحوا ويستريحوا ، فيقول :

فإن قيل : فما سبب الإذكار والإيناث ؟ **قيل** : الذى نختاره أن سببه **مشيئة الرب الفاعل باختياره ، وليس بسبب طبيعى** ، وكان ما ذكر أصحاب الطبائع من الأسباب فمنتقض ، مثل : حرارة الرجل ورطوبته ، قالوا : وفساد المزاج أيضًا يوجب إيلاد الإناث ، واستقامته توجب الإذكار .

وهذا **تخليط وهذيان** : فليس للإذكار والإيناث إلا قول الله لملك الأرحام ، وقد استأذن : (يا رب ذكر ، يا رب أنثى ؟ يا رب شقى أم سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟) ، والإذكار والإيناث ، قرين السعادة ، والشقاوة ، والرزق ، والأجل .

فإن قيل : فتلك أيضًا بأسباب ؟ **قلنا** : نعم ، ولكن بأسباب بعد الولادة ، ولا سبب للإذكار والإيناث قبل الولادة .

فإن قيل : فما تصنعون بحديث ثوبان الذى رواه مسلم فى صحيحه ، أن

---

(١) الأحقاف : ١٥ (٢) البقرة : ٢٣٣

يهوديًا سأل النبى ﷺ عن الولد ، فقال : « ماء الرجل أبيض ، وماء المرأة أصفر ، فإذا اجتمعا ، فعلا منى الرجل منى المرأة أذكر بإذن الله ، وإذا علا منى المرأة منى الرجل آنث بإذن الله » فقال اليهودى : صدقت ، وإنك لنبى .

قيل : هذا الحديث تفرد به مسلم فى صحيحه ، وقد تكلم فيه بعضهم ، وقال : الظاهر أن الحديث وهم فيه بعض الرواة ، وإنما كان السؤال عن الشبه ، وهو الذى سأل عنه عبد الله بن سلام فى الحديث المتفق على صحته ؛ فأجابه بسبق الماء ، فإن الشبه يكون للسابق ؛ فلعل بعض الرواة انقلب عليه شبه الولد بالمرأة بكونه أنثى ، وشبهه بالوالد بكونه ذكرًا ، لا سيما والشبه التام إنما هو بذلك .

* وقالت طائفة : الحديث صحيح لا مطعن فى سنده ، ولا منافاة بينه وبين حديث عبد الله بن سلام . **وليست الواقعة واحدة ، بل هما قضيتان** ، ورواية كل منهما غير رواية الأخرى .

فى حديث ثوبان قضية ضبطت وحفظت ، قال ثوبان : كنت قائمًا عند رسول الله ﷺ ، فجاء حبر من أحبار اليهود ، فقال : السلام عليك يا محمد . فدفعته دفعة كاد يصرع منها . فقال لى : لم تدفعنى ؟ فقلت : ألا تقول يا رسول الله ؟ فقال اليهودى : إنما ندعوه باسمه الذى سماه به أهله .

فقال رسول الله ﷺ : « إن اسمى محمدًا الذى سمانى به أهلى » ، فقال اليهودى : جئت أسألك . .

فقال رسول الله ﷺ : « أينفعك شىء إن حدثتك ؟ » ، قال : أسمع بأذنى فنكت رسول الله ﷺ بعود معه ، فقال اليهودى : أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال رسول الله ﷺ : « هم فى الظلمة دون الجسر » .

قال : فمن أول الناس إجازة ؟ قال : « فقراء المهاجرين » .

قال اليهودى : فما تحفتهم حتى يدخلوا الجنة ؟ قال : « زيادة كبد الحوت » .

قال : فما غذاؤهم على أثرها ؟ قال : « ينحر لهم ثور الجنة الذى يأكل من أطرافها » .

قال : فما شرابهم عليه ؟ قال : « من عين فيها تسمى سلسبيلاً » . قال : صدقت .

قال : وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد إلا نبيّ أو رجل أو رجلان . قال : « أينفعك إن حدثتك » ؟ . قال : أسمع بأذنى .

قال : جئت أسألك عن الولد . قال : « ماء الرجل أبيض ، وماء المرأة أصفر . فإذا اجتمعا ، فعلا منى الرجل منى المرأة أذكر بإذن الله ، وإذا علا منى المرأة منى الرجل آنث بإذن الله » . قال اليهودى : لقد صدقت ، وإنك لنبى ، ثم انصرف ، فذهب .

فقال رسول الله ﷺ : « لقد سألنى هذا الذى سألنى عنه ، وما لى علم به، حتى أتانى به الله » .

وأما حديث عبد الله بن سلام رضى الله عنه ، ففى صحيح البخارى ، عن أنس رضى الله عنه قال : بلغ عبد الله بن سلام مقدم رسول الله ﷺ المدينة ، فأتاه ، فقال : « إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى : ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ ومن أى شيء ينزع الولد إلى أبيه ، ومن أى شيء ينزع إلى أخواله ؟ فقال رسول الله ﷺ : «خبرنى آنفاً جبريل » ، فقال عبد الله ذاك عدو اليهود من الملائكة ، فقال : «أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب . وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت . وأما الشبه فى الولد فإن الرجل إذا غشى المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له . وإذا سبقت كان الشبه لها » .

قال : أشهد أنك رسول الله ، وذكر الحديث . . .

* فتضمن الحديثان أمرين ترتب عليهما الأثران معًا ، وأيهما انفرد ترتب عليه أثره :

فإذا سبق ماء الرجل وعلا أذكر وكان الشبه له . وإن سبق ماء المرأة وعلا آنث ، وكان الشبه لها . وإن سبق ماء المرأة وعلا ماء الرجل أذكر . وكان الشبه لها . ومع هذا كله فهذا جزء سبب ليس بموجب .

والسبب الموجب مشيئة الله : فقد يسبب بضد السبب ، وقد يرتب عليه ضد مقتضاه ، ولا يكون فى ذلك مخالفة لحكمته ، كما لا يكون تعجيزًا لقدرته، وقد أشار فى الحديث إلى هذا بقوله : « أذكر وأنث بإذن الله » ، وقد قال تعالى : ﴿ لله مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ، وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ، إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ (١) .

فأخبر سبحانه أن ذلك عائد إلى مشيئته وأنه قد يهب الذكور فقط ، والإناث فقط ، وقد يجمع للوالدين بين النوعين معًا ، وقد يخليهما عنهما معًا ، وأن ذلك كما هو راجع إلى مشيئته فهو متعلق بعلمه وقدرته . وقد وهب الله آدم الذكور والإناث ، وإسرائيل الذكور دون الإناث ، ومحمد ﷺ الإناث دون الذكور ، سوى ولده إبراهيم (٢) .

وقال سليمان عليه السلام : « لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ، تأتى كل امرأة منهن بغلام يقاتل فى سبيل الله ، فطاف عليهن فلم تلد منهن إلا امرأة واحدة ، جاءت بشق ولد .

قال النبى ﷺ : « والذى نفسى بيده لو قال : إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانًا أجمعون » .

---

(١) الشورى : ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) قد ولد للنبى ﷺ من خديجة من الذكور القاسم - وهو أول أولاده ، وبه كان يكنى - وعبد الله والطيب والطاهر ، وقيل : أن الطيب والطاهر لقبًا عبد الله ، وولد له من جاريته مارية إبراهيم ، وكلهم ماتوا أطفالاً . .

فدل على أن مجرد الوطء ليس بسبب تام ، وإن كان له مدخل فى السببية ، وأن السبب التام مشيئة الله وحده .

فهو رب الأسباب المتصرف فيها كيف شاء بإعطائها السببية إذا شاء ، ومنعها إياها إذا شاء ، وترتيب ضد مقتضاها عليها إذا شاء . والأسباب هى مجارى الشرع والقدر ، فعليها يجرى أمر الله الكونى والدينى .

فإن قيل : فقد ظهر أن الولد مخلوق من الماءين جميعًا ، فهل يخلق منهما على حد سواء ، أم يكون الولد من ماء الأب ، وبعضه من ماء الأم ؟ قيل : قد بين النبى ﷺ هذه المسألة بأوضح البيان ، فقال الإمام أحمد فى مسنده : حدثنا حسين بن الحسين حدثنا أبو كريب عن عطاء بن السائب عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : مرّ يهودى برسول الله ﷺ ، وهو يحدث أصحابه ، فقالت قريش : يا يهودى إن هذا يزعم أنه نبى، فقال : لأسألنه عن شىء لا يعلمه إلا نبى ، فجاء حتى جلس ، ثم قال : يا محمد مم يخلق الإنسان ؟ ، فقال : « من كلٍّ يخلق : من نطفة الرجل ، ومن نطفة المرأة ، فأما نطفة الرجل فنطفة غليظة ، منها العظم والعصب ، وأما نطفة المرأة فنطفة رقيقة ، منها اللحم والدم » ، فقام اليهودى فقال : هكذا يقول من قبلك .

* *

ثم يفيض ابن القيم بعد ذلك فى المدة التى تعلق الروح فيها بالجسد ، ثم يختار أن ذلك بعد الأربعين الثالثة - كما أخبر حديث الصادق الأمين ﷺ إلى أن يصل بعد كلام طويل إلى مجمل مراتب التصوير والتخليق الأربعة ، فيقول :

فههنا أربع مراتب :

أحدها : تصوير وتخليق علمى ، لم يخرج إلى الخارج .

الثانية : مبدأ تصوير خفى يعجز الحس عن إدراكه .

الثالثة : تصوير يناله الحس ولكنه لم يتم بعد .

الرابعة : تمام التصوير الذى ليس بعد إلا نفخ الروح .

* فالمرتبة الأولى : علمية ، والثلاث الآخر خارجية عينية . وهذا التصوير بعد التصوير نظير التقدير بعد التقدير ؛ فالرب تعالى قدر مقادير الخلائق تقديرًا عامًا قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وهنا كتب السعادة والشقاوة والأعمال والأرزاق والآجال .

(الثانى) تقدير بعد هذا وهو أخص منه ، وهو التقدير الواقع عند القبضتين، حين قبض تبارك وتعالى أهل السعادة بيمينه ، وقال : « هؤلاء للجنة ، وبعمل أهل الجنة يعملون » وقبض أهل الشقاوة باليد الأخرى ، وقال : « هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون » .

(الثالث) تقدير بعد هذا ، وهو أخص منه عندما يمنى به ، كما فى حديث حذيفة بن أسيد المذكور .

(الرابع) تقدير آخر بعد هذا وهو عندما يتم خلقه وينفخ فيه الروح ، كما صرح به الحديث الذى قبله .

وهذا يدل على سعة علم الرب تبارك وتعالى ، وإحاطته بالكليات والجزئيات ، وكذلك التصوير الثانى مطابق للتصوير العلمى ، و الثالث مطابق للثانى ، و الرابع مطابق للثالث .

وهذا مما يدل على كمال قدرة الرب تعالى ، ومطابقة المقدور للمعلوم ، فتبارك الله رب العالمين ، وأحسن الخالقين .

ونظير هذا التقدير الكتابة العامة قبل المخلوقات ، ثم كتابة ما يكون من العام إلى العام فى ليلة القدر ، وكل مرتبة من هذه المراتب تفصيل لما قبلها وتنوع . وكلام رسول الله ﷺ يصدق بعضه بعضًا ، ويفسر بعضه بعضًا ،

ويطابق الواقع فى الوجود ، ولا يخالفه ، وإنما يخبر بما لاينستقل الحس والعقل بإدراكه ، لا بما يخالف الحس والعقل ، وإنما يعرفه الناس ويستقلون بإدراكه على أمر عينى يتعلق به الإيمان ، أو على حكم شرعى يتعلق به التكليف ، والله أعلم .

* *

ثم يذكر - رحمه الله تعالى - أى عضو يتخلق أولاً ، وقبل غيره . . فهل هو القلب ؟ أو الدماغ ؟ أو العينان ؟ أو الكبد ؟ أو السرة . . . على رأى الفلاسفة والأطباء . . ويذكر أقوالهم ويرد عليهم ، بعد أن يناقش بما فيه علم غزير ، وعقل مستنير ، ونفى لوهم كبير .

إلى أن يصل إلى الأعضاء التى ليست برئيسة ولا مرءوسة ، ليتم بها قوام الأمر وتدبيرها من أجل جلب المنافع ودفع المضار ، كالعظام ، والغضاريف ، وسائر الأعضاء المتشابهة الأجزاء ، مثل الرباطات ، والأعصاب ، والأوتار ، والشرايين ، والأوردة ، والأغشية واللحم ، والعظام كالأساس والاسطوانات؛ لبناء هيكل البدن .

فإن قيل : هل فى العظام قوة الإحساس وحياته أم لا ؟ قيل : هذا موضع اختلف فيه أرباب الشريعة . فيما بينهم ، وأرباب الطبيعة فيما بينهم ، فقالت طائفة : لا حياة فى العظام وإن كان فيها قوة النمو والاغتذاء :

* قالوا : إن الحياة إنما هى الروح الحيوانى ، ولا حظ للعظام فيه .

* قالوا : ولأن مركب الحياة إنما هو الدم المنبث فى العروق والأعصاب واللحم . ولهذا لم يكن للشعر ولا للظفر نصيب من ذلك ، ولهذا لم يألم الإنسان بأخذه .

* قالوا : فحياة العظام والشعر حياة نمو واغتذاء ، وحياة أعضاء البدن حياة نمو وإحساس .

* قالوا : ولهذا قلنا إن العظام لا تنجس بالموت لأنها لم يكن فيها حياة تزول بالموت .

* قالوا : وزوال النمو لا يوجب نجاسة ما فارقه ، بدليل يبس الزرع والشجر .

* وقال آخرون : الدليل على أن العظام تحلها الحياة قوله تعالى :

﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (١) ، والحس يدل على ذلك أيضًا ؛ فإن العظم يألم ويضرب ويسكن ، وذلك نفس إحساسه .

* قالوا : ولا يمكن إنكار كون العظام فيها قوة حساسة تحس بالبارد والحار .

* قال الآخرون : الإحساس والألم ليس للعظم فى نفسه ، وإنما هو لما جاوره من اللحم .

قال المنازعون لهم : هذا مكابرة ظاهرة ، فإن العظم نفسه يألم ، ولا سيما إذا تصدع ، ثم إن الأسنان ، والأضراس تحس بالألم والحار والبارد بأنفسها ، لا بمجاورها من اللحم .

ولهذا توسطت طائفة ثالثة ، وقالت : عظام الأسنان خاصة لها الإحساس ، بخلاف سائر العظام ، وهؤلاء قد سلموا المسألة من مكان قريب ، فإن الذى دل على إحساس الأسنان وحياتها ، هو الدال على حياة سائر العظام ، والشبهة التى ذكروها لو صحت لمنعت من إحساس الأسنان .

وأما حديث الطهارة والنجاسة فذاك لأمر آخر وراء الحياة .

من نجسها بالموت سوى بينها وبين اللحم ، ومن لم ينجسها - **وهو الراجح**

---

(١) يس : ٧٨ ، ٧٩

فى الدليل - فذاك لعدم علة التنجيس فيها ، وإن الموت ليس بعلة النجاسة ، وإنما هو دليل العلة وسببها . والعلة هى احتقان الفضلات فى اللحم ، والعظم برىء من ذلك . والدليل على هذا أن الشارع لم يحكم بنجاسة الحيوان النامى الذى لا نفس له سائلة ، لعدم احتقان الفضلات فيه ، فلأن لا يحكم بنجاسة العظم أولى وأحرى . فإن الرطوبات التى فى الذباب والعقرب والخنفساء ، أكثر من الرطوبات التى فى العظم .

* *

● عدد العظام فى البدن :

والذى أحصاه المشرحون من العظام فى البدن مائتان وثمانية وأربعون عظمًا ، سوى الصغار : السمسميات التى أحكم بها مفاصل الأصابع والتى فى الحنجرة .

وقد أخبر النبى ﷺ أن الإنسان خلق من ثلاثمائة وستين مفصلاً ، فإن كانت المفاصل هى العظام فقد اعترف (جالينوس) وغيره بأن فى البدن عظامًا صغارًا لم تدخل تحت ضبطهم وإحصائهم ، وإن كان المراد بالمفاصل المواضع التى تنفصل بها الأعضاء بعضها عن بعض - كما قال (الجوهرى وغيره) المفصل واحد مفاصل الأعضاء - فتلك أعم من العظام فتأمله .

وإن السلاميات المذكورة فى الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه من حديث أبى ذر : « يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة ، فكل تسبيحة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة » الحديث (١) فالسلامى : العظم ، وجمعه سلاميات .

فهنا ثلاثة أمور : أعضاء ، وعظام ، ومفاصل .

---

(١) تمامه : « وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن المنكر صدقة ، ويجزىء من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى » ، قال فى المرقاة : ولعل وجه تخصيصهما بالإجزاء : أنه وقت غفلة أكثر الناس عن الطاعة ، والقيام بمقام العبودية ، ولذا فسر الشفع والوتر بهذه الصورة ، والوتر فى جوف الليل لكونهما وقت الاستراحة .

وجعل الله سبحانه العظام أصلب شيء في البدن ، لتكون أسًا وعمدة في البدن ، إذ كانت الأعضاء كلها موضوعة على العظام ، حتى القلب ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى ، وهي حاملة للأعضاء ، والحامل أقوى من المحمول ، ولتكون وقاية وَجُنَّة أيضًا ، كالقحف ، فإنه وقاية الدماغ ، وعظام الصدر وقاية له .

وجعلت العظام كثيرة لفوائد ، ومنافع عديدة : منها الحركة ، فإن الإنسان قد يحتاج إلى حركة بعض أجزائه دون بعض ، وقد يحتاج إلى حركة جزء من عضو .

* منها : أنه لو كان على عظم واحد لكان إذا أراد أن يتحرك تحرك بجملته .

* ومنها : أنه كان يتعذر عليه الصنائع والحمل والربط .

* ومنها : أنه إذا أصابه آفة عمت جميع البدن ، فجعلت العظام كثيرة ليكون متى نال بعضها آفة لم تسر إلى غيره ، وقام غيره من العظام مقامه في تحصيل تلك المنفعة .

* ومنها : تعدد المنافع التي حصلت بسبب تعدد العظام ، ولولا كثرتها ، وتعددها لفاتت تلك المنافع .

* ومنها : أن من العظام ما يحتاج البدن إلى كبيره ، ومنها ما يحتاج إلى صغيره ، ومنها ما يحتاج إلى مستطيلة ، ومنها ما يحتاج إلى مجوفه ، ومنها ما يحتاج إلى محنيه ، ومنها ما يحتاج إلى مستقيمه ، ولا يحصل ذلك إلا بتعدد العظام .

* ومنها : بديع الصنع ، وحسن التأليف والتركيب ، وغير ذلك من الفوائد . .

* *

● مراحل تغذية الإنسان :

وقد سلم الله غذاء الإنسان إلى يده ، فتأخذه فتسلمه إلى شفتيه فتسلمه

الشفتان إلى الأنياب والثنايا ، فتفصله ، ثم تسلمه إلى الأضراس ، فتسلمه ، وتطحنه ، ثم تسلمه إلى اللسان والفم ، فيعجنه ثم يسلمه إلى الحلقوم والمرىء ، فيسلمه ، ويوصله إلى المعدة ، فتطبخه وتنضجه ، وتصلحه كما ينبغى ، ثم تسلمه إلى الكبد ، فيتسلمها منها ، ثم يرسل منه إلى كل عضو راتبه ومعلومه، ثم تصب قربة الصفراء فى المرارة السوداء فى الطحال ، والثفل يخرجه عنها كما تقدم بيانه .

* *

وبعد أن يصول ويجول ابن القيم فى هذا الميدان . . يصل إلى ما بدأ منه ، وفيه العظة والعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، فيقول - عفا الله عنه - مذكرًا بما بدأ به فى قوله تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾

* *

وبعد . .

فاستقبل الآن النظر فى نفسك ، وانظر إلى المبدأ الأول ، وهو النطفة التى هى قطرة مهينة ضعيفة ، لو تركت ساعة لبطلت وفسدت ، كيف أخرجها رب الأرباب من بين الصلب والترائب ؟ وكيف أوقع المحبة والألفة بين الذكور والإناث ، ثم قادهما بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع ؟ ثم استخرج النطفة من الذكر بحركة الوقاع من أعماق العروق ، وجمعها فى الرحم فى قرار مكين . لا تناله يد ، ولا تطلع عليه شمس ، ولا يصيبه هواء ؟ ثم صرف تلك النطفة طورًا بعد طور ، وطبقًا بعد طبق ، وغذاها بماء الحيض .

وكيف جعل سبحانه النطفة - وهى بيضاء مشرقة - علقة حمراء ، ثم جعلها مضغة ، ثم قسم أجزاء المضغة إلى العظام ، والأعصاب ، والعروق ، والأوتار ، واللحم ، فى داخل الرحم فى الظلمات الثلاث ؟

ولو كشف لك الغطاء لرأيت التخطيط والتصوير يظهر فى تلك النطفة شيئًا

بعد شيء ، من غير أن ترى المصور ولا آلته ، ولا قلمه ، فهل رأيت مصوراً لا تحس آلته ولا تلاقيها ؟ .

* *

* ثم تأمل هذه القبة العظيمة التى قد ركبت على المنكبين ، وما أودع فيها من العجائب ، وما ركب فيها من الخزائن ، وما أودع فى تلك الخزائن من المنافع ، وما اشتملت عليه هذه القبة من العظام المختلفة الأشكال ، والصفات ، والمنافع ، ومن الرطوبات ، والأعصاب ، والطرق ، والمجارى ، والدماغ ، والمنافذ ، والقوى الباطنة . من الذكر ، والفكر ، والتخيل ، وقوة الحفظ ، ففيه القوة المفكرة ، والذاكرة ، والمخيلة ، والحافظة . وهذه القوى مودعة فى خزائنها ، مسخرة لمصالحها ، يستعملها ، ويستخدمها كيف أراد ؛

* فتأمل كيف دور سبحانه الرأس ، وشق سمعه ، وبصره وأنفه وفمه ؟ وكيف ركب كرته فى بطن الأم من ثلاثة وعشرين عظمًا ، وخلق تلك العظام على كيفيات مختلفة ؟ !

* وتأمل كيف انقلبت تلك النطفة اللينة الضعيفة إلى العظام الصلبة الشديدة ؟!

* ثم تأمل كيف قدر سبحانه كل واحد من تلك العظام بشكل مخصوص ، بحيث حصل من مجموعها ما لو كان على خلافه لبطلت المنفعة وفات الغرض ، ثم ركب بعضها مع بعض بحيث حصل من مجموعها كرة الرأس على هذه الخلقة المخصوصة .

* ولما كان الرأس أشرف الأعضاء الإنسانية وأجمعها للقوى ، والمنافع والآلات والخزائن اقتضت العناية الإلهية بأن صين بأنواع من الصيانات : وذلك أن الدماغ يحيطه غشاء رقيق . وفوق ذلك الغشاء غشاء آخر ، يقال له : السمحاق . ثم فوق ذلك الغشاء طبقة لحمية ، وفوق تلك الطبقة اللحمية الجلد . ثم فوق الجلد الشعر . فخلق سبحانه فوق دماغك سبع طبقات ، كما خلق فوق الأرض سبع سموات طباقًا ، والمقصود من تخليقها الاحتياط فى صون الدماغ من الآفات ، والدماغ من الرأس بمنزلة القلب من البدن .

وهو سبحانه قسمه فى طوله ثلاثة أقسام ، وجعل القسم المقدم محل الحفظ والتخيل ، والبطن الأوسط محل التأمل والتفكر ، والبطن الأخير محل التذكر والاسترجاع لما كان قد نسيه .

ولكل واحدة من هذه الأمور الثلاثة أمر مهم للإنسان ، لا بد له منه ، وأنه محتاج إلى التفهم والتفهيم ، ولو لم يكن حافظًا لمعانى التصورات وصورها بعد غيبتها لكان إذا سمع كلمة وفهمها شذت عنه عند مجىء الأخرى ، فلم يحصل المقصود من الفهم والإفهام ، فجعل له ربه وفاطره خزانة تحفظ له صور المعلومات ، حتى تجتمع له ، وتسمى القوة التى فيها القوة الحافظة ، ولا تتم مصلحة الإنسان إلا بها . .

* وقد قال قوم : **إن محل هذه الصور النفس** . وقال قوم : محلها **القلب** ، وقال قوم : محلها **العقل** ، ولكل فريق منهم حجج وأدلة ، **وكل منهم أدرك شيئًا وغاب عنه شىء** ؛ إذ الإدراك المذكور مفتقر إلى مجموع ذلك ، لا يتم إلا به .

والتحقيق : أن منشأ ذلك ومبدأه من القلب ، ونهايته ومستقره فى الرأس . وهى المسألة التى اختلف فيها الفقهاء ، هل العقل فى القلب أو فى الدماغ ؟ على قولين : حكيًا روايتين عن الإمام أحمد .

والتحقيق أن أصله ومادته من القلب وينتهى إلى الدماغ . قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ (١) فجعل العقل فى القلب ، كما جعل السمع بالأذن ، والبصر بالعين ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ (٢) ، قال غير واحد من السلف : لمن كان له عقل .

واحتج آخرون : بأن الرجل يضرب فى رأسه فيزول عقله . ولولا أن العقل فى الرأس لما زال . فإن السمع والبصر لا يزولان بضرب اليد أو الرجل ، ولا غيرهما من الأعضاء لعدم تعلقهما بهما .

---

(١) الحج : ٤٦ (٢) سورة ق : ٣٧

وأجاب أرباب القلب عن هذا بأنه لا يمتنع زواله بفساد الدماغ وإن كان فى القلب ، لما بين القلب والرأس من الارتباط ، وهذا كما لا يمتنع نبات شعر اللحية بقطع الأنثيين ، وفساد القوة بفساد العضو قد يكون ، لأنه محلها وارتباطه بها . والله أعلم .

* وعلى كل تقدير فذلك من أعظم آيات الله وأدلته وقدرته وحكمته ، كيف ترتسم صورة السموات والأرض والبحار ، والشمس والقمر والأقاليم ، والممالك والأُمم فى هذا المحل الصغير ؟ والإنسان يحفظ كتبًا كثيرة جدًا ، وعلومًا شتى متعددة ، وصنائع مختلفة ، فترتسم كلها فى هذا الجزء الصغير ، من غير أن يختلط بعض هذه الصور ببعض ، بل كل صورة منهن بنفسها محصلة فى هذا المحل .

وأنت لو ذهبت تنقش صورًا وأشكالاً كثيرة فى محل صغير لاختلط بعضها ببعض ، وطمس بعضها بعضًا . وهذا الجزء الصغير تنقش فيه الصور الكثيرة المختلفة ، والمتضادة ، ولا يبطل منها صورة صورة .



* ومن أعجب الأشياء أن هذه القوة العاقلة تقبل ما تؤديه إليها الحواس فتجتمع فيها ، ثم تعيد كل حاسة منها فائدة الحاسة الأخرى ، مثاله :

أنك ترى الشخص فتعلم أنه فلان ، وتسمع صوته فتعلم أنه هو ، وتلمس الشيء فتعرفه ، وتشمه فتعرف أنه هو ، ثم تستدل بما تسمعه من صوته على أنه هو الذى رأيته ، فيغنيك سماع صوته عن رؤيته ، ويقوم لك مقام مشاهدته.

ولهذا جوز أكثر الفقهاء شهادة الأعمى وبيعه وشراءه . وأجمعوا على جواز وطئه امرأته ، وهو لم يرها قط ، اعتمادًا منه على الصوت ، بل لو كانت خرساء أيضًا وهو أطرش جاز له الوطء .

* وقد جعل الله سبحانه بين السمع والبصر ، والفؤاد علاقة وارتباطًا ونفوذًا يقوم به بعضها مقام بعض .

ولهذا يقرن سبحانه بينهما كثيرًا فى كتابه كقوله : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً ﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ (٣) ، وهذا من عناية الخالق سبحانه بكمال هذه الصورة البشرية ، لتقوم كل حاسة منها مقام الحاسة الأخرى ، وتفيد فائدتها فى الجملة ، لا فى كل شىء .

ثم أودع سبحانه قوة التفكر وأمره باستعمالها فيما يجدى عليه النفع فى الدنيا والآخرة ؛ فركب القوة المفكرة من شيئين من الأشياء الحاضرة عند القوة الحافظة تركيبًا خاصًا ، فيتولد من بين هذين الشيئين شىء ثالث جديد لم يكن للعقل شعور به ، كانت مواده عنده لكن بسبب التركيب حصل له الأمر الثالث .

ومن هنا حصل استخراج الصنائع ، والحرف ، والعلوم ، وبناء المدن والمساكن ، وأمور الزراعة والفلاحة ، وغير ذلك ، فلما استخرجت القوة المفكرة ذلك ، واستحسنته سلمته إلى القوة الإرادية العلمية ، فنقلته من ديوان الأذهان إلى ديوان الأعيان ، فكان أمرًا ذهنيًا ، ثم صار وجوديًا خارجيًا .

ولولا الفكرة لما اهتدى الإنسان إلى تحصيل المصالح ودفع المفاسد ، وذلك من أعظم النعم ، وتمام العناية الإلهية ، ولهذا لما فقد البهائم والمجانين ونحوهم هذه القوة لم يتمكنوا مما تمكن منه أرباب الفكر . ولما كان استخراج المطلوب بهذه الطريق يتضمن فكرًا وتقديرًا فيفكر فى استخراج المادة أولاً ، ثم يقدرها ويفصلها ثانيًا كما - يصنع الخياط - يحصل الثوب ثم

---

(١) الإسراء : ٣٦ (٢) الأحقاف : ٢٦ (٣) الأعراف : ١٧٩

يقدره ويفصله ثانيًا ، قال تعالى عن الوحيد : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ (١) .

فكرر سبحانه التقدير دون التفكير ، وذمه عليه دونه ، وهذا منزل على مقتضى حال سواه : فإنه بالفكر طالب لاستخراج المجهول ، وذلك غير مذموم . فلما استخرجه قدر له تقديرين : تقديرًا كليًا وتقديرًا جزئيًا ، **فالتقدير الكلى** : أن الساحر هو الذى يفرق بين المرء وزوجه . **والتقدير الجزئى**: أن الذى يفرق بين المرء وزوجه مذموم . فههنا تقدير بعد تقدير . فلهذا كرره سبحانه وذمه عليه . وأما التفكير فإن الفكر طالب لمعرفة الشىء . فلا يذم ، بخلاف من قدر بعد تفكيره ما يوصله إلى تحقيق الباطل وإبطال الحق . فتأمله .

* *

ثم يتأمل العين وما لها ، والدماغ ، والأنف ، والقلب أمير البدن ، والصدر وما وعى ، وجنود القلب ، وما يتعلق به ؛ ولأنه سرّ الإنسان ، وله جنود ، وهو مخلوق للسفر إلى الله سبحانه والدار الآخرة . . يقول عنه :

● للقلب معنيان :

. . . ويطلق القلب على معنيين : أحدهما : أمر حسى وهو العضو اللحمى الصنوبرى الشكل ، المودع فى الجانب الأيسر من الصدر ، وفى باطنه تجويف ، وفى التجويف دم أسود ، وهو منبع الروح . **والثانى** : أمر معنوى . وهو لطيفة ربانية رحمانية روحانية لها بهذا العضو تعلق واختصاص، وتلك اللطيفة هى حقيقة الإنسانية .

* **وللقلب جندان** : جند يرى بالأبصار . وجند يرى بالبصائر . **فأما جنده**

---

(١) المدثر : ١١ - ١٩

المشاهد فالأعضاء الظاهرة والباطنة ، وقد خلقت خادمة له لا تستطيع له خلافًا . فإذا أمر العين بالانفتاح انفتحت . وإذا أمر اللسان بالكلام تكلم . وإذا أمر اليد بالبطش بطشت ، وإذا أمر الرجل بالسعى سعت ، وكذا جميع الأعضاء ذللت له تذليلاً .

* ولما خلق القلب للسفر إلى الله والدار الآخرة وحصل فى هذ العالم ليتزود منه ، افتقر إلى المركب والزاد لسفره الذى خلق لأجله ، فأعين بالأعضاء والقوى ، وسخرت له ، وأقيمت له فى خدمته لتجلب له ما يوافقه من الغذء والمنافع ، ويدفع عنه ما يضره ويهلكه ، فافتقر إلى جندين :

باطن : وهو **الإرادة ، والشهوة ، والقوى ، وظاهر** وهو الأعضاء : فخلق فى القلب من الإرادات والشهوات ما احتاج إليه . وخلقت له الأعضاء التى هى آلة الإرادة .

واحتاج فى دفع المضار إلى جندين : **باطن** . وهو الغضب الذى يدفع المهلكات ، وينتقم به من الأعداء . **وظاهر** ، وهو : الأعضاء التى ينفذ بها غضبه ، كالأسلحة للقتال ، ولا يتم ذلك إلا بمعرفته ما يجب وما يدفع ، فأعين الجند من العلم بما يكشف له حقائق ما ينفعه وما يضره .

* ولما سلطت عليه الشهوة والغضب والشيطان أعين بجند من الملائكة ، وجعل له محل من الحلال ينفذ فيه شهواته ، وجعل بإزائه أعداء له ينفذ فيهن غضبه ، فما ابتلى بصفة من الصفات إلا وجعل لها مصرفًا ومحلاً ينفذها فيه :

فجعل لقوة الحسد فيه مصرفًا ، وهو المنافسة فى فعل الخير ، والغبطة عليه ، والمسابقة إليه ، ولقوة الكبر مصرفًا وهو التكبر على أعداء الله تعالى وإهانتهم ، وقد قال النبى ﷺ لمن رآه يختال بين الصفين فى الحرب : « إنها لمشية يبغضها الله إلا فى هذا الموطن » ، وقد أمر الله سبحانه بالغلظة على أعدائه .

وجعل لقوة الحرص مصرفًا ، وهو الحرص على ما ينفع ، كما قال النبى ﷺ : « احرص على ما ينفعك » ، ولقوة الشهوة مصرفًا ، وهو : التزوج

بأربع ، والتسرى بما شاء . ولقوة حب المال مصرفًا ، وهو إنفاقه فى مرضاته تعالى ، والتزود منه لمعاده ، فمحبة المال على هذا الوجه لا تذم .

ولمحبة الجاه مصرفًا ، وهو : استعماله فى تنفيذ أوامره ، وإقامة دينه ، ونصر المظلوم ، وإغاثة الملهوف ، وإعانة الضعيف ، وقمع أعداء الله . فمحبة الرياسة والجاه على هذا الوجه عبادة .

وجعل لقوة اللعب واللهو مصرفًا ، وهو : لهوه مع امرأته ، أو بقوسه وسهمه ، أو تأديبه فرسه . . وكل ما أعان على الحق .

وجعل لقوة التحيل والمكرفيه مصرفًا ، وهو : التحيل على عدوه وعدو الله تعالى بأنواع التحيل ، حتى يراغمه ويرده خاسئًا ، ويستعمل معه من أنواع المكر ما يستعمله عدوه معه . . وهكذا جميع القوى التى ركبت فيه جعل لها مصرفًا . . . وقد ركبها الله فيه لمصالح اقتضتها حكمته ولا يطلب تعطيلها ، وإنما تصرف مجاريها من محل إلى محل ، ومن موضع إلى موضع . . ومن تأمل هذا الموضع وتفقه فيه علم شدة الحاجة إليه ، وعظم الانتفاع به .

* *

● جنود القلب :

* وجماع الطرق والأبواب التى يصان منها القلب وجنوده أربعة ، فمن ضبطها وعدلها وأصلح مجاريها ، وصرفها فى محالها اللائقة بها استفاد منها قلبه وجوارحه ، ولم يشمت به عدوه ، وهى : الحرص ، والشهوة ، والغضب ، والحسد .

فهذه الأربعة هى : أصول مجامع طرق الشر والخير ، وكما هى طرق إلى العذاب السرمدى ، فهى طرق إلى النعيم الأبدى :

فآدم أبو البشر ﷺ أخرج من الجنة بالحرص ، ثم أدخل إليها بالحرص ، ولكن فرق بين حرصه الأول وحرصه الثانى .

وأبو الجن أخرج منها بالحسد ، ثم لم يوفق لمنافسة وحسد يعيده إليها ، وقد قال النبى ﷺ : « لا حسد إلى فى اثنتين : رجل آتاه الله مالاً وسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله القرآن ، فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار » (١) .

وأما الغضب فهو غول العقل ، يغتاله كما يغتال الذئب الشاة ، وأعظم ما يفترسه الشيطان عند غضبه وشهوته وإذا كان حرصه إنما هو على ما ينفعه ، وحسده منافسة فى الخير ، وغضبه لله على أعدائه ، وشهوته مستعملة فيما أبيح له وعونًا له على ما أمر به ، لم تضره هذه الأربعة بل انتفع بها أعظم الانتفاع .



● حال القلب مع الملك والشيطان :

وإذا تأملت حال القلب مع الملك والشيطان رأيت أعجب العجائب ، فهذا يلم به مرة ، وهذا يلم به مرة ، فإذا ألم به الملك ، حدث من لمته الانفساح ، والانشراح ، والنور ، والرحمة ، والإخلاص ، والإنابة ، ومحبة الله ، وإيثاره على ما سواه ، وقصر الأمل ، والتجافى عن دار البلاء ، والامتحان ، والغرور ، فلو دامت له تلك الحالة لكان فى أهنأ عيش وألذه وأطيبه . ولكن تأتيه لمة الشيطان ، فتحدث له من الضيق ، والظلمة ، والهم ، والغم ، والخوف ، والسخط على المقدور ، والشك فى الحق ، والحرص على الدنيا وعاجلها ، والغفلة عن الله - ما هو من أعظم عذاب القلب .

ثم للناس فى هذه المحنة مراتب لا يحصيها إلا الله : فمنهم من تكون لمة الملك أغلب من لمة الشيطان وأقوى : فإذا ألم به الشيطان وجد من الألم

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن ابن مسعود ، والحسد يطلق ويراد منه تمنى زوال النعمة عن المحسود ، وهذا حرام . ويطلق ويراد منه الغبطة وهى تمنى مثل الذى له ، وهذا لا بأس به ، وهو المراد هنا .

والضيق ، والحصر ، وسوء الحال بحسب ما عنده من حياة القلب ، فيبادر إلى طرد تلك اللمة ولا يدعها تستحكم فيصعب تداركها . فهو دائمًا فى حرب بين اللمتين ، يدال له مرة ، ويدال عليه مرة أخرى ، والعاقبة للتقوى .

* ومنهم من تكون لمة الشيطان أغلب عليه وأقوى ، فلا تزال تغلب لمة الملك حتى تستحكم ويصير الحكم لها ، فيموت القلب ، ولا يحس ما ناله الشيطان به ، مع أنه فى غاية العذاب والضيق والحصر ، ولكن سكر الشهوة والغفلة حجب عنه الإحساس بذلك الألم ، فإذا كشف أمكنه تداركه بالدواء وحسمه ، وإن عاد الغطاء عاد الأمر كما كان ، حتى ينكشف عنه وقت المفارقة للدنيا ، فتظهر حينئذ تلك الآلام والهموم والغموم والأحزان ، وهى لم تتجدد له ، وإنما كانت كامنة تواريها الشواغل . فلما زالت الشواغل ظهر ما كان كامنًا وتجدد له أضعافه .

* *

● علاج لمّة الشيطان ووسوسته :

والشيطان يلم بالقلب لما كان هناك من جوانب تجذبه ، وهو نوعان : صفات ، وإرادات : فإذا كانت الجواذب صفات قوى سلطانه هناك ، واستفحل أمره ، ووجد موطنًا ومقرًا ، فتأتى الأذكار والدعوات والتعوذات كحديث النفس ، لا تدفع سلطان الشيطان ؛ لأن مركبه صفة لازمة ، فإذا قلع العبد تلك الصفات وعمل على التطهر منها والاغتسال ، بقى للشيطان بالقلب خطرات ووساوس ولمات من غير استقرار ، وذلك يضعفه ، ويقوى لمة الملك ، فتأتى الأذكار ، والدعوات والتعوذات ، فتدفعه بأسهل شىء .

وإذا أردت لذلك مثالاً مطابقًا : فمثله مثل كلب جائع شديد الجوع ، وبينك وبينه لحم أو خبز ، وهو يتأملك ويراك لا تقاومه وهو أقرب منك . فأنت تزجره ، وتصيح عليه ، وهو يأبى إلا التحوم عليك ، والغارة على ما بين يديك . فالأذكار بمنزلة الصياح عليه والزجر له . ولكن معلومه ومراده

عندك ، وقد قربته عليك فإذا لم يكن بين يديك شيء يصلح له ، وقد تأملك فرآك أقوى منه فإنك تزجره وتصيح عليه فيذهب . وكذلك القلب الخالى عن قوة الشيطان ينزجر بمجرد الذكر .

وأما القلب الذى فيه تلك الصفات التى هى مركبه وموطنه ، فيقع الذكر فى حواشيه وجوانبه ، ولا يقوى على إخراج العدو منه ، ومصداق ذلك تجده فى الصلاة ، فتأمل فى الحال وانظر هل تخرج الصلاة بأذكارها وقراءتها الشيطان من قلبك ، وتفرغه كله لله تعالى بكليته وتقيمه بين يدى ربه مقبلاً بكليته عليه ، يصلى لله تعالى ، كأنه يراه ، قد اجتمع همه كله على الله ؟ وصار ذكره ومراقبته ومحبته والأنس به فى محل الخواطر والوساوس أم لا ؟ والله المستعان .

وههنا نكتة ينبغى التفطن لها ، وهى أن القلوب الممتلئة بالأخلاط الرديئة . فالعبادات ، والأذكار والتعوذات ، أدوية لتلك الأخلاط كما يثير الدواء أخلاط البدن ، فإن لم يكن قبل الدواء وبعده حمية لم يزد الدواء على إثارته ، وإن أزال منه شيئًا ما . فمدار الأمر على شيئين : الحمية ، واستعمال الأدوية . .

وهذا فصل جره الكلام فى قوله تعالى : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ أشرنا إليه إشارة ، ولو استقصيناه لاستدعى عدة أسفار ، ولكن فيما ذكرناه تنبيه على ما تركناه [1] . وبالله التوفيق .

* * *

---

(١) ملاحظة : من ود مزيد بيان فى هذا الجانب فليرجع إلى كتابه « التبيان فى أقسام القرآن » ، فى هذا الفصل .

الفصل الرابع

نظرات فى آخر سورة الفاتحة

قال تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ *
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ
غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ
وَلَا الضَّالِّينَ ﴾

فى هذا الفصل :

- يستشهد بعلماء السَّلَف ، ويجلهم ، ويدعو لهم بالخير ، ويشيد دائمًا بأهل السُّنَّة والجماعة .
- ويؤثر الشواهد القرآنية والأحاديث النبوية ، والمأثور الفصيح من الشعر .
- ويرد على كبار العلماء - كالزمخشرى والسهيلى وغيرهما - فى توهمهم ، إذا ارتأى أن رأى غيرهم أصح وأسد ، ولا يفوته أن يترحم عليهم ، ويلتمس لهم العذر . وإذا وافق رأيه ما قد رأوه .. قرّ واستقر وتهلل لذلك .
- ويتتبع – فى بصيرة – نكت البلاغة فى ألمعية .. فى المسائل : البيانية ، والنحوية ، ويجليها .
- وحين يشرح لفظ « الهداية » ، يحيط بمعانيها ، فيرضى أشواق

الروح، ويرد بالتالى أوهام العامة وانحرافهم فى فهم مقصودها ، وكثرة من مشاهير علمائنا اليوم يمتعون الجماهير المسلمة بما ترك وأبدع، فقد كان إهاباً ملئ علماً، وموسوعة علمية .

يحدثنا فى هذا الفصل عن مسائل مهمة فى هذا الفصل منها :

- ما فائدة البدل ، فى قوله تعالى : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أنعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾؟ ولم أبهم فى « الذين » ؟
- ولم جاء ﴿المغضوب ﴾ بصيغة المجهول ؟ وهل لله نعمة على الكافر ؟
- ما إعراب (غير) ؟ وما معناها هنا ؟
- ومن هم الضالون؟ ولم عطف بـ (لا) ؟
- للهداية أنواع ومعان . ولم قال (اهدنا) ولم يقل (اهدنى) ؟
- (الصراط) ما هو ؟ وما حقيقته فى الآخرة ؟ وهل يرادفه الطريق ؟

لنستمع إليه .. يقول رحمه الله تعالى :

نهجه فى دراسة هذه الآية وغيرها

* تجد فى دراسته المتأنية لهذه الآية الكريمة .. علم غزير ، ودقة فهم ، وبصر ناقد ، وحس ذكى ، وأدب عالم ، واستشهاد بارع ، وشفافية روح ، واختيار للأصوب ، وتفويض إلى الله ؛

- فهو يذكر الآراء ، ويختار أحسنها ، ويعلل سبب اختياره .
- ويستشهد بالشواهد الكثيرة ويبين الفرق .
- ويفرض سؤالاً ليرتب عليه الجواب ، تنشيطًا للذهن ومقارنة .
- ويستطرد لزيادة الفائدة ، ويستعين بفصيح المأثور فى الشعر والنثر .
- ويبين الاشتقاق فى أنواعه : الصغير والكبير والأكبر والكبّار ليجلى معنى الكلمة .
- ويذكر الأخطاء فى كتب من سبقه وينبه عليها فى أدب العلماء .
- ويعجب لبيان كبوة من كبار من العلماء ، ويتساءل أين غاب عنه ذهنه ؟
- ومن أدب العبد الصالح أن ينسب الجليل الجميل إلى الله .. أما غير ذلك فينسبه لنفسه .
- ويرجح أن الخضر كان نبيًا .
- والإنعام بالهداية يستوجب شكر المنعم .
- والإشادة والتعيين لأهل الصلاح والهدى .
- من الأفعال ما يتعدى بنفسه ، ويتعدى (باللام) ، وبحرف (إلى) مع اختلاف المعنى ؟
- وإذا لم يرض الله على قوم ، فهل ينعم عليهم ؟
- لفظ (غير) فى هذه الآية أبلغ من (لا) إذا حلت محلها ، لماذا ؟
- الأمانة فى الاقتباس ، والتعقيب عليه .

- ويتعقب النِحل والملل الضالة ويرد شاردها .
- والهداية على أربعة أنواع ، فمن أى أنواع الهداية (اهدنا) فى هذه السورة ؟
- وشأن العلماء الورعين ، أن يختموا قولهم بـ (والله أعلم) .
- وحين يذكر الحقائق يبين سرّ الاختيار ، عن علم ، وفى تواضع .
- يعرض الآراء على شيخه ابن تيمية ، ويرجح ما يراه عن قناعه .
- ويختار من آراء العارفين ما يلبى أشواق الروح .
- أصول الهداية فى الإيمان العميق بالشهادتين .

* وقبل تفسير هاتين الآيتين الكريمتين يثير نقاطًا نحوية وصرفية وبلاغية ، وهى :

- ما فائدة البدل فى ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ ﴾ ، من المبدل منه ﴿ اهدنا الصراط﴾ والمخاطب سبحانه لا يحتاج إلى البيان المستفاد من البدل ؟
- وما فائدة تعريف الصراط باللام ؟ ومم اشتق ؟ وما معناه ؟
- وما اشتقاق الصراط ؟ وما الفرق بينه وبين الطريق ؟
- ولماذا لم يختصر ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾، فيقول : صراط المنعم عليهم ؟
- ولم جاء فعل (اهدنا) هنا متعديًا بنفسه ؟
- وهل لله نعم على الكافر ؟
- ولماذا لم يقل : غير المغضوب عليهم وغير الضالين ؟ وما فائدة العطف بلا ؟
- وما فائدة البدل فى ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾
- ولم فرق بين ﴿ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ وبين الضالين ؟
- الهداية أنواع ، فمن أى الأنواع ؟ (اهدنا الصراط) ؟
- وما فائدة الضمير (نا) فى اهدنا ، ولم يقل (اهدنى) ؟

● تفسير آخر سورة الفاتحة :

* المسائل فى ﴿ اهْدنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقيمَ ﴾.... إلى آخر الفاتحة . .

قوله تعالى : ﴿ اهْدنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقيمَ * صرَاطَ الَّذينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ، غَيرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ فيها عشرون مسألة :

أحدها : ما فائدة البدل فى الدعاء والداعى مخاطب لمن لا يحتاج إلى البيان ، والبدل القصد منه بيان الاسم الأول ؟

الثانية : ما فائدة تعريف﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقيمَ ﴾ باللام وهلا أخبر عنه بمجرد اللفظ دونها كما قال : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدى إِلَى صرَاط مُّسْتَقيمٍ ﴾ ؟ .

الثالثة : ما معنى الصراط ؟ ومن أى شىء اشتقاقه ؟ ولم جاء على وزن فعال ، ولم ذكر فى أكثر المواضع فى القرآن بهذا اللفظ ، وفى سورة الأحقاف ذكر بلفظ الطريق فقال : ﴿ يَهْدى إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقيمٍ ﴾ (١) .

والرابعة : ما الحكمة فى إضافته إلى قوله تعالى : ﴿ الَّذينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِم ﴾ بهذا اللفظ ، ولم يذكرهم بخصوصهم فيقول : صراط النبيين والصديقين ، فلم عدل إلى لفظ المبهم دون المفسر ؟

الخامسة : ما الحكمة فى التعبير عنهم بلفظ الذى مع صلتها دون أن يقال المنعم عليهم وهو أخصر ، كما قال : ﴿ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ ؟ وما الفرق ؟

السادسة : لم فرق بين المنعم عليهم والمغضوب عليهم ، فقال فى أهل النعمة : الذين أنعمت ، وفى أهل الغضب المغضوب بحذف الفاعل ؟

السابعة : لم قال : ﴿ اهْدنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقيمَ ﴾ فعدى الفعل بنفسه ولم يعده بإلى ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدى إِلَى صرَاط مُّسْتَقيمٍ ﴾ (٢) ،

---

(١) الأحقاف : ٣٠ (٢) الشورى : ٥٢

وقال تعالى : ﴿ واجْتَبَيْنَاهُم وَهَدَيْنَاهُم إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

الثامنة : أن قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ يقتضى أن نعمته مختصة بالأولين دون المغضوب عليهم ولا الضالين .. وهذا حجة لمن ذهب إلى أنه لا نعمة له على كافر ، فهل هذا استدلال صحيح أم لا ؟ .

التاسعة : أن يقال : لم وصفهم بلفظ غير ، وهلا قال تعالى :

لا المغضوب عليهم كما قال ولا الضالين .. وهذا كما تقول : مررت بزيد لا عمرو وبالعاقل لا الأحمق ؟ .

العاشرة : كيف جرت (غير) صفة على الموصول وهى لا تتعرف بالإضافة وليس المحل محل عطف بيان ، إذ بابه الإعلام ، ولا محل لذلك؛ إذ المقصود في باب البدل هو الثانى والأول توطئة ، وفى باب الصفات المقصود الأول والثانى بيان ، وهذا شأن هذا الموضع ؛ فإن المقصود ذكر المنعم عليهم ووصفهم بمغايرتهم معنى الغضب والضلال ؟

الحادية عشرة : إذا ثبت ذلك فى البدل ، فالصراط المستقيم مقصود الإخبار عنه بذلك وليس فى نية الطرح ، فكيف جاء صراط الذين أنعمت عليهم بدلاً منه ، وما فائدة البدل هنا ؟ .

الثانية عشرة : إنه قد ثبت فى الحديث الذى رواه الترمذى والإمام أحمد وأبو حاتم ، تفسير المغضوب عليهم بأنهم اليهود ، والنصارى بأنهم الضالون، فما وجه هذا التقسيم والاختصاص ، وكل من الطائفتين ضال مغضوب عليه ؟ .

الثالثة عشرة : لم قدم المغضوب عليهم فى اللفظ على الضالين ؟ .

---

(١) الأنعام : ٨٧

الرابعة عشرة : لم أتى فى أهل الغضب بصيغة مفعول المأخوذة من فعل ؟ ولم يأت فى أهل الضلال بذلك ، فيقال المضلين ، بل أتى فيهم بصيغة فاعل المأخوذة من فعل ؟ .

الخامسة عشرة : ما فائدة العطف بلا هنا ، ولو قيل المغضوب عليهم والضالين لم يختل الكلام ، وكان أوجزه ؟

السادسة عشرة : إذ قد عطف بها فيأتى العطف بها مع **الواو للمنفى** ، نحو : ما قام زيد ولا عمرو ، وكقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ ﴾ **إلى قوله تعالى** : ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾ (١) . **وأما بدون الواو** فبابها الإيجاب ، نحو : مررت بزيد لا عمرو **فهذه ست عشرة مسئلة فى ذلك؟**

السابعة عشرة : هل الهداية هنا هداية التعريف والبيان ؟ أو هداية التوفيق والإلهام ؟ .

الثامنة عشرة : كل مؤمن مأمور بهذا الدعاء أمرًا لازمًا لا يقوم غيره مقامه ، ولا بد منه ، وهذا إنما نسأله فى الصلاة بعد هدايته ، فما وجه السؤال لأمر حاصل وكيف يطلب تحصيل الحاصل ؟

التاسعة عشرة : ما فائدة الإتيان بضمير الجمع فى اهدنا ، والداعى يسئل ربه لنفسه فى الصلاة وخارجها ، ولا يليق به ضمير الجمع ، ولهذا يقول : «رب اغفر لى وارحمنى وتب على » .

العشرون : ما حقيقة الصراط المستقيم الذى يتصوره العبد وقت سؤاله ؟ فهذه أربع مسائل حقها أن تقدم أولاً ولكن جر الكلام إليها بعد ترتيب المسائل الستة عشر .

---

(١) التوبة : ٩٢

● **الأجوبة** :

والجواب بعون الله وتعليمه ، فإنه لا علم لأحد من عباده إلا ما علمه ، ولا قوة له إلا بإعانته :

أولاً : فائدة البدل من الدعاء :

أما المسألة الأولى : وهى فائدة البدل من الدعاء : أن الآية وردت فى معرض التعليم للعباد والدعاء ، وحق الداعى أن يستشعر عند دعائها ما يجب عليه اعتقاده مما لا يتم الإيمان إلا به ، إذ الدعاء مخ العبادة ، والمخ لا يكون إلا فى عظم والعظم لا يكون إلا فى لحم ودم ، فإذا وجب إحضار معتقدات الإيمان عند الدعاء وجب أن يكون الطلب ممزوجًا بالثناء ، فمن ثم جاء لفظ الطلب للهداية والرغبة فيها مشوبًا بالخبر تصريحًا من الداعى بمعتقده ، وتوسلاً منه بذلك الاعتقاد الصحيح إلى ربه : فكأنه متوسل إليه بإيمانه واعتقاده أن صراط الحق هو الصراط المستقيم . وأنه صراط الذين اختصهم بنعمته وحباهم بكرامته ؛ فإذا قال : اهدنا الصراط المستقيم . . والمخالفون للحق يزعمون أنهم على الصراط المستقيم أيضًا ، والداعى يجب عليهم اعتقاد خلافهم وإظهار الحق الذى فى نفسه ، فلذلك أبدل وبين لهم ليمرن اللسان على ما اعتقده الجنان .

ففى ضمن هذا الدعاء المهم الإخبار بفائدتين جليلتين : **إحداهما** : فائدة الخبر . **والفائدة الثانية** : فائدة لازم الخبر .

فأما فائدة الخبر : فهى الإخبار عنه بالاستقامة ، وأنه الصراط المستقيم الذى نصبه لأهل نعمته وكرامته .

وأما **فائدة لازم الخبر** : فإقرار الداعى بذلك وتصديقه وتوسله بهذا الإقرار إلى ربه .

* **فوائد فى الدعاء هنا** : فهذه أربع فوائد : **الدعاء بالهداية إليه ، والخبر عنه**

بذلك . والإقرار والتصديق لشأنه . والتوسل إلى المدعو إليه بهذا التصديق ، وفيه فائدة خامسة ، وهى : أن الداعى إنما أمر بذلك لحاجته إليه وأن سعادته وفلاحه لا تتم إلا به ، فهو مأمور بتدبر ما يطلب وتصور معناه ؛ فذكر له من أوصافه ما إذا تصور فى خلده وقام بقلبه كان أشد طلبًا له ، وأعظم رغبة فيه ، وأحرص على دوام الطلب والسؤال له ، فتأمل هذه النكت البديعة .

* *

الثانية : لماذا عرف الصراط باللام هنا :

وأما المسألة الثانية وهى : تعريف الصراط باللام هنا .

فاعلم أن الألف واللام إذا دخلت على اسم موصوف اقتضت أنه أحق بتلك الصفة من غيره : ألا ترى أن قولك : جالس فقيهًا أو عالمًا ، ليس كقولك : جالس الفقيه أو العالم ، ولا قولك : أكلت طيبًا ، كقولك : الطيب ألا ترى إلى قوله ﷺ : « أنت الحق ، ووعدك الحق ، وقولك الحق » ، ثم قال : « وَلِقَاؤُكَ الْحَقُّ ، والْجَنَّةُ حق والنار حق » ، فلم يدخل الألف واللام على الأسماء المحدثة ، وأدخلها على اسم الرب تعالى ووعده وكلامه ؛ فإذا عرفت هذا فلو قال : اهدنا صراطًا مستقيمًا لكان الداعى إنما يطلب الهداية إلى صراط ما مستقيم على الإطلاق ، وليس المراد ذلك بل المراد الهداية إلى الصراط المعين الذى نصبه الله تعالى لأهل نعمته ، وجعله طريقًا إلى رضوانه وجنته ، وهو دينه الذى لا دين له سواه ، فالمطلوب أمر معين فى الخارج والذهن ، لا شىء مطلق منكر ، واللام هنا للعهد العلمى الذهنى وهو : أنه طلب الهداية إلى سرٍّ معهود قد قام فى القلوب معرفته والتصديق به ، وتميزه عن سائر طرق الضلال : فلم يكن بد من التعريف .

* *

(فإن قيل) : لم جاء منكرًا فى قوله لنبيه ﷺ : ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٢) ،

---

(١) الفتح : ٢ (٢) الشورى : ٥٢

وقوله تعالى : ﴿ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [(١)] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [(٢)] .

فالجواب عن هذه المواضع بجواب واحد ، وهو : أنها ليست فى مقام الدعاء والطلب وإنما هى فى مقام الإخبار من الله تعالى عن هدايته إلى صراط مستقيم وهداية رسوله إليه ، ولم يكن للمخاطبين عهد به ، ولم يكن معروفًا لهم فلم يجئ معرفًا بلام العهد المشيرة إلى معروف فى ذهن المخاطب قائم فى خلده ، ولا تقدمه فى اللفظ معهود تكون اللام معروفة إليه ، وإنما تأتى لام العهد فى أحد هذين الموضعين أعنى أن يكون لها معهود ذهنى ، أو ذكر لفظى وإذ لا واحد منهما فى هذه المواضع فالتنكير هو الأصل ، وهذا بخلاف قوله: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ فإنه لما تقرر عند المخاطبين أن لله صراطًا مستقيمًا هدى إليه أنبياءه ورسله ، وكان المخاطب سبحانه المسؤول من هدايته عالمًا به دخلت اللام عليه فقال : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ .

* *

وقال السهيلى : إن قوله تعالى : ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [(٣)] نزلت فى صلح الحديبية ، وكان المسلمون قد كرهوا ذلك الصلح ورأوا أن الرأى خلافه ، وكان الله تعالى - عما يقولون ورسوله ﷺ أعلم - فأنزل الله على رسوله ﷺ هذه الآية ، فلم يرد صراطًا مستقيمًا فى الدين ، وإنما أراد صراطًا فى الرأى والحرب والمكيدة .

وقوله تبارك وتعالى :﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [(٤)] : أى تهدى من الكفر والضلال إلى صراط مستقيم . ولو قال فى هذا الموطن : إلى الصراط المستقيم ؛ لجعل للكفر وللضلال حظًا من الاستقامة ؛ إذ الألف واللام تنبئ أن ما دخلت عليه من الأسماء الموصلة أحق بذلك المعنى مما تلاه

(١) الأنعام : ٨٧ (٢) الأنعام : ١٦١
(٣) الفتح : ٢ (٤) الشورى : ٥٢

فى الذكر ، أو ما قرب به فى الوهم ، ولا يكون أحق به إلا والآخر فيه طرف منه .

* *

رده لرأى السهيلى :

وغير خاف ما فى هذين الجوابين من الضعف والوهن :

أما قوله إن المراد بقوله : ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ فى الحرب والمكيدة ، فهضم لهذا الفضل العظيم والحظ الجزيل الذى امتن الله به على رسوله ، وأخبر النبى ﷺ أن هذه الآية أحب إليه من الدنيا وما فيها ، ومتى سمى الله الحرب والمكيدة : صراطًا مستقيمًا ؟ وهل فسر هذه الآية أحد من السلف أو الخلف بذلك ؟ بل الصراط المستقيم ما جعله الله عليه من الهدى ودين الحق الذى أمره أن يخبر بأن الله تعالى هداه إليه فى قوله سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَانِى رَبِّى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ثم فسره بقوله تعالى : ﴿ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) ، ونصب دينًا هنا على البدل من الجار والمجرور : أى هدانى دينًا قيمًا . أفتراه يمكنه ههنا أن يقول : إنه الحرب والمكيدة ؟ فهذا جواب فاسد جدًا .

(وتأمل) ما جمع الله سبحانه لرسوله فى آية الفتح من أنواع العطايا وذلك خمسة أشياء أحدها : الفتح المبين ، والثانى : مغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، والثالث : هدايته الصراط المستقيم ، والرابع : إتمام نعمته عليه ، والخامس : أعطاه النصر العزيز ، وجمع - سبحانه - له بين الهدى والنصر ؛ لأن هذين الأصلين بهما كمال السعادة والفلاح ؛ فإن الهدى هو العلم بالله ودينه والعمل بمرضاته وطاعته ، فهو العلم النافع والعمل الصالح والنصر والقدرة التامة على تنفيذ دينه ، فالحجة والبيان والسيف والسنان فهو النصر بالحجة واليد ، وقهر قلوب المخالفين له بالحجة وقهر أبدانهم باليد .

---

(١) الأنعام : ١٦١

وهو - سبحانه - كثيرًا ما يجمع بين هذين الأصلين : إذ بهما تمام الدعوة وظهور دينه على الدين كله ، كقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ فى موضعين فى سورة براءة (١) وفى سورة الصف (١) . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ ، فهذا الهدى ثم قال: ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ (٢) فهذا النصر . فذكر الكتاب الهادى ، والحديد الناصر .

وقال تعالى : ﴿ أَلَمٌ * اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الفُرْقَانَ ﴾ (٣) ، فذكر إنزال الكتاب الهادى ، والفرقان وهو النصر الذى يفرق بين الحق والباطل .

وسر اقتران النصر بالهدى : أن كلا منهما يحصل به الفرقان بين الحق والباطل ، ولهذا سمى تعالى ما ينصر به عباده المؤمنين فرقانًا ، كما قال تعالى : ﴿ إن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الجَمْعَانِ ﴾ (٤) فذكر الأصلين ما أنزله على رسوله يوم الفرقان وهو يوم بدر ، وهو اليوم الذى فرق الله فيه بين الحق والباطل بنصر رسوله ودينه ، وإذلال أعدائه وخزيهم .

ومن هذا قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَرُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٥) : فالفرقان نصره له على فرعون وقومه ، والضياء والذكر التوراة هذا هو معنى الآية .

ولم يصب من قال إن الواوا زائدة ، وأن ضياء منصوب على الحال كما

(١) التوبة : ٣٣ ، الصف : ٩ (٢) الحديد : ٢٥ (٣) آل عمران : ١ - ٤
(٤) الأنفال : ٤١ (٥) الأنبياء : ٤٨

بينا فساده فى (الأمالى المكية) ، فبين أن آية الفتح تضمنت الأصلين الهدى والنصر وأنه لا يصح فيها غير ذلك البتة .

* *

وأما جوابه الثانى عن قوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ بانه لو عرّف لجعل للكفر والضلال حظًا من الاستقامة فما أدرى من أين جاء له هذا الفهم ، مع ذهنه الثاقب ، وفهمه البديع رحمه الله تعالى وما هى إلا كبوة جواد ، ونبوة صارم : أفترى قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ يفهم منه أن لغيره حظًا من الاستقامة ، وما ثم غيره إلا طرق الضلال ، وإنما الصراط المستقيم واحد ، وهو : ما هدى الله إليه أنبياءه ورسله أجمعين : وهو الصراط المستقيم : صراط الذين أنعمت عليهم ، وكذلك تعريفه فى سورة الفاتحة هل يقال : إنه يفهم منه أن لغيره حظًا من الاستقامة ؟ بل يقال تعريفه ينبئ أن لا يكون لغيره حظ من الاستقامة : فإن التعريف فى قوة الحصر ، فكأنه قيل : الذى لا صراط مستقيم سواه ، وفهم هذا الاختصاص من اللفظ أقوى من فهم المشاركة ، فتأمله هنا وفى نظائره .

* *

● الثالثة : اشتقاق الصراط :

وأما المسألة الثالثة وهى : اشتقاق الصراط ، فالمشهور أنه من صرطت الشىء أصرطه إذا بلعته بلعًا سهلاً ، فسمى الطريق صراطًا ؛ لأنه يسترط المارة فيه .

والصراط ما جمع خمسة أوصاف :

أن يكون طريقًا مستقيمًا سهلاً مسلوكًا واسعًا موصلا إلى المقصود فلا تسمى العرب الطريق المعوج صراطًا ، ولا الصعب المشق ، ولا المسدود غير

الموصل، ومن تأمل موارد الصراط فى لسانهم واستعمالهم تبين له ذلك ، قال جرير :

أمير المؤمنين على صراط إذا اعوج الموارد مستقيم

وبنوا الصراط على زنة فعال ؛ لأنه مشتمل على سالكه اشتمال الحلق على الشىء المسروط ، وهذا الوزن كثير فى المشتملات على الأشياء : كاللحاف والخمار والرداء والغطاء والفراش والكتاب إلى سائر الباب يأتى لثلاثة معان :

أحدها : المصدر ، كالقتال والضراب .

والثانى : المفعول نحو الكتاب والبناء والغراس .

والثالث : أنه يقصد به قصد الآلة التى يحصل به الفعل ويقع بها : كالخمار والغطاء والسداد لما يخمر به ويغطى ويسد به فهذا آلة محضة ، والمفعول : هو الشىء المخمر والمغطى والمسدود ومن هذا القسم الثالث : إله بمعنى مألوه .

وأما ذكره له بلفظ الطريق فى سورة الأحقاف خاصة ، فهذا حكاية الله تعالى لكلام مؤمنى الجن ، أنهم قالوا لقومهم : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

وتعبيرهم عنه ههنا بالطريق فيه نكتة بديعة وهى : أنهم قدموا قبله ذكر موسى ، وإن الكتاب الذى سمعوه مصدقًا لما بين يديه من كتاب موسى وغيره، فكان فيه كالنبأ عن رسول الله ﷺ فى قوله لقومه : ﴿ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ (٢) : أى لم أكن أول رسول بعث إلى أهل الأرض ، بل قد تقدمت رسل من الله إلى الأمم ، وإنما بعثت مصدقًا لهم بمثل ما بعثوا به من التوحيد والإيمان ، فقال مؤمنو الجن : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٣) .

---

(١) الأحقاف : ٣٠ (٢) الأحقاف : ٩ (٣) الأحقاف : ٣٠

أى إلى سبيل مطروق قد مرت عليه الرسل قبله ، وأنه ليس ببدع ، كما قال فى أول السورة نفسها ، فاقتضت البلاغة والإعجاز لفظ الطريق لأنه : فعيل بمعنى مفعول ، أى مطروق مشت عليه الرسل والأنبياء قبل ؛ فحقيق على من صدق رسل الله وآمن بهم أن يؤمن به ويصدقه ، فذكر الطريق ههنا إذًا أولى ؛ لأنه أدخل فى باب الدعوة والتنبيه على تعيين أتباعه ، والله أعلم . ثم رأيت هذا المعنى بعينه قد ذكره السهيلى فوافق فيه الخاطر الخاطر .

* *

● الرابعة : إضافة الصراط إلى الموصول المبهم :

وأما المسألة الرابعة وهى : إضافته إلى الموصول المبهم ، دون أن يقول صراط النبيين والمرسلين ففيه ثلاث فوائد :

(إحداها) : إحضار العلم وإشعار الذهن عند سماع هذا : فإن استحقاق كونهم من المنعم عليهم هو بهدايتهم إلى هذا الصراط فبه صاروا من أهل النعمة،وهذا كما يعلق الحكم بالصلة دون الاسم الجامد لما فيه من الإنعام باستحقاق ما علق عليها من الحكم بها . وهذا كقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ (١) ، ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (٢) ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ (٣) ، وهذا الباب مطرد فالإتيان بالاسم موصولاً على هذا المعنى : من ذكر الاسم الخاص .

(الفائدة الثانية) : فيه إشارة إلى أن نفى التقليد عن القلب واستشعار العلم بأن من هدى إلى هذا الصراط : فقد أنعم عليه ، فالسائل مستشعر سؤاله الهداية وطلب الإنعام من الله عليه .

والفرق بين هذا الوجه والذى قبله : أن الأول يتضمن الإخبار بأن أهل النعمة هم أهل الهداية إليه.والثانى يتضمن الطلب والإرادة وأن تكون منه .

---

(١) البقرة : ٢٧٤ (٢) الزمر : ٣٣ (٣) الأحقاف : ١٣

(الفائدة الثالثة) : أن الآية عامة فى جميع طبقات المنعم عليهم ، ولو أتى باسم خاص لكان لم يكن فيه سؤال الهداية إلى صراط جميع المنعم عليهم ، فكان فى الإتيان بالاسم العام من الفائدة أن المسؤل الهدى إلى جميع تفاصيل الطريق التى سلكها كل من أنعم عليهم : من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وهذا أجل مطلوب ، وأعظم مسؤل ولو عرف الداعى قدر هذا السؤال لجعله هجيراه ، وقرنه بأنفاسه ؛ فإنه لم يدع شيئًا من خير الدنيا والآخرة إلا تضمنه ، ولما كان بهذه المثابة فرضه الله على جميع عباده فرضًا متكررًا فى اليوم والليلة لا يقوم غيره مقامه؛ومن ثم يعلم تعين الفاتحة فى الصلاة وأنها ليس منها عوض يقوم مقامها .

* *

● الخامسة والسادسة : سر التعبير بالفعل فى أنعمت :

وأما المسألة الخامسة ، وهى : أنه قال : ﴿ الَّذِينَ أنعَمتَ عَلَيْهِمْ ﴾ ، ولم يقل المنعم عليهم ، كما قال : المغضوب عليهم ، فجوابها وجواب المسألة السادسة واحد .

وفيه فوائد عديدة :

أحدها : أن هذا جاء على الطريقة المعهودة فى القرآن ، وهى : أن أفعال الإحسان والرحمة والجود تضاف إلى الله سبحانه وتعالى ، فيذكر فاعلها منسوبة إليه ، ولا يبنى الفعل معها للمفعول ، فإذا جىء بأفعال العدل والجزاء والعقوبة حذف الفاعل وبنى الفعل معها للمفعول ؛ أدبًا فى الخطاب وإضافته إلى الله أشرف قسمى أفعاله فمنه هذه الآية : فإنه ذكر النعمة فأضافها إليه ، ولم يحذف فاعلها ، ولما ذكر الغضب حذف الفاعل ، وبنى الفعل للمفعول ، فقال : المغضوب عليهم . وقال فى الإحسان الذين أنعمت عليهم .

ونظيره قول إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ الَّذِى خَلَقَنِى

فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (١) ، فنسب الخلق والهداية والإحسان بالطعام والسقى إلى الله تعالى، ولما جاء إلى ذكر المرض ، قال : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ ﴾ ولم يقل : أمرضنى ، وقال : ﴿ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (٢) .

ومنه قوله تعالى حكاية عن مؤمنى الجن : ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِى أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِى الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ (٣) ، فنسبوا إرادة الرشد إلى الرب ، وحذفوا فاعل إرادة الشر ، وبنوا الفعل للمفعول .

ومنه قول الخضر عليه الصلاة والسلام فى السفينة : ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ فأضاف العيبَ إلى نفسه .. وقال فى الغلامين : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾ (٤) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ (٥) فحذف الفاعل وبناه للمفعول .

وقال تعالى : ﴿ وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ (٦) ، لأن فى ذكر الرفث ما يحسن منه أن لا يقترن بالتصريح بالفاعل .

ومنه : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ ﴾ (٧) ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ : أَنَ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (٨) إلى آخرها .

ومنه وهو ألطف من هذا وأدق معنى قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ ﴾ (٩) إلى آخرها . ثم قال تعالى : ﴿ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ ﴾ (١٠) ، وتأمل قوله تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا

---

(١) الشعراء : ٧٨ - ٨٠ (٢) الشعراء : ٨٠ (٣) الجن : ١٠

(٤) الكهف : ٨٢ (٥) البقرة : ١٨٧ (٦) البقرة : ٢٧٥

(٧) المائدة : ٣ (٨) الأنعام : ١٥١ (٩ ، ١٠) النساء : ٢٣ ، ٢٤

حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ (١) ، كيف صرح بفاعل التحريم فى هذا الموضع ، وقال تعالى فى حق المؤمنين : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ ﴾ (٢) .

(الفائدة الثانية) : أن الإنعام بالهداية يستوجب شكر المنعم بها ، وأصل الشكر ذكر النعم والعمل بطاعته ، وكان من شكره إبراز الضمير المتضمن لذكره تعالى الذى هو أساس الشكر وكان فى قوله تعالى : ﴿ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ من ذكره وإضافته النعمة إليه . . ما ليس فى ذكر المنعم عليهم لو قاله : فضمن هذا اللفظ الأصلين وهما : الشكر والذكر المذكوران فى قوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ ﴾ (٣) .

(الفائدة الثالثة) : أن النعمة بالهداية إلى الصراط لله وحده ، وهو المنعم بالهداية دون أن يشركه أحد فى نعمته ، فاقتضى اختصاصه بها أن يضاف إليه بوصف الإفراد فيقال : أنعمت عليهم ، أى أنت وحدك المنعم المحسن المتفضل بهذه النعم .

وأما الغضب فإن الله سبحانه غضب على من لم يكن من أهل الهداية إلى هذا الصراط ، وأمر عباده المؤمنين بمعاداتهم وذلك يستلزم غضبهم عليهم موافقة لغضب ربهم عليهم ، فموافقته تعالى تقتضى أن يغضب على من غضب عليه،ويرضى عمن رضى عنه،فيغضب لغضبه ويرضى لرضاه ، وهذا حقيقة العبودية ، واليهود قد غضب الله عليهم ، فحقيق بالمؤمنين الغضب عليهم ، فحذف فاعل الغضب ، وقال تعالى : ﴿ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ لما كان للمؤمنين نصيب من غضبهم على من غضب الله عليه بخلاف الإنعام فإنه لله وحده ، فتأمل هذه النكتة البديعة .

(الفائدة الرابعة) : أن المغضوب عليهم فى مقام الإعراض عنهم وترك الالتفات إليهم ، والإشارة إلى نفس الصفة التى لهم والاقتصار عليها .

---

(١) النساء : ١٦٠ (٢) المائدة : ٣ (٣) البقرة : ١٥٢

وأما أهل النعمة فهم فى مقام الإشارة إليهم وتعيينهم والإشارة بذكرهم .

وإذا ثبت هذا فالألف واللام فى ﴿ الْمَغْضُوبِ ﴾ ، وإن كانتا بمعنى الذين .. فليست مثل الذين فى التصريح والإشارة إلى تعيين ذات المسمى ، فإن قولك : الذين فعلوا معناه القوم الذين فعلوا ، وقولك الضاربون والمضروبون ليس فيه ما فى قولك : الذين ضربوا أو ضربوا فتأمل ذلك .. فالذين أنعمت عليهم إشارة إلى تعريفهم بأعيانهم وقصد ذواتهم ، بخلاف المغضوب عليهم فالمقصود التحذير من صفتهم والإعراض عنهم وعدم الالتفات إليهم والمعول عليه من الأجوبة ما تقدم .

* *

● **السابعة : تعدية فعل اهدنا بنفسه :**

وأما المسألة السابعة ، وهى : تعدية الفعل هنا بنفسه دون حرف إلى ، فجوابها :

أن فعل الهداية يتعدى بنفسه تارة ، وبحرف (إلى) تارة ، وبـ(اللام) ، تارة ، والثلاثة فى القرآن .

فمن المعدى بنفسه هذه الآية فى قوله تعالى : ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ (١) ، ومن المعدى بإلى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَانِى رَبِّى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٣) ، ومن المعدى باللام قوله سبحانه : قول أهل الجنة : ﴿ الْحَمْدُ لله الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا ﴾ (٤) ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (٥) .

---

(١) الفتح : ٢ (٢) الشورى : ٥٢ (٣) الأنعام : ١٦١

(٤) الأعراف : ٤٣ (٥) الإسراء : ٩

والفروق لهذه المواضع تدق جدًا عن أفهام العلماء ، ولكن نذكر قاعدة تشير إلى الفرق وهى :

أن الفعل المعدّى بالحروف المتعددة لا بد أن يكون له مع كل حرف معنى زائد على معنى الحرف الآخر ، وهذا بحسب اختلاف معانى الحروف : فإن ظهر اختلاف الحرفين ظهر الفرق ، نحو : رغبت عنه ورغبت فيه ، وعدلت إليه وعدلت عنه ، وملت إليه وعنه ، وسعيت إليه ، وبه ، وإن تفاوت معنى الأدوات عسر الفرق نحو : قصدت إليه وقصدت له ، وهديته إلى كذا وهديته لكذا .

وظاهرية النحاة يجعلون أحد الحرفين بمعنى الآخر .

وأما فقهاء أهل العربية فلا يرتضون هذه الطريقة ، بل يجعلون للفعل معنى مع الحرف ومعنى مع غيره ، فينظرون إلى الحرف وما يستدعى من الأفعال فيُشْرِبُون الفعل المتعدى به معناه ، هذه طريقة إمام الصناعة سيبويه رحمه الله تعالى ، وطريقة حذَّاق أصحابه يضمنون الفعل معنى الفعل لا يقيمون الحرف مقام الحرف ، وهذه قاعدة شريفة جليلة المقدار ، وتستدعى فطنة ولطافة فى الذهن ، وهذا نحو قوله تعالى : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ ﴾ (١) ، فإنهم يضمنون يشرب معنى يروى فيعدونه بالباء التى تطلبها ؛ فيكون فى ذلك دليل على الفعلين : أحدهما بالتصريح به والثانى بالتضمن والإشارة إليه بالحرف الذى يقتضيه مع غاية الاختصار ، وهذا من بديع اللغة ومحاسنها وكمالها . ومنه قول الشاعر فى السحاب :

* شربن بماء البحر حتى روين ثم ترفعن وصعدن *

وهذا أحسن من أن يقال يشرب منها ؛ فإنه لا دلالة فيه على الرِّىِّ ، وأن يقال يروى بها ؛ لأنه لا يدل على الشرب بصريحه بل باللزوم : فإذا قال : يشرب بها دل على الشرب بصريحه ، وعلى الرى بخلاف الباء فتأمله .

---

(١) الإنسان : ٤

ومن هذا قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ ﴾ (١) ، وفعل الإرادة ، لا يتعدى بالباء ولكن ضمن معنى يهم فيه بكذا ، وهو أبلغ من الإرادة فكان فى ذكر الباء إشارة إلى استحقاق العذاب عند الإرادة وإن لم تكن جازمة ، وهذا باب واسع لو تتبعناه لطال الكلام فيه ، ويكفى المثالان المذكوران .

فإذا عرفت هذا ففعل الهداية متى عدى بـ(إلى) تضمن الإيصال إلى الغاية المطلوبة فأتى بحرف الغاية .

ومتى عدى بـ « اللام » تضمن التخصيص بالشيء المطلوب فأتى باللام الدالة على الاختصاص والتعيين : فإذا قلت هديته لكذا فهم معنى ذكرته له وجعلته له وهيأته ونحو هذا .

وإذا تعدى بنفسه تضمن المعنى الجامع لذلك كله ، وهو : التعريف والبيان والإلهام . فالقائل إذا قال : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ هو طالب من الله أن يعرفه إياه ويبينه له ويلهمه إياه ويقدره عليه ؛ فيجعل فى قلبه علمه وإرادته والقدرة عليه ، فجرد الفعل من الحرف وأتى به مجردًا معدى بنفسه ليتضمن هذه المراتب كلها ، ولو عدى بحرف تعين معناه وتخصص بحسب معنى الحرف فتأمله فإنه من دقائق اللغة وأسرارها ، والله أعلم .

* *

● الثامنة : تخصيص أهل السعادة بالهداية :

وأما المسألة الثامنة ، وهى : أنه خص أهل السعادة بالهداية دون غيرهم ، فهذه مسألة اختلف الناس فيها ، وطال الحجاج من الطرفين ، وهى أنه :

هل لله على الكافر نعمة ، أم لا ؟ . فمن ناف محتج بهذه ، وبقوله سبحانه : ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ (٢) فخص

---

(١) الحج : ٢٥ (٢) النساء : ٦٩

هؤلاء بالإنعام ، فدل على أن غيرهم غير منعم عليه ، ولقوله لعباده المؤمنين ﴿ وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ﴾ (١) ، وبأن الإنعام ينافى الانتقام والعقوبة ، فأى نعمة على من خلق للعذاب الأبدى ؟

ومن مثبت محتج بقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ (٢) ، وقوله سبحانه لليهود : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ (٣) وهذا خطاب لهم فى حال كفرهم ، وبقوله سبحانه فى سورة النحل ، التى عدد فيها نعمه المشتركة على عباده من أولها إلى قوله : ﴿ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ * فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٤) ، وهذا نص صريح لا يحتمل صرفًا .

واحتجوا بأن البر والفاجر ، والمؤمن والكافر ، كلهم يعيش فى نعمة الله وكل أحد مُقرٌّ لله تعالى بأنه إنما يعيش فى نعمته ، وهذا معلوم بالاضطرار عند جميع أصناف بنى آدم إلا من كابر وجحد حق الله تعالى ، وكفر بنعمته .

وفصل الخطاب فى المسألة : أن النعمة المطلقة مختصة بأهل الإيمان لا يشركهم فيها سواهم ، ومطلق النعمة عام للخليقة كلهم : برهم وفاجرهم ، مؤمنهم وكافرهم .

فالنعمة المطلقة التامة : هى المتصلة بسعادة الأبد وبالنعيم المقيم ، فهذه غير مشتركة ومطلق النعمة عام مشترك .

فإذا أراد النافى سلب النعمة المطلقة أصاب ، وإن أراد سلب مطلق النعمة أخطأ .

وإن أراد المثبت إثبات النعمة المطلقة للكافر أخطأ ، وإن أراد إثبات مطلق النعمة أصاب .

---

(١) البقرة : ١٥٠
(٢) إبراهيم : ٣٤
(٣) البقرة : ١٢٢
(٤) النحل : ٨١ - ٨٣

وبهذا تتفق الأدلة ويزول النزاع ويتبين أن كل واحد من الفريقين معه خطأ وصواب والله الموفق للصواب .

وأما قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ الَّتِى أَنعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ (1) ، فإنما يذكرهم بنعمته على آبائهم ؛ ولهذا يعددها عليهم واحدة واحدة .

بأن أنجاهم من آل فرعون ، وأن فرق بهم البحر ، وأن وعد موسى أربعين ليلة فضلوا بعده ، ثم تاب عليهم وعفا عنهم ، وبأن ظلل عليهم الغمام ، وأنزل عليهم المن والسلوى . . إلى غير ذلك من نعمه التى يعددها عليهم ، وإنما كانت لأسلافهم وآبائهم فأمرهم أن يذكروها ؛ ليدعوهم ذكرهم لها إلى طاعته والإيمان برسله والتحذير من عقوبته بما عاقب به من لم يؤمن برسوله ولم ينقد لدينه وطاعته ، وكانت نعمته على آبائهم نعمة منه عليهم تستدعى منهم شكرًا ، فكيف تجعلون مكان الشكر عليها كفركم برسولى وتكذيبكم له ومعاداتكم إياه ؟ وهذا لا يدل على أن نعمته المطلقة التامة حاصلة لهم فى حال كفرهم ، والله أعلم .



● **التاسعة : التعبير بـ « غير » ، وليس بـ « لا » :**

وأما المسألة التاسعة ، وهى أنه قال : « غير » المغضوب ، ولم يقل : « لا » المغضوب عليهم ، فيقال :

لا ريب أن « لا » يعطف بها بعد الإيجاب ، كما تقول : جاءنى زيد لا عمرو ، وجاءنى العالم لا الجاهل .

وأما « غير » فهى تابع لما قبلها ، وهى صفة ليس إلا كما سيأتى . وإخراج

---

(1) البقرة : 122

الكلام هنا مخرج الصفة أحسن من إخراجه مخرج العطف ؛ وهذا إنما يعلم إذا عرف فرق ما بين العطف فى هذا الموضع والوصف فنقول :

* لو أخرج الكلام مخرج العطف ، وقيل : صراط الذين أنعمت عليهم « لا » المغضوب عليهم .. لم يكن فى العطف بها أكثر من نفى إضافة الصراط إلى المغضوب عليهم ، كما هو مقتضى العطف ، فإنك إذا قلت : جاءنى العالم لا الجاهل .. لم يكن فى العطف أكثر من نفى المجىء عن الجاهل وإثباته للعالم .

وأما الإتيان بلفظ « غير » فهى صفة لما قبلها ، فأفاد الكلام معها وصفهم بشيئين : أحدهما : أنهم منعم عليهم . والثانى : أنهم غير مغضوب عليهم ؛ فأفاد ما يفيد العطف مع زيادة الثناء عليهم ومدحهم ؛ فإنه يتضمن صفتين : صفة ثبوتية وهى : كونهم منعمًا عليهم ، وصفة سلبية ، وهى : كونهم غير مستحقين لوصف الغضب ، وأنهم مغايرون لأهله ؛ ولهذا لما أريد بها هذا المعنى ، جُرّتْ صفة على المنعَم عليهم ولم تكن صفة منصوبة على الاستثناء ؛ لأنها يزول منها معنى الوصفية المقصود .

وفيها فائدة أخرى ، وهى : أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ادعوا ... أنهم هم المنعم عليهم دون أهل الإسلام ، فكأنه قيل لهم : المنعَمُ عليهم غيركم لا أنتم ، وقيل للمسلمين : المغضوبُ عليهم غيركم لا أنتم . فالإتيان بلفظة « غير » فى هذا السياق أحسن وأدل على إثبات المغايرة المطلوبة فتأمله .

وتأمل كيف قال : « المغضوب عليهم ولا الضالين » ، ولم يقل اليهود والنصارى ، مع أنهم هم الموصوفون بذلك ، تجريدًا لوصفهم بالغضب والضلال الذى به غايروا المنعم عليهم ولم يكونوا منهم بسبيل ؛ لأن الإنعام المطلق ينافى الغضب والضلال ، فلا يثبت لمغضوب عليه ولا ضال .

فتبارك من أودع كلامه من الأسرار ما يشهد بأنه تنزيل من حكيم حميد .

* *

● العاشرة : الكلام على لفظ « غير » وإضافتها :

وأما المسألة العاشرة ، وهى : جريان « غير » صفة على المعرفة ، وهى لا تتعرف بالإضافة ، ففيه ثلاثة أجوبة :

أحدها : أن « غير » هنا بدل لا صفة ، وبدل النكرة من المعرفة جائز ، وهذا فاسد من وجوه ثلاثة :

أحدها : أن باب البدل المقصود فيه الثانى ، والأول توطئة له ومهاد أمامه ، وهو المقصود بالذكر ، فقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ (١) ، المقصود هو أهل الاستطاعة خاصة ، وذكر الناس قبلهم توطئة ، وقولك : أعجبنى زيدٌ علْمُهُ إنما وقع الإعجاب على علمه ، وذكرت صاحبه توطئة لذكره . وكذا قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ﴾ (٢) المقصود إنما هو السؤال عن القتال فى الشهر الحرام ، لا عن نفس الشهر ، وهذا ظاهر جدًا فى بدل البعض وبدل الاشتمال ، ويراعى فى بدل الكل من الكل ولهذا سمى بدلاً إيذانًا بأنه المقصود ؛ فقوله تعالى : ﴿ لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ (٣) : المقصود لنسفعن بالناصية الكاذبة الخاطئة . وذكر المبدل منه توطئة لها .

وإذا عرف هذا فالمقصود هنا ذكر المنعم عليهم ، وإضافة الصراط إليهم ، ومن تمام هذا المقصود وتكميله الإخبار بمغايرتهم للمغضوب عليهم ؛ فجاء ذكر غير المغضوب مكملاً لهذا المعنى ومتممًا ومحققًا ؛ لأن أصحاب الصراط المسئول هدايته هم أهل النعمة فكونهم غير مغضوب عليهم وصف محقق ، وفائدته فائدة الوصف المبين للموصوف المكمل له وهذا واضح .

الوجه الثانى : أن البدل يجرى مجرى توكيد المبدل وتكريره وتثنيته ، ولهذا كان فى تقدير تكرار العامل وهو المقصود بالذكر كما تقدم : فهو الأول

---

(١) آل عمران : ٩٧ (٢) البقرة : ١٨٩ (٣) العلق : ١٥ ، ١٦

بعينه ذاتًا ووصفًا ، وإنما ذكر بوصف آخر مقصود بالذكر كقوله سبحانه : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ ولهذا يحسن الاقتصار عليه دون الأول ، ولا يكون مخلاً بالكلام : ألا ترى أنك لو قلت فى غير القرآن : لله حج البيت على من استطاع إليه السبيل لكان كاملاً مستقيمًا لا خلل فيه . ولو قلت فى دعائك ، رب اهدنى صراط من أنعمت عليه من عبادك لكان مستقيمًا ؟ وإذا كان كذلك فلو قدر الاقتصار على (غير) وما فى حيزها لاختل الكلام وذهب معظم المقصود منه ؛ إذ المقصود إضافة الصراط إلى الذين أنعم الله عليهم لا إضافته إلى غير المغضوب عليهم ؛ بل أتى بلفظ : (غير) زيادة فى وصفهم والثناء عليهم فتأمله .

الوجه الثالث : أن غير لا يعقل ورودها بدلاً ، وإنما ترد استثناء أو صفة أو حالاً ، وسر ذلك : أنها لم توضع مستقلة بنفسها بل لا تكون إلا تابعة لغيرها ، ولهذا قلما يقال : جاءنى غير زيد ومررت بغير عمرو . والبدل لا بد أن يكون مستقلاً بنفسه كما تبين أنه المقصود .

* *

ونكتةالفرق : أنك فى باب البدل قاصد إلى الثانى متوجه إليه ، قد جعلت الأول سلمًا ومرقاة إليه ، فهو موضع قصدك ومحط إرادتك . . وفى باب الصفة بخلاف : ذلك إنما أنت قاصد الموصوف موضح له بصفته ، فاجعل هذه النكتة معيارًا على باب البدل والوصف ، ثم زن بها « غير المغضوب عليهم » هل يصح أن يكون بدلاً أو وصفًا ؟

الجواب الثانى : أن غير ههنا صح جريانه صفة على المعرفة ؛ لأنها موصولة والموصول مبهم غير معين ، ففيه رائحة من النكرة لإبهامه : فإنه غير دال على معين ، فصلح وصفه (بغير) لقربه من النكرة ، وهذا جواب صاحب الكشاف ، قال : (فإن قلت) : كيف صح أن يقع غير صفة للمعرفة ، وهو لا يتعرف ؟

وإن أضيف إلى المعارف قلت : الذين أنعمت عليهم لا توقيت فيه فهو كقول الشاعر :

ولقـــد أمرّ على اللئيم يسبنى   فمضيتُ ثَمَّتَ قلت لا يعنينى

ومعنى قوله لا توقيت فيه : أى لا تعيين لواحد من واحد كما تعين المعرفة ، بل هو مطلق فى الجنس فجرى مجرى النكرة ، واستشهاده بالبيت معناه أن الفعل نكرة وهو يسبنى ، وقد أوقعه صفة للئيم المعرفة باللام ؛ لكونه غير معين فهو فى قوة النكرة فجاز أن ينعت بالنكرة ، وكأنه قال : على لئيم يسبنى .

وهذا استدلال ضعيف : فإن قوله يسبنى حال منه لا وصف ، والعامل فيه فعل المرور ، المعنى أمر على اللئيم سابًا لى أى : أمر عليه فى هذه الحال فأتجاوزه ، ولا أحتفل بسبه .

الجواب الثالث ، وهو الصحيح : أن (غير) ههنا قد تعرفت بالإضافة ، فإن المانع لها من تعريفها شدة إبهامها أو عمومها فى كل مغاير للمذكور ، فلا يحصل بها تعيين ؛ ولهذا تجرى صفة على النكرة فتقول : رجل غيرك يقول كذا ويفعل كذا ، فتجرى صفة للنكرة مع إضافتها إلى المعرفة ومعلوم أن هذا الإبهام يزول لوقوعها بين متضادين يذكر أحدهما ، ثم تضيفها إلى الثانى فيتعين بالإضافة ، ويزول الإبهام الذى يمنع تعريفها بالإضافة كما قال الشاعر :

نحن بنو عمرو الهجان الأزهر   النسب المعروف غير المنكر

أفلا تراه أجرى غير المنكر صفة على النسب كما أجرى عليه المعروف ، لأنهما صفتان معينتان فلا إبهام فى (غير) لأن مقابلها المعروف وهو معرفة وضده المنكر متميز متعين كتعين المعروف أعنى تعين الجنس ، وهكذا قوله تعالى : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ ، فالمنعم عليهم هم غير المغضوب عليهم ؛ فإذا كان الأول معرفة كانت (غير) معرفة لإضافتها إلى محصل متميز غير مبهم فاكتسبت منه التعريف .



وينبغى أن تتفطن ههنا لنكتة لطيفة فى (غير) تكشف لك حقيقة أمرها : فأين تكون معرفة ، وأين تكون نكرة ؟ وهى :

أن(غيرا)هى نفس ما تكون تابعة له وضد ما هى مضافة إليه : فهى واقعة على متبوعها وقوع الاسم المرادف على مرادفه ؛ فإن المعروف هو تفسير غير المنكر ، والمنعم عليهم هم غير المغضوب عليهم ، هذا حقيقة اللفظة ، فإذا كان متبوعها نكرة لم تكن إلا نكرة ، وإن أضيفت كما إذا قلت : رجل غيرك فعل كذا وكذا ، وإذا كان متبوعها معرفة لم تكن إلا معرفة ، كما إذا قيل : المحسن غير المسىء محبوب معظم عند الناس ، والبر غير الفاجر مهيب ، والعادل غير الظالم مجاب الدعوة ، فهذا لا تكون فيه (غير) إلا معرفة ، ومن ادعى فيها التنكير هنا غلط ، وقال ما لا دليل عليه إذ لا إبهام فيها بحال فتأمله .

* *

(فإن قلت) : عدم تعريفها بالإضافة له سبب آخر ، وهى : أنها بمعنى مغاير اسم فاعل من غاير كممثل بمعنى مماثل ، وشبه بمعنى مشابه ، وأسماء الفاعلين لا تعرف بالإضافة ، وكذا ما ناب عنها ، قلت : اسم الفاعل إنما لا يتعرف بالإضافة إذا أضيف إلى معموله ؛ لأن الإضافة فى تقدير الانفصال ، نحو : هذا ضارب زيد غدًا ، وليست غير بعاملة فيما بعدها عمل اسم الفاعل فى المفعول ، حتى يقال : الإضافة فى تقدير الانفصال ، بل إضافتها إضافة محضة كإضافة غيرها من النكرات ؛ ألا ترى أن قولك : غيرك بمنزلة قولك سواك ولا فرق بينهما ، والله أعلم .

* *

● الحادية عشرة : فائدة إخراج « صراط » مخرج البدل :

(وأما المسألة الحادية عشرة) وهى : ما فائدة إخراج الكلام فى قوله تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ مخرج البدل ، مع أن الأول فى نية الطرح ؟

(فالجواب) : أن قولهم الأول فى البدل فى نية الطرح كلام لا يصح أن يؤخذ على إطلاقه ؛ بل البدل نوعان :

نوع يكون الأول فيه فى نية الطرح ، وهو بدل البعض من الكل ، وبدل الاشتمال ؛ لأن المقصود هو الثانى لا الأول وقد تقدم .

ونوع لا ينوى فيه طرح الأول وهو بدل الكل من الكل ، بل يكون الثانى بمنزلة التذكير والتوكيد وتقوية النسبة مع ما تعطيه النسبة الإسنادية إليه من الفائدة المتجددة الزائدة على الأول ، فيكون فائدة البدل التوكيد والإشعار بحصول وصف المبدل للمبدل منه : فإنه لما قال سبحانه : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ فكأن الذهن طلب معرفة ما إذا كان هذا الصراط مختصًا بنا أم سلكه غيرنا ممن هداه الله ، فقال : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ ، وهذا كما إذا دللت رجلاً على طريق لا يعرفها وأردت توكيد الدلالة وتحريضه على لزومها وأن لا يفارقها ، فأنت تقول : هذه الطريق الموصلة إلى مقصودك ، ثم تزيد ذلك عنه توكيدًا وتقوية فتقول : وهى الطريق التى سلكها الناس والمسافرون وأهل النجاة ، أفلا ترى كيف أفاد وصفك لها بأنها طريق السالكين الناجين قدرًا زائدًا على وصفك لها بأنها طريق موصلة وقريبة سهلة مستقيمة ؟ فإن النفوس مجبولة على التأسى والمتابعة ، فإذا ذكر لها من تتأسى به فى سلوكها أنست واقتحمتها فتأمله .

* *

● **الثانية عشرة : تفسير المغضوب عليهم والضالين :**

(وأما المسألة الثانية عشرة) ، وهى : ما وجه تفسير المغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى مع تلازم وصفى الغضب والضلال ؟

(فالجواب) أن يقال : هذا ليس بتخصيص يقتضى نفى كل صفة عن أصحاب الصفة الأخرى ، فإن كل مغضوب عليه ضال وكل ضال مغضوب عليه . لكن ذكر كل طائفة بأشهر وصفها وأحقها بها وألصقه بها . وأن ذلك

هو الوصف الغالب عليهما ، وهذا مطابق لوصف الله اليهود بالغضب فى القرآن ، والنصارى بالضلال : فهو تفسير للآية بالصفة التى وصفهم بها فى ذلك الموضع .

أما اليهود : فقال تعالى فى حقهم : ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللهُ بَغْيًا أن يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، فَبَاؤُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (١) .

وفى تكرار هذا الغضب هنا أقوال :

أحدها : أنه غضب متكرر فى مقابلة تكرر كفرهم برسول الله ﷺ والبغى عليه ومحاربته ؛ فاستحقوا بكفرهم غضبًا وبالبغي والحرب والصد عنه غضبًا آخر . ونظيره قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ ﴾ (٢) ، فالعذاب الأول بكفرهم ، والعذاب الذى زادهم إياه بصدهم الناس عن سبيله .

القول الثانى : أن الغضب الأول بتحريفهم وتبديلهم وقتلهم الأنبياء ، والغضب الثانى بكفرهم بالمسيح .

والقول الثالث : أن الغضب الأول بكفرهم بالمسيح والغضب الثانى بكفرهم بمحمد ﷺ .

* *

والصحيح فى الآية : أن التكرار هنا ليس المراد به التثنية التى تشفع الواحد ، بل المراد غضب بعد غضب بحسب تكرر كفرهم ، وإفسادهم ، وقتلهم الأنبياء ، وكفرهم بالمسيح وبمحمد ﷺ ، ومعاداتهم لرسل الله إلى غير ذلك من الأعمال التى كل عمل منها يقتضى . غضبًا على حدته . وهذا كما فى

---

(١) البقرة : ٩٠ (٢) النحل : ٨٨

قوله تعالى : ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ (١) ، أى : كرة بعد كرة لا مرتين فقط ، وقصد التعدد فى قوله تعالى : ﴿ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ ﴾ (٢) ، أظهر . ولا ريب أن تعطيلهم ما عطلوه من شرائع التوراة وتحريفهم وتبديلهم يستدعى غضبًا ، وتكذيبهم الأنبياء يستدعى غضبًا آخر ، وقتلهم إياهم يستدعى غضبًا آخر ، وتكذيبهم المسيح وطلبهم قتله ورميهم أمه بالبهتان العظيم يستدعى غضبًا . وتكذيبهم النبى ﷺ يستدعى غضبًا ، ومحاربتهم له وأذاهم لأتباعه يقتضى غضبًا . وصدهم من أراد الدخول فى دينه عنه يقتضى غضبًا ، فهم الأمة الغضبية أعاذنا الله من غضبه ، فهى الأمة التى باءت بالغضب المضاعف المتكرر ، وكانوا أحق بهذا الاسم والوصف من النصارى .

وقال تعالى فى شأنهم : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ ، مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾ (٣) ، فهذا غضب مشفوع باللعنة والمسخ وهو أشد ما يكون من الغضب . وقال تعالى : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ (٤) .

وأما وصف النصارى بالضلال ففى قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِى دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ (٥) فهذا خطاب للنصارى ؛ لأنه فى سياق خطابه معهم بقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ

(١) الملك : ٤
(٢) البقرة : ٩٠
(٣) المائدة : ٦٠
(٤) المائدة : ٧٨ - ٨٠
(٥) المائدة : ٧٧

مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ...﴾ ... إلى قوله : ﴿ وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ (١) فوصفهم بأنهم قد ضلُّوا أولاً ، ثم أضلوا كثيرًا وهم أتباعهم ، فهذا قبل مبعث النبى ﷺ حيث ضلوا فى أمر المسيح وأضلوا أتباعهم . فلما بعث النبى ﷺ أزدادوا ضلالاً آخر بتكذيبهم له وكفرهم به فتضاعف الضلال فى حقهم .

هذا قول طائفة منهم الزمخشرى وغيره ، وهو ضعيف ؛ فإن هذا كله وصف لأسلافهم الذين هم لهم تبع : فوصفهم بثلاث صفات :

أحدها : أنهم قد ضلوا من قبلهم .

والثانى : أنهم أضلوا أتباعهم .

والثالث : أنهم ضلوا عن سواء السبيل ؛ فهذه صفات لأسلافهم الذين نهى هؤلاء عن اتباع أهوائهم فلا يصح أن يكون وصفًا للموجودين فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ؛ لأنهم هم المنهيون أنفسهم لا المنهى عنهم فتأمله . وإنما سر الآية أنها اقتضت تكرار الضلال فى النصارى ضلالاً بعد ضلال لفرط جهلهم بالحق ، وهى نظير الآية التى تقدمت فى تكرار الغضب فى حق اليهود ، ولهذا كان النصارى أخص بالضلال من اليهود .

ووجه تكرار هذا الضلال : أن الضلال قد أخطأ نفس مقصوده فيكون ضالاً فيه فيقصد مالا ينبغى أن يقصده ، ويعبد من لا ينبغى أن يعبده ، وقد يصيب مقصودًا حقًا لكن يضل فى طريق طلبه والسبيل الموصلة إليه ، فالأول ضلال فى الغاية والثانى ضلال فى الوسيلة،ثم إذا دعى غيره إلى ذلك فقد أضله .

وأسلاف النصارى اجتمعت لهم الأنواع الثلاثة ، فضلوا عن مقصودهم حيث لم يصيبوه وزعموا أن إلههم بشر : يأكل ويشرب ويبكى ، وأنه قتل وصلب وصفع ، فهذا ضلال فى نفس المقصود حيث لم يظفروا به وضلوا عن السبيل الموصلة إليه فلا اهتدوا إلى المطلوب ولا إلى الطريق الموصل إليه ،

---

(١) المائدة : ٧٢ - ٧٧

ودعوا أتباعهم إلى ذلك ؛ فضلوا عن الحق وعن طريقه ، وأضلوا كثيراً ؛ فكانوا أدخل فى الضلال من اليهود فوصفوا بأخص الوصفين .

والذى يحقق ذلك أن اليهود إنما أتوا من فساد الإرادة والحسد ، وإيثار ما كان لهم على قومهم من السحت والرياسة ، فخافوا أن يذهب بالإسلام فلم يؤتوا من عدم العلم بالحق ؛ فإنهم كانوا يعرفون أن محمداً رسول الله كما يعرفون أبناءهم ، ولهذا لم يوبخهم الله تعالى ويقرعهم إلا بإرادتهم الفاسدة من الكبر والحسد ، وإيثار السحت والبغى ، وقتل الأنبياء .

ووبخ النصارى بالضلال والجهل الذى هو عدم العلم بالحق : فالشقاء ، والكفر ، ينشأ من عدم معرفة الحق تارة ، ومن عدم إرادته والعمل بها أخرى ، يتركب منها :

فكفر اليهود نشأ من عدم إرادة الحق والعمل به وإيثار غيره عليه بعد معرفته فلم يكن ضلالاً محضاً .

وكفر النصارى نشأ من جهلهم بالحق وضلالهم فيه فإذا تبين لهم وآثروا الباطل عليه أشبهوا الأمة الغضبية ، وبقوا مغضوباً عليهم ضالين .

ثم لما كان الهدى والفلاح والسعادة لا سبيل إلى نيله إلا بمعرفة الحق وإيثاره على غيره ، وكان الجهل يمنع العبد من معرفته بالحق . والبغى يمنعه من إرادته .. كان العبد أحوج شىء إلى أن يسأل الله تعالى كل وقت أن يهديه الصراط المستقيم تعريفاً وبياناً وإرشاداً وإلهاماً وتوفيقاً وإعانة ؛ فيعلمه ويعرفه ثم يجعله مريداً له قاصداً لأتباعه ، فيخرج بذلك عن طريقة المغضوب عليهم الذين عدلوا عنه على عمد وعلم ، والضالين الذين عدلوا عنه عن جهل وضلال .

وكان السلف يقولون : من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى ، وهذا كما قالوا : فإن من فسد من العلماء فاستعمل أخلاق اليهود من تحريف الكلم عن مواضعه وكتمان ما أنزل الله إذا كان فيه فوات غرضه . وحسد من آتاه الله من فضله وطلب قتله ،

وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس ، ويدعونهم إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم .. إلى غير ذلك من الأخلاق التى ذم بها اليهود من الكفر . واللىٍّ والكتمان والتحريف والتحيل على المحارم ، وتلبيس الحق بالباطل .. فهذا شبهه باليهود ظاهر . وأما من فسد من العبّاد ، فعبد الله بمقتضى هواه لا بما بعث به رسوله ﷺ وغلا فى الشيوخ فأنزلهم منزلة الربوبية ، وجاوز ذلك إلى نوع من الحلول أو الاتحاد فشبهه بالنصارى ظاهر .

فعلى المسلم أن يبعد من هذين الشبهين غاية البعد ومن تصوّر الشبهين والوصفين ، وعلم أحوال الخلق علم ضرورته وفاقته إلى هذا الدعاء الذى ليس للعبد دعاء أنفع منه ولا أوجب منه عليه ، وأن حاجته إليه أعظم من حاجته إلى الحياة والنفس ؛ لأن غاية ما يقدر بفوتهما موته ، وهذا يحصل له بفوته شقاوة الأبد . فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين .. إنه قريب مجيب .

● الثالثة عشرة : لماذا قدم المغضوب عليهم ؟

وأما المسألة الثالثة عشرة ، وهى : تقديم المغضوب عليهم على الضالين فلوجوه عديدة . **أحدها** : أنهم متقدمون عليهم بالزمان .

الثانى : أنهم كانوا هم الذين يلون النبى ﷺ من أهل الكتابين ، فإنهم كانوا جيرانه فى المدينة . والنصارى كانت ديارهم نائية عنه ؛ ولهذا تجد خطاب اليهود والكلام معهم فى القرآن أكثر من خطاب النصارى كما فى سورة البقرة والمائدة وآل عمران ، وغيرهما من السور .

الثالث : أن اليهود أغلظ كفرًا من النصارى ، ولهذا كان الغضب أخص بهم واللعنة والعقوبة : فإن كفرهم عن عناد وبغى كما تقدم ، فالتحذير من سبيلهم والبعد منها أحق وأهم بالتقديم ، وليس عقوبة من جهل كعقوبة من علم وعاند .

الرابع : وهو أحسنها : أنه تقدم ذكر المنعم عليهم،والغضب ضد الإنعام ، والسورة هى السبع المثانى التى يذكر فيها الشىء ومقابله ، فذكر المغضوب عليهم مع المنعم عليهم فيه من الازدواج والمقابلة ما ليس فى تقديم الضالين ، فقولك : الناس منعم عليه ومغضوب عليه ، فكن من المنعم عليهم أحسن من قولك منعم عليه وضال .



● **الثالثة عشرة والرابعة عشرة** : اسم المفعول فى الغضب واسم الفاعل فى الضلال ، لماذا ؟ :

(وأما المسألة الرابعة عشرة) وهى أنه أتى فى أهل الغضب باسم المفعول وفى الضالين باسم الفاعل فجوابهما ظاهر :

فإن أهل الغضب من غضب الله عليهم وأصابهم غضبه ، فهم مغضوب عليهم ، وأما أهل الضلال فإنهم هم الذين ضلوا وآثروا الضلال واكتسبوه ، ولهذا استحقوا العقوبة عليه ، ولا يليق أن يقال ولا المضلين مبنيًا للمفعول ؛ لما فى رائحته من إقامة عذرهم ، وأنهم لم يكتسبوا الضلال من أنفسهم ، بل فُعِل فيهم .

ولا حجة فى هذا للقدرية ؛ فإنا نقول : إنهم هم الذين ضلوا وإن كان الله أضلهم ، بل فيه رد على الجبرية الذين لاينسبون إلى العبد فعلاً إلا على جهة المجاز لا الحقيقة؛فتضمنت الآية الرد عليهم كما تضمن قوله : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ الرد على القدرية ، ففى الآية إبطال قول الطائفتين ، والشهادة لأهل الحق : أنهم هم المصيبون ، وهم المثبتون للقدر توحيدًا وخلقًا والقدرة لإضافة أفعال العباد إليهم عملاً وكسبًا ، وهو متعلق الأمر والعمل . كما أن الأول متعلق الخلق والقدرة ؛ فاقتضت الآية إثبات الشرع والقدر والمعاد والنبوة ، فإن النعمة والغضب هو ثوابه وعقابه ، فالمنعم عليهم رسله وأتباعهم ليس إلا،وهدى أتباعهم إنما يكون على أيديهم ، فاقتضت إثبات النبوة بأقرب

طريق وأبينها وأدلها على عموم الحاجة وشدة الضرورة إليها ، وأنه لا سبيل للعبد أن يكون من المنعم عليهم إلا بهداية الله له ، ولا تنال هذه الهداية إلا على أيدى الرسل ، وأن هذه الهداية لها ثمرة ، وهى النعمة التامة المطلقة فى دار النعيم ، ولخلافها ثمرة ، وهى الغضب المقتضى للشقاء الأبدى .

فتأمل كيف اشتملت هذه الآية مع وجازتها واختصارها على أهم مطالب الدين وأجلها ، والله الهادى إلى سواء السبيل ، وهو أعلم .

* * *

● الخامسة عشرة والسادسة عشرة : زيادة « لا » بين المتعاطفين :

(**وأما المسألة) الخامسة عشرة** : وهى : ما فائدة زيادة لا بين المعطوف والمعطوف عليه ؟ ففى ذلك أربع فوائد :

أحدها : أن ذكرها تأكيد للنفى الذى تضمنه غير،فلولا ما فيها من معنى النفى لما عطف عليها بلا مع الواو ، فهو فى قوة (لا المغضوب عليهم ولا الضالين) أو غير المغضوب عليهم وغير الضالين .

الفائدة الثانية : أن المراد المغايرة الواقعة بين النوعين وبين كل نوع بمفرده ؛ فلو لم يذكر « لا » وقيل : غير المغضوب عليهم والضالين .. أو هم أن المراد : ما غاير المجموع المركب من النوعين لا ما غاير كل نوع بمفرده ، فإذا قيل : ولا الضالين كان صريحًا فى أن المراد صراط غير هؤلاء وغير هؤلاء .

وبيان ذلك : أنك إذا قلت : ما قام زيد وعمرو ، فإنما نفيت القيام عنهما ، ولا يلزم من ذلك نفيه عن كل واحد منهما بمفرده .

الفائدة الثالثة : رفع توهم أن الضالين وصف للمغضوب عليهم ، وأنهما صنف واحد وصفوا بالغضب والضلال ، ودخل العطف بينهما كما يدخل فى عطف الصفات بعضها على بعض ، نحو قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ (١)

---

(١) المؤمنون : ١ - ٣

إلى آخرها فإن هذه صفات للمؤمنين ومثل قوله : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۞ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى ۞ وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ (١) ونظائره . . . فلما دخلت « لا » علم أنهما صنفان متغايران مقصودان بالذكر .

وكانت « لا » أولى بهذا المعنى من غير لوجوه :

أحدها : أنها أقل حروفًا .

الثانى : التفادى من تكرار اللفظ .

الثالث : الثقل الحاصل بالنطق بغير مرتين من غير فصل إلا بكلمة مفردة ولا ريب أنه ثقيل على اللسان .

الرابع : أن(لا)إنما يعطف بها بعد النفى ، فالإتيان بها مؤذن بنفى الغضب عن أصحاب الصراط المستقيم ، كما نفى عنهم الضلال (وغير) وإن أفهمت هذا فلا أدخل فى النفى منها .

وقد عرف بهذا جواب **المسألة السادسة عشرة** ، وهى : أن (لا) إنما يعطف بها فى النفى .

❊ ❊

● السابعة عشرة والثامنة عشرة : معنى الهداية وأنواعها :

وأما المسألة السابعة عشرة ، وهى : أن الهداية هنا من أى أنواع الهدايات (٢) . . فاعلم أن أنواع الهداية أربعة :

أحدها : الهداية العامة المشتركة بين الخلق المذكورة ، فى قوله تعالى : ﴿ الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ (٣) أى أعطى كل شىء صورته التى لا يشتبه فيها بغيره ، وأعطى كل عضو شكله وهيأته ، وأعطى كل موجود خلقه المختص به ثم هداه إلى ما خلقه له من الأعمال ، وهذه هداية

---

(١) الأعلى : ١ - ٣

(٢) انتفع ونفع بهذا البيان بعض الدعاة إلى الله تعالى فأفادوا الحق والصواب فى معنى الآية .

(٣) طه : ٥٠

الحيوان المتحرك بإرادته إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره ، وهداية الجماد المسخر لما خلق له فله هداية تليق به كما أن لكل نوع من الحيوان هداية تليق به ، وإن اختلفت أنواعها وصورها ، وكذلك كل عضو له هداية تليق به : فهدى الرجلين للمشى ، واليدين للبطش والعمل ، واللسان للكلام ، والأذن للاستماع ، والعين لكشف المرئيات ، وكل عضو لما خلق له ، وهدى الزوجين من كل حيوان إلى الازدواج والتناسل ، وتربية الولد ، وهدى الولد إلى التقام الثدى عند رضعه وطلبه ، ومراتب هدايته سبحانه لا يحصيها إلا هو فتبارك الله رب العالمين ، وهدى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتًا ومن الشجر ومن الأبنية ثم تسلك سبل ربها مذللة لها لا تستعصى عليها ، ثم تأوى إلى بيوتها وهداها إلى طاعة يعسوبها وأتباعه والائتمام به أين توجه بها ، ثم هداها إلى بناء البيوت العجيبة الصنعة المحكمة البناء ومن تأمل بعض هدايته المبثوثة فى العالم شهد له بأنه الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم .

* *

وانتقل من معرفة هذه الهداية إلى إثبات النبوة : بأيسر نظر وأول وهلة وأحسن طريق وأخصرها وأبعدها من كل شبهة ، فإن من لم يهمل هذه الحيوانات سدًى ولم يتركها معطلة ، بل هداها إلى هذه الهداية التى تعجز عقول العقلاء عنها ، كيف يليق به أن يترك النوع الإنسانى الذى هو خلاصة الوجود الذى كرمه وفضله على كثير من خلقه مهملاً وسدى معطلاً لا يهديه إلى أقصى كمالاته وأفضل غاياته ، بل يتركه معطلاً لا يأمره ولا ينهاه ولا يثيبه ولا يعاقبه ؟ وهل هذا إلامناف لحكمته ونسبته له مما لا يليق بجلاله . ولهذا أنكر ذلك على من زعمه ونزه نفسه عنه ، وبين أنه يستحيل نسبة ذلك إليه وأنه يتعالى عنه ، فقال تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۞ فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ (1) فنزه نفسه عن هذا الحسبان ، فدل

---

(1) المؤمنون : ١١٥

على أنه مستقر بطلانه فى الفطر السليمة والعقول المستقيمة ، وهذا أحد ما يدل على إثبات المعاد بالعقل ، وأنه مما تظاهر عليه العقل والشرع كما هو أصح الطريقين فى ذلك .

ومن فهم هذا .. فهم سر اقتران قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ، مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم يُحْشَرُونَ ﴾ (١) ، بقوله : ﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) ، وكيف جاء ذلك فى معرض جوابهم عن هذا السؤال والإشارة به إلى إثبات النبوة ، وأن من لم يهمل أمر كل دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه بل جعلها أممًا وهداها إلى غاياتها ، ومصالحها ، كيف لا يهديكم إلى كمالكم ومصالحكم ، فهذه أحد أنواع الهداية وأعمها .

* *

النوع الثانى هداية البيان والدلالة والتعريف لنجدى الخير والشر ، وطريقى النجاة والهلاك ، وهذه الهداية لا تستلزم الهدى التام ؛ فإنها سبب وشرط لا موجب . ولهذا ينبغى الهدى معها كقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ (٣) ، أى بينا لهم وأرشدناهم ودللناهم فلم يهتدوا . ومنها قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٤) .

* *

النوع الثالث : هداية التوفيق والإلهام وهى الهداية المستلزمة للاهتداء ، فلا يتخلف عنها . وهى المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ ﴾ (٥) وفى قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى مَنْ يُضِلُّ ﴾ (٦) وفى قوله النبى ﷺ : « من يهدى الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له » ، وفى قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ (٧) .

---

(١) الأنعام : ٣٨ (٢) الأنعام : ٣٧ (٣) فصلت : ١٧
(٤) الشورى : ٥٢ (٥) فاطر : ٨ (٦) النحل : ٣٧
(٧) القصص : ٥٦

فنفى عنه هذه الهداية وأثبت له هداية الدعوة والبيان فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

الرابع : غاية هذه الهداية ، وهى : الهداية إلى الجنة والنار ، إذا سيق أهلهما إليهما ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ، تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (٢) ، وقال أهل الجنة فيها : ﴿ الْحَمْدُ لله الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا ﴾ (٣) . وقال تعالى عن أهل النار : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ (٤) .

إذا عرف هذا فالهداية المسئولة فى قوله : الصراط المستقيم إنما تتناول المرتبة الثانية والثالثة خاصة ، فهى طلب التعريف والبيان والإرشاد والتوفيق والإلهام .

(فإن قيل) كيف يطلب التعريف والبيان وهو حاصل له ، وكذلك الإلهام والتوفيق ؟ قيل : هذه هى المسألة الثامنة عشرة ، وقد أجاب عنها من أجاب : بأن المراد التثبيت ودوام الهداية ولقد أجاب وما أجاب وذكر فرعًا لا قوام له بدون أصله ، وثمرة لا وجود لها بدون حاملها .

ونحن نبين بحمد الله أن الأمر فوق ما أجاب به وأعظم من ذلك بحول الله .

فاعلم أن العبد لا يحصل له الهدى التام المطلوب إلا بعد ستة أمور ، وهو محتاج إليها لا غنى له عنها .

الأمر الأول : معرفته فى جميع ما يأتيه ويذره بكونه محبوبًا للرب تعالى مرضيًا له فيؤثره ، وكونه مغضوبًا له مسخوطًا عليه فيجتنبه ، فإن نقص من هذا العلم والمعرفة شىء نقص من الهداية التامة بحسبه .

---

(١) الشورى : ٥٢ (٢) يونس : ٩

(٣) الأعراف : ٤٣ (٤) الصافات : ٢٢ ، ٢٣

الأمر الثاني : أن يكون مريد الجميع ما يحب الله منه أن يفعله عازمًا عليه ، ومريدًا لترك جميع ما نهى الله عازمًا على تركه بعد خطوره بالبال مفصلاً وعازمًا على تركه من حيث الجملة مجملاً ، فإن نقص من إرادته لذلك شيء نقص من الهدى التام بحسب ما نقص من الإرادة .

الأمر الثالث : أن يكون قائمًا به فعلاً وتركًا ، فإن نقص من فعله شيء نقص من هداه بحسبه .

فهذه ثلاثة هي أصول فى الهداية ، ويتبعها ثلاثة هى من تمامها وكمالها :

أحدها أمور هُدِىَ إليها جملة ولم يهتد إلى تفاصيلها ، فهو محتاج إلى هداية التفصيل فيها .

الثاني أمور هُدِىَ إليها من وجه دون وجه ، فهو محتاج إلى تمام الهداية فيها لتكمل له هدايتها .

الثالث الأمور التى هُدِىَ إليها تفصيلاً من جميع وجوهها ، فهو محتاج إلى الاستمرار إلى الهداية والدوام عليها ، فهذه ستة أصول تتعلق بما يعزم على فعله وتركه .

ويتعلق بالماضى أمر سابع ، وهو : أمور وقعت منه على غير جهة الاستقامة ، فهو محتاج إلى تداركها بالتوبة منها ، وتبديلها بغيرها ، وإذا كان كذلك فربما يقال : كيف يسأل الهداية ، وهى موجودة له ؟ ثم يجاب عن ذلك : بأن المراد التثبيت والدوام عليها إذا كانت هذه المراتب الست حاصلة له بالفعل ، فحينئذ يكون سؤاله الهداية سؤال تثبيت ودوام ، فأما إذا كان ما يجهله أضعاف ما يعلمه ، وما لا يريده من رشده أكثر مما يريده ولا سبيل له إلى فعله إلا بأن يخلق الله فاعلية فيه ، فالمسئول هو أصل الهداية على الدوام تعليمًا وتوفيقًا وخلقًا للإرادة فيه ، وإقدارًا له ، وخلقًا للفاعلية وتثبيتًا له على ذلك .

فعلم أنه ليس أعظم ضرورة منه إلى سؤال الهداية أصلها وتفصيلها علمًا وعملاً والتثبيت عليها والدوام إلى الممات .

وسر ذلك : أن العبد مفتقر إلى الهداية فى كل نفس فى جميع ما يأتيه ويذره أصلاً وتفصيلاً وتثبيتًا ، ومفتقر إلى مزيد العلم بالهدى على الدوام ، فليس له أنفع ولا هو إلى شىء أحوج من سؤال الهداية ، فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم ، وأن يثبت قلوبنا على دينه (١) .

* *

● التاسعة عشرة : الضمير فى (اهدنا) :

(أما المسألة التاسعة عشرة) ، وهى : الإتيان بالضمير فى قوله (اهدنا الصراط) ضمير جمع ، فقد قال بعض الناس فى جوابه : إن كل عضو من أعضاء العبد ، وكل حاسة ظاهرة ، وباطنة مفتقرة إلى هداية خاصة ، به فأتى بصيغة الجمع تنزيلاً لكل عضو من أعضائه منزلة المسترشد الطالب لهداه .

وعرضت هذا الجواب على شيخ الإسلام ابن تيمية ، قدس الله روحه فاستدركه واستضعفه جدًا ، وهو كما قال : فإن الإنسان اسم للجملة لا لكل جزء من أجزائه وعضو من أعضائه ، والقائل إذا قال : اغفر لى وارحمنى واجبرنى وأصلحنى واهدنى . . سائل من الله ما يحصل لجملته ظاهره وباطنه فلا يحتاج أن يستشعر لكل عضو مسألة تخصه يفرد لها لفظة ، فالصواب ؛ أن يقال : هذا مطابق لقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، والإتيان بضمير الجمع فى الموضعين أحسن وأفخم ، فإن المقام مقام عبودية وافتقار إلى الرب تعالى ، وإقرار بالفاقة إلى عبوديته واستعانته وهدايته ، فأتى به بصيغة ضمير الجمع أى :

نحن معاشر عبيدك مُقِرون لك بالعبودية ، وهذا كما يقول العبد للملك المعظم شأنه : نحن عبيدك ومماليكك وتحت طاعتك ولا نخالف أمرك ،

---

(١) يجب تأمل هذا الفصل بتأن ليتدبر العبد موقفه من مولاه ويكون على وعى وتدبر ولمزيد بيان سنلحق ملحقًا عن الهداية فى آخر الكتاب لإمام الدعاة أستاذنا الشيخ الشعراوى .

فيكون هذا أحسن وأعظم موقعًا عند الملك من أن يقول : أنا عبدك ومملوكك ، ولهذا لو قال : أنا وحدى مملوكك استدعى مقته ، فإذا قال : أنا وكل من فى البلد، مماليكك وعبيدك وجند لك كان أعظم وأفخم ؛ لأن ذلك يتضمن أن عبيدك كثير جدًا ، وأنا واحد منهم ، وكلنا مشتركون فى عبوديتك ، والاستعانة بك ، وطلب الهداية منك ، فقد تضمن ذلك من الثناء على الرب بسعة مجده ، وكثرة عبيده ، وكثرة سائليه الهداية ، ما لا يتضمنه لفظ الإفراد فتأمله .

وإذا تأملت أدعية القرآن رأيت عامتها على هذا النمط نحو : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (١) ، ونحو دعاء آخر البقرة ، وآخر آل عمران ، وأولها ، وهو أكثر أدعية القرآن .



● أخيرًا : ما معنى الصراط المستقيم ؟ :

(وأما المسألة العشرون) ، وهى : ما هو الصراط المستقيم ؟ فنذكر فيه قولاً وجيزًا :

فإن الناس قد تنوعت عباراتهم فيه وترجمتهم عنه بحسب صفاته ومتعلقاته، وحقيقته شىء واحد ، وهو : طريق الله الذى نصبه لعباده على ألسن رسله ، وجعله موصلاً لعباده إليه ، ولا طريق لهم إليه سواه ، بل الطرق كلها مسدودة إلا هذا ، وهو : إفراده بالعبودية ، وإفراد رسوله بالطاعة؛ فلا يشرك به أحدًا فى عبوديته ، ولا يشرك برسوله أحدًا فى طاعته ، فيجرد التوحيد ، ويجرد متابعة الرسول ، وهذا معنى قول بعض العارفين :

إن السعادة والفلاح كله مجموع فى شيئين :

صدق محبته وحسن معاملته ، وهذا كله مضمون شهادة أن لا إله إلا الله ،

---

(١) البقرة : ٢٠١

وأن محمداً رسول الله : فأى شيء فسر به « الصراط » فهو داخل فى هذين الأصلين ونكتة ذلك ، وعقده ، أن تحبه بقلبك كله وترضيه بجهدك كله ، فلا يكون فى قلبك موضع إلا معمور بحبه ، ولا تكون لك إرادة إلا متعلقة بمرضاته . والأول يحصل بالتحقيق بشهادة أن لا إله إلا الله ، والثانى يحصل بالتحقيق بشهادة أن محمداً رسول الله ﷺ وهذا هو الهدى ودين الحق وهو معرفة الحق والعمل به ، وهو معرفة ما بعث الله به رسله والقيام به ، فقل ما شئت من العبارات التى هذا أحسنها وقطب رحاها ، وهى معنى قول من قال : علوم وأعمال ظاهرة وباطنة مستفادة من مشكاة النبوة . ومعنى قول من قال : متابعة رسول الله ظاهراً وباطناً علماً وعملاً .

ومعنى قول من قال : الإقرار لله بالوحدانية والاستقامة على أمره .

وأما من عدا هذا من الأقوال ، كقول من قال :

الصلوات الخمس ، وقول من قال : حب أبى بكر وعمر ، وقول من قال : هو أركان الإسلام الخمس ، التى بنى عليها .. فكل هذه الأقوال تمثيل وتنويع لا تفسير مطابق له ، بل هى جزء من أجزائه .. وحقيقته الجامعة ما تقدم ، والله أعلم .

* * *

الفصل الخامس

وفيه مباحث

نظرات في تفسير سورتي الْمُعَوِّذَتَيْنِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ (١) .

في تفسير المعوذتين (*) :

● المؤمنون أملهم حفظ الله ورعايته لهم .

● وفي لمحات خاطفة من نظرات ابن القيم في المعوذتين نجد :

- أنه بما يذكره في إيجاز .. ينزل الطمأنينة على القلوب .
- ويربط الخلق بخالقهم سبحانه وهديه وتعاليمه .
- ويجول في أقوال السلف والخلف منتقيًا الأصح والصحيح .
- معللاً لما يرجحه ، ويذكر ما يجول بخاطره بما يرضي أشواق الروح .

(*) الإنسان قوي الإرادة والإيمان والعزيمة لا يكون فريسة الخرافة والوهم والخوف ، يعتمد على ربه ويؤمن به حق الإيمان ، فيتخطى كل العقبات سليمًا بإذن الله تعالى والإنسان الضعيف لا يقوى على الوقوف بقدميه دون تعثر ، يخاف من خياله ، ويعيش أسير الوهم والخيال .. ما إن يقف على قدميه حتى يكبو ومن أجل هذا الإنسان الضعيف اخترت له هذا الفصل ليقف على قدميه .. ويزداد الإنسان القوي الإرادة قوة بإيمانه .

(١) استعاذة « الفلق » من حيوان وأناسيّ .

- وفى الألفاظ يذكر اشتقاقها واستعمالاتها فى ألفاظها .
- ويطمئن الإنسان إلى أن كل شىء بقضاء .
- ويشير دائمًا إلى أن الاستقامة طريق النجاة .
- وأن الله سبحانه ما ترك فى كتابه العزيز من شىء : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ ﴾ .
- ويرد توهم النّاس عامتهم وخاصتهم إلى خصائص الإسلام وأثره ، وهديه .
- ويستشهد بالأحاديث الصحيحة على ما ذكره القرآن الكريم .
- ويضع فى يد المسلمين مفتاح الأمن والأمان .

وطريقة ابن القيم فى هذا الفصل تحليل هذه الألفاظ :

يفسر الألفاظ بما اشتهرت به اللفظة ، ويختار ما يرجحه :

(الفلق) فلق بمعنى مفلوق ، وكل ما فلقه الرب فهو فلق ، وانفلق عن شيء كالحب والنوى والأرض بالنبات .

وهل هو اسم واد أو شجرة فى جهنم ؟ أو اسم من أسمائها ؟ وهو النور الذى يظهر فى النهار ؟ وإذا كان الأخير . . فنحن نستعيذ به من شر غاسق إذا وقب . فما الغاسق ؟

وهل الغاسق الليل ؟ أو دخول ظلمة الليل ؟ أو هو البرد من قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ أو هو الزمهرير الذى يقتل ببرده ؟ ويرجح أنه الظلمة ليلاً ، إذا وقب ، أى دخل فى شيء - ويناسب القمر إذا دخل فى الظلمة [1] ، ويؤيده الحديث الشريف عن عائشة - رضى الله عنها - حين أخذها النبى ﷺ ، ونظر إلى القمر ، وقال لها : « يا عائشة - استعيذى بالله من شر هذا ، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب » ، رواه الترمذى . فالليل غاسق ، والقمر غاسق . . إلخ ما ذكره .

وسبب الاستعاذة من ذلك : أن الليل محل سلطان الأرواح الشريرة والخبيثة ، وفيه تنتشر الشياطين وذكر الحديث الذى أخرجه أحمد غروب الشمس : « . . . إذا غربت الشمس انتشرت الشياطين . . » ولذا قال : « فأكفتوا صبيانكم ، واحبسوا مواشيكم ، حتى تذهب فحمة العشاء » ، وفى حديث آخر : « فإن الله يبث من خلقه ما يشاء » . . ولذا فالإيمان نور ، والكفر ظلمات ، ومآل النور نور ومستقره فى القلب المستنير ، والعكس .

* *

---

(١) تكثر فى الليل الحوادث السيئة ، وتدب الهوام والسباع واللصوص والحشرات والزواحف ، ويكثر ذلك إذا اشتدت ظلمة الليل (إذا وقب) ، والغاسق وصف الليل إذا اشتدت ظلمته ، فهو صفة لموصوف محذوف لظهوره من معنى وصفة وتنكيره للجنس، أى : جنس الليل .

* **والنفاثات فى العقد** : هن السواحر ، اللاتى يعقدن الخيوط وتنفثن فى العقد وتعين عليه الأرواح الشريرة المحبة للأذى . . وذكر النساء لأن السحر غالب فيهن . وقيل : لأن بنات لبيد بن الأعصم سحرن النبى ﷺ . . والصحيح أن الذى سحر هو لبيد نفسه ، وهل سحر النبى ؟ أم لا ؟ يرجح ابن القيم أنه سحره فيما لا يمس الرسالة وإبلاغها . . وإنما أثر السحر فيما هو من شئون الدنيا . . كالنسيان والتوهم . . . إلخ . وحين عوفى النبى من سحره . . شكر ربه وسكت ، ولم يقتص من الساحر . . حتى لا يغضب له قومه فتكون فتنة (١) .

وأنعم الله عليه وعلى المسلمين بسورتى : الفلق والناس . . رقية وحفظ وشفاء بإذن الله تعالى . . وإذا نزل بالمسلمين بلاء كانوا قدوة للدعاة من بعدهم . . وعليهم الالتجاء إلى الله تعالى وطلب الشفاء منه - والصبر على الأذى . . وفيه رفعه درجاتهم . ولم يلتفت ابن القيم إلى كلام المعتزلة وغيرهم فى إنكار السحر .

* *

والشر الرابع والأخير فى سورة الفلق ، هو : **شر الحاسد إذا حسد** . . فالشر يتحقق عند حدوث الحسد من الحاسد . . وعلم جبريل عليه السلام نبينا الرقية حين رقاه بقوله : « بسم الله أرقيك من كل شىء يؤذيك من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك » .

وخير رقية فى قراءة المعوذتين أيضًا كما جاء فى الأحاديث ، والأحاديث الأخرى فى رقى النبى ﷺ ، وهى : « كان رسول الله ﷺ إذا سَافَرَ فأقبل

---

(١) وبعض المفسرين يقولون : إن الرسول مأمون من السحر والسحرة إبطالاً لقولهم: « إن تتبعون إلا رجلاً مسحورًا » ، كما ذهب الإمام محمد الطاهر بن عاشور فى تفسيره ، وغيره ، وإنما أمر الله رسوله بالاستعاذة من شرهم ؛ لأنه ضمن له ألا يلحقه شر السحرة ، ولأن الله أعاذه منها .

الليلُ قال : « يَا أرضُ ربِّى وربُّك اللهُ ، أعوذ بالله مِن شَرِّك ، وشَرِّ ما فيك ، وشَرِّ مَا خُلِقَ فيكِ ، وشرّ ما يَدِبُّ عليك ، أعوذ بالله من أسدٍ وأسود ، ومن الحية والعقرب ، ومن ساكن البلد ، ومن والد ما ولد » .

وفى الحديث الآخر :

« أعوذ بكلمات الله التامة التى لا يجاوزها بَرٌّ ولا فاجرٌ مِنْ شَرِّ ما خلقَ وذرأ وبرأ ، ومن شَرِّ ما نزل من السماء وما يعرج فيها ، ومن شر ما ذَرأ فى الأرض وما يخرج منها ، ومن شر فتن الليل والنهار ، ومن شر كل طارق إلا طارقًا يطرق بخير يا رحمن » (*) .

* * *

(*) ملاحظة : من ود مزيدًا مما نحن بصدد الاستشهاد له فليرجع إلى « تفسير المعوذتين » للإمام ابن تيمية وابن القيم - وقد طبعا فى كتاب واحد ، وشكر الله لمن حققهما - ومن نشرهما رجاء النفع والخير ، ففيهما علم غزير ، ورأى مستنير .

المبحث الأول

أحاديث ومأثورات فى الاستعاذة :

روى مسلم فى « صحيحه »[1] من حديث قيس ابن أبى حازم عن عقبة ابن عامر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أَلَم تَرَ آيات أُنزلت الليلة لم يُرَ مِثلُهنَّ قَطُّ : ﴿ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ ، و﴿ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ .

وفى لفظ آخر - أخرجه الطبرانى فى الكبير - من رواية محمد بن إبراهيم التيمى عن عقبة أن رسول الله ﷺ قال له : « ألا أُخبِرُكَ بأفْضَلِ مَا تعوَّذَ بِهِ الْمُتَعَوِّذُونَ ؟ » قلت : بلى ، قال : « قُل : أَعُوذُ بِرَبِّ الفلق » ، و« قُلْ : أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاس » .

وفى الترمذى حدثنا قتيبة ، حدثنا ابن لهيعة ، عن يزيد بن حبيب ، عن على بن رباح ، عن عقبة بن عامر ، قال :

« أمرنى رسول الله ﷺ أن أقرأ بالْمُعَوِّذَتَيْنِ فِى دُبُرِ كُلِّ صَلاة » .. قال : هذا حديث غريب .

وفى الترمذى والنسائى وسنن أبى داود عن عبد الله بن خبيب قال :

« خرجنا فى ليلةِ مطرٍ وظُلمَةٍ نطلبُ النَّبِىَّ ﷺ لِيُصَلِّى لنا ، فأدركناه ، فقال : « قُل » . فلم أقل شيئًا ، ثم قال : « قُلْ » ، فلم أقل شيئًا ، ثم قال : « قُل » ، قلت : يا رسول الله ؛ ما أقول ؟ قال : « قُل : قُل هو اللهُ أحدٌ ، والمعوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمسى ، وحِين تُصْبِح ثلاثَ مراتٍ ، تكفيك مِنْ كُلِّ شىء » ، قال الترمذى حديث حسن صحيح .

وفى الترمذى أيضًا من حديث الجريرى ، عن أبى نضرة ، عن سعيد قال : كان رسول الله ﷺ يتعوَّذُ من الجانّ وعين الإنسان حتى نزلت المعوذتان ، فلما نزلتا أخذَهما ، وتركَ ما سواهما » .

قال : وفى الباب عن أنس وهذا حديث غريب .

---

(١) رواه مسلم ، والترمذى ، والنسائى ، وأحمد ، والبيهقى .

وفى الصحيحين عن عائشة :

« أن النبىَّ ﷺ كان إذا آوى إلى فراشه نفثَ فى كَفَّيه بقُل هو الله أحدٌ والمعوذتين جميعًا ، ثم يمسح بهما وجهَه ، وما بلغَتْ يَدَاه من جسده . قالت عائشة فلما اشتكى كان يأمرنى أن أفعل ذلك به »

قلت : هكذا رواه يونس عن الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة ، ذكره البخارى .

ورواه مالك ، عن الزهرى ، عن عروة عنها :

« أن النبى ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفثُ فلما اشتدَّ وجعُه كنتُ اقرأُ عليه ، وأمسحُ عليه بيدِه رجاء بركتها » .

وكذلك قال معمر عن الزهرى عن عروة عنها :

« أن النبى ﷺ كان ينفث على نفسه فى مرضه الذى قُبِضَ فيه بالمُعَوِّذَات ؛ فلما ثَقُلَ كنتُ أنَا أنفثُ عليه بهنّ ، وامسحُ بيده نَفْسَه لبركتها ، فسألتُ ابن شهاب كيف كان يَنْفُثُ قال : ينفثُ على يَدَيْه ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِما وَجْهَهُ » .

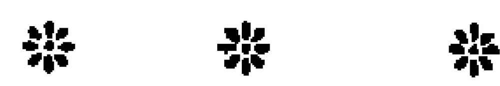
ذكره البخارى أيضًا ، وهذا هو الصواب : أن عائشة كانت تفعل ذلك والنبى ﷺ لم يأمرها ولم يمنعها من ذلك ، وأما أن يكون استرقى وطلب منها أن ترقيه فلا . (فهو الراقى لنفسه) ﷺ .

والمقصود الكلام على هاتين السورتين وبيان عظيم منفعتهما وشدة الحاجة بل الضرورة إليهما ، وأنه لا يستغنى عنهما أحدٌ قطُّ ، وأنّ لهما أثرًا خاصًا فى دفع السحر والعين وسائر الشرور ، وأن حاجة العبد إلى الاستعاذة بهاتين السورتين أعظمُ من حاجته إلى النفس والطعام والشراب واللباس ، وقد اشتملت السورتان على ثلاثة أصول - وهى أصول الاستعاذة :

أحدها : نفس الاستعاذة .

والثانية : المستعاذ به .

والثالثة : المستعاذ منه : فبمعرفة ذلك تعرف شدة الحاجة والضرورة إلى هاتين السورتين ، فلنعقد لهما ثلاثة فصول : الفصل الأول : الاستعاذة ، والثانى : فى المستعاذ به ، والثالث : فى المستعاذ منه .



المبحث الثانى

لفظ عاذ وما تصرف منه :

اعلم أن لفظ « عَاذَ » وما تصرف منها تدل على التحرز والتحصن والنجاة ، وحقيقة معناها : الهروبُ من شىء تخافُه إلى مَن يَعصمُك منه ؛ ولهذا يسمّى المستعاذ به معاذًا كما يُسمّى مَلجأ ووَزَرًا . .

فمعنى « أعوذُ » : التجئ وأعتصم وأتحرَّز . وفى أصله قولان :

أحدهما : أنه مأخوذ من الستر .

والثانى : أنه مأخوذ من لزوم المجاورة .

فأمّا من قال إنّه من الستر قال : العرب تقول للبيت الذى فى أصل الشجرة التى قد استتر بها : « عُوَّذ » بضم العين وتشديد الواو وفتحها . فكأنه لما عاذَ بالشجرة واستتر بأصلها وظلّها سمَّوه عُوَّذًا ، فكذلك العائذ قد استتر من عدوّه بمن استعاذ به منه ، واستجنَّ به منه .

* ومن قال هو لزوم المجاورة قال : العرب تقول لِلحم إذا لصق بالعظم فلم يتخلص منه : « عُوَّذ » لأنه اعتصم به واستمسك به فكذلك العائذ قد استمسك بالمستعاذ به واعتصم به ولزمه ، **والقولان حق** والاستعاذة تنتظمهما معًا :

فإن المستعيذ مستترٌ بمُعاذه متمسّك به ، معتصم به قد استمسك قلبه به ولزمه ، كما يُلزم الولدُ أباه إذا أشهر عليه عدوُّه سيفًا وقصده به ، فهرب منه فعرض له أبوه فى طريق هربه ، فإنَّه يُلقى نفسه عليه ويستمسك به أعظَم استمساك ، فكذلك العائذ قد هرب من عدُوَه الذى يَبغى هلاكَه إلى ربه ومالكه وفَرَّ إليه ، وألقَى نفسه بين يديه ، واعتصم به ، واستجارَ به ، والتجأ إليه .

وبعد : فمعنى الاستعاذة القائم بقلبه وراء هذه العبارات ، وإنما هى تمثيلٌ

وإشارةٌ وتَفهيمٌ . وإلا فما يقوم بالقلب حينئذ من الالتجاء والاعتصام والانطراح بين يدى الربّ ، والافتقار إليه ، والتذلل بين يديه أمرٌ لا تحيط به العبارة .

ونظيرُ هذا التعبيرُ عن معنى محبّته وخشيته وإجلاله ومهابته ، فإنَّ العبارةَ تقصُر عن وصف ذلك ، ولا تُدرك إلا بالاتصاف بذلك لا بمجرد الصفة والخبر .



وأصل هذا الفعل « أعْوُذُ » بتسكين العين وضم الواو ، ثم أُعِلّ بنقل حركة الواو إلى العين وتسكين الواو فقالوا : « أعُوْذُ » على أصل هذا الباب . ثم طردوا إعلاله فقالوا فى اسم الفاعل : « عائذ » وأصله « عَاوذ » فوقعت الواو بعد ألف فاعل فقلبوها همزة كما قالوا : « قائم » و« خائف » ، وقالوا فى المصدر : « عياذًا بالله » وأصله « عِوَاذًا » كلِواذ فقلبوا الواو ياء لكسرة ما قبلها ولم تحصنها حركتها لأنها قد ضعفت بإعلالها فى الفعل وقالوا : « مُسْتَعِيذ » وأصله : « مُسْتَعْوِذ » كمستخرج ، فنقلوا كسرة الواو إلى العين قبلها قلبت الواو قبلها كسرة فقلبت ياء على أصل الباب .



(فإن قلت) : فلم دخلت السين والتاء فى الأمر من هذا الفعل كقوله: « فَاسْتَعِذْ بالله » ولم تدخل فى الماضى والمضارع بل الأكثر أن يقال : « أعوذ بالله » و« عُذت بالله » دون « استعيذ » و« استعذت » ؟

قلت : السين والتاء دالّةٌ على الطلب فقوله : « استَعِذْ بالله » ، أى : اطلب العياذ به كما إذا قلت : استخر الله أى اطلب خيرته واستغفره أى اطلب مغفرته واستقله أى اطلب إقالته ؛ فدخلت فى الفعل إيذانًا لطلب هذا المعنى من المعاذ ، فإذا قال المأمور أعوذ بالله فقد امتثل ما طلب منه ؛ لأنه طلب منه الالتجاء والاعتصام ، وفرق بين نفس الالتجاء والاعتصام ، وبين

طلب ذلك ، فلما كان المستعيذ هاربًا ملتجئًا معتصمًا بالله أتى بالفعل الدال على ذلك دون الفعل الدال على طلب ذلك ، فتأمّله .

وهذا بخلاف ما إذا قيل : استغفِر اللهَ ، فقال : استغفرُ الله ، فإنه طلب منه أن يطلب المغفرة من الله ، فإذا قال : استغفر الله كان ممتثلاً لأن المعنى : أطلُبُ من الله أن يغفر لى ، وحيث أراد هذا المعنى فى الاستعاذة فلا ضير أن يأتى بالسين فيقول : أستعيذ بالله ، أى : أطلب منه أن يعيذنى ، ولكن هذا معنى غير نفس الاعتصام والالتجاء والهرب إليه .

فالأول : مخبر عن حاله وعياذه بربه ، وخبره يتضمن سؤاله ، وطلبه أن يعيذه .

والثانى : طالب سائل من ربه أن يعيذه كأنه يقول : أطلب منك أن تعيذنى فحال الأول أكمل ، ولهذا جاء عن النبى ﷺ فى امتثال هذا الأمر ، فيما رواه البخارى .

« أعوذُ بالله مِنْ الشَّيْطَان الرَّجِيم » ، « وأعوذ بكلمات الله التامات » ، و« أعوذ بعزة الله وقدرته » دون أستعيذ بل الذى علمه الله إياه أن يقول : ﴿ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ، أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ دون أستعيذ فتأمل هذه الحكمة البديعة .

* *

(فإن قلت) : فكيف جاء امتثال هذا الأمر بلفظ الآمر والمأمور به ؟ فقال :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ ، و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ .

ومعلوم أنه إذا قيل : قل الحمد لله ، وقل : سبحان الله ، فإن امتثاله أن يقول : الحمد لله وسبحان الله ، ولا يقول قل سبحان الله .

(قلت) : هذا هو السؤال الذى أورده أُبى بن كعب على النبى ﷺ بعينه ، وأجابه عنه رسول الله ﷺ ، فقال البخارى فى صحيحه :

حدثنا قتيبة ، حدثنا سفيان ، عن عاصم وعبدة ، عن زرّ قال : « سألت أبيّ بنَ كعبٍ عن المعوّذَتَين ، فقال : سألت رسولَ الله ﷺ فقال : « قيلَ لى ، فقلت » . فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ » (١) .

ثم قال حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، حدثنا عبدة بن أبى لبابة ، عن زرّ بن حبيش ؛ وحدثنا عاصم عن زر قال :

« سألت أبيّ بن كعب قلت : أبا المنذر إنّ أخاك ابن مسعود يقول كذا وكذا ، فقال : إنى سألت رسول الله ﷺ فقال : « قيل لى . فقلت : قل » ، فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ » .

(قلت) : مفعول القول محذوف وتقديره قيل لى : قل ، أو قيل لى هذا اللفظ فقلت كما قيل لى . وتحت هذا من السر : أن النبى ﷺ ليس له فى القرآن إلا بلاغه (٢) ، لا أنه هو أنشأه من قبل نفسه ، بل هو المبلّغ له عن الله . وقد قال الله له : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ فكان يقتضى البلاغ التام أن يقول : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ ، كما قال الله .

وهذا هو المعنى الذى أشار النبى ﷺ إليه بقوله : « قيل لى فقلت » أى أنى لست مبتدئًا ، بل أنا مُبلّغ أقول كما يقال لى ، وأُبلّغ كلام ربى كما أنزله إلىّ . فصلوات الله وسلامه عليه لقد بَلّغَ الرسالةَ ، وأدّى الأمانةَ ، وقال كما قيل له ، فكفانا وشفانا من المعتزلة والجهمية وإخوانهم ، ممن يقول هذا القرآن العربىّ ، وهذا النظم كلامه ابتدأ هو به ، ففى هذا الحديث أبينُ الردّ لهذا القول ، وأنه ﷺ بَلّغ القول الذى أمر بتبليغه على وجهه ولفظه ، حتى أنه لما قيل له : « قُل » ، قال هو : « قُل » ؛ لأنه مُبلّغ محضٌ وما على الرسول إلا البلاغ .

* * *

(١) وكل كلمة (قل) فى القرآن تدل على أن القرآن ليس من كلام النبى ، وإنما هو مبلغ عن ربه ؛ لأن الإنسان لا يأمر نفسه ، وإنما يأمر غيره .

(٢) كما ذكرنا من قبل .

المبحث الثالث

المستعاذ به

المستعاذ به ، وهو الله وحده رَبُّ الفلق ، ورَبُّ النَّاس، ملك الناس، إله الناس (١) الذى لا ينبغى الاستعاذةُ إلا به ، ولا يُستعاذ بأحد من خلقه ، بل هو الذى يُعيذُ المستعيذين ، ويعصمُهم ، ويمنعهم من شرّ ما استعاذوا مِن شره . وقد أخبر تعالى فى كتابه عمن استعاذ بخلقه : أن استعاذته زادته طغيانًا ورهقًا ، فقال حكاية عن مؤمنى الجن :

﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ (٢) .

جاء فى تفسير الطبرى : أنه كان الرجل من العرب فى الجاهلية إذا سافر فأمسى فى أرض قفر قال :

« أعوذُ بسيد هذا الوادى من شَرّ سفهاء قومه » .

فيبيت فى أمن وجوار منهم حتى يصبح ، أى فزاد الأنسُ الجنَّ باستعاذتهم بسادتهم رهقًا أى طغيانًا وإثمًا وشرًا ، يقولون : سُدْنا الإنسَ والجنَّ .

و« الرهق » فى كلام العرب : الإثم وغشيان المحارم ؛ فزادوهم بهذه الاستعاذة غشيانًا لما كان محظورًا من الكبر والتعاظم ، فظنوا أنهم سادوا الإنس والجن .

واحتج أهل السُّنَّة على المعتزلة فى أن كلمات الله غير مخلوقة بأن النبى صلى الله عليه وسلم استعاذ بقوله : « أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّات » ، وهو صلى الله عليه وسلم لا يستعيذ بمخلوق أبدًا . ونظيرَ ذلك قوله فيما رواه مسلم والترمذى والنسائى :

---

(١) فى هذه السورة عطف شر الحاسد على شر الساحر ، المعطوف على شر الليل .

(٢) الجن : ٦

« أعوذ برضاك من سخطك ، وبعفوك من عقوبتك »

فدل على أن رضاه وعفوه من صفاته ، وأنه غير مخلوق ، وكذلك قوله : « أعوذ بعزة الله وقدرته » ، وقوله كما جاء فى كتب السيرة : « أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات » (١)

وما استعاذ به النبى ﷺ غير مخلوق ، فإنه لا يستعيذ إلا بالله أو صفة من صفاته .

❊ ❊

وجاءت الاستعاذة فى هاتين السورتين باسم « الربّ » ، و« المليك » ، و« الإله » .

وجاءت الربوبية فيها مضافة إلى « الفلق » وإلى « الناس » ، ولا بُدّ من أن يكون ما وصف به نفسه فى هاتين السورتين يناسب الاستعاذة المطلوبة ، ويقتضى دفع الشرّ المستعاذ منه أعظم مناسبة وأبينها ، وقد قررنا فى مواضع متعددة : أن الله سبحانه يُدْعَى بأسمائه الحُسْنَى (٢) فَيُسْئل لكل مطلوب باسم يناسبه ويقتضيه .

وقد قال النبى ﷺ فى هاتين السورتين أنه : ما تعوّذ المتعوّذون بمثلهما ، فلا بد أن يكون الاسم المستعاذ به مقتضيًا للمطلوب ، وهو دفع الشر المستعاذ منه أو رفعه ، وإنما يتقرر هذا بالكلام فى الشىء المستعاذ منه فتتبين المناسبة المذكورة فنقول :

❊ ❊ ❊

(١) من دعاء النبى ﷺ حين رجع من الطائف حزينًا مما لاقى هناك ، ونصّه :
« اللّهمّ إليك أشكو ضعف قوّتى وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ! أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى مَن تكلُنى ؟ إلى بعيد يتجهّمنى ؟ أم إلى عدوّ ملكتَه أمرى ؟ إن لم يكن بك علىّ غضبٌ فلاَ أبالى . ولكن عافيتك هى أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تُنزل بى غضبك ، أو يحلّ علىّ سخطك لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

(٢) لقوله تعالى : ﴿ ولله الأسماءُ الحُسنَى فادعُوهُ بها ﴾ (الأعراف ١٨)

المبحث الرابع

الأشياء المستعاذ منها :

الشرُّ الذى يصيب العبد لا يخلو من قسمين :

(أ) **إما ذنوبٌ وقعت منه يُعَاقَب عليها** ، فيكون وقوع ذلك بفعله وقصده وسعيه ، ويكون هذا الشرُّ هو الذنوب ومُوجباتها ، وهو أعظم الشرَّيْن ، وأدومهما وأشدُّهما اتصالاً بصاحبه .

(ب) **وإما شرٌّ واقع به من غيره** ، وذلك الغير إما مُكلَّف أو غير مكلف .

والمكلف : إما نظيره وهو الإنسان أو ليس نظيره وهو الجنى .

وغير المكلف مثل : الهوام وذوات الحُمَى [1] وغيرها فتضمنت هاتان السورتان الاستعاذة من هذه الشرور كلها بأوجز لفظ وأجمعه وأدلّه على المراد وأعمه استعاذة ، بحيث لم يبق شرٌّ من الشرور إلا دخل تحت الشر المستعاذ منه فيهما . فإن سورة الفلق تضمنت الاستعاذة من أمور أربعة :

أحدها : شَرُّ المخلوقات التى لها شر عمومًا .

الثانى : شرُّ الغاسق إذا وقب .

الثالث : شرُّ النفاثات فى العقد .

الرابع : شر الحاسد إذا حسد .

فنتكلم على هذه الشرور الأربعة ومواقعها ، واتصالها بالعبد ، والتحرز منها ، قبل وقوعها ، وبماذا تدفع بعد وقوعها ، وقبل الكلام فى ذلك لا بد من بيان الشر ما هو وما حقيقته ؟ فنقول :

الشر يقال على شيئين : على الألم ، وعلى ما يُفضى إليه وليس له مُسمّى سوى ذلك ، فالشرور : هى الآلام وأسبابها=فالمعاصى ، والكفر ، والشرك ، وأنواع الظلم ، هى شرور وإن كان لصاحبها فيها نوع غرض ولذة ، لكنها

---

(١) ذوات الحمى (بضم المهملة وتخفيف الميم) ، وهو اسم كل شيء يلدغ أو يلسع كإبرة العقرب والزنبور والحية .

شرور ؛ لأنها أسباب الآلام ومفضية إليها كإفضاء سائر الأسباب إلى مسبباتها ، فترتب الألم عليها كترتب الموت على تناول السموم القاتلة ، وعلى الذبح والإحراق بالنار والخنق بالحبل وغير ذلك من الأسباب التى تصيبه مفضية إلى مسبباتها.

ولا بُدّ ما لم يمنع السببية مانعٌ أو يعارض السببَ ما هو أقوى منه ، وأشد اقتضاء لضدّه كما يعارض سببَ المعاصى قوةُ الإيمان وعظمة الحسنات الماحية وكثرتها ، فيزيد فى كميتها وكيفيتها على أسباب العذاب ، فيدفع الأقوى للأضعف . وهذا شأن جميع الأسباب المتضادة كأسباب الصحة والمرض وأسباب الضعف والقوة .

والمقصود أن هذه الأسباب التى فيها لذة ما هى شرٌّ وإن نالت بها النفس مَسرَّةً عاجلةً ، وهى بمنزلة طعام لذيذ شهىّ لكنه مسموم ، إذا تناوله الآكل لذّ لأكله ، وطابَ له مساغُه ، وبعد قليل يفعل به ما يفعل ، فهكذا المعاصى والذنوب ولا بُدّ ، حتى لو لم يخبر الشارع بذلك لكان الواقع والتجربة الخاصة والعامة من أكبر شهوده ، وهل زالت عن أحد قطُّ نعمةٌ إلا بشؤم معصيته ؟ فإن الله إذا أنعمَ على عبد بنعمة حفظَها عليه ولا يُغَيّرها عنه حتى يكون هو الساعى فى تغييرها عن نفسه ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِم وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾ (١) .

ومَن تأمل ما قصَّ اللهُ فى كتابه من أحوال الأُمم الذين أزال نعمه عنهم ، وجد سبب ذلك جميعه إنما هو مخالفة أمره وعصيان رسله .

وكذلك من نظر فى أحوال أهل عصره وما أزال الله عنهم من نعمه وجد ذلك كله من سوء عواقب الذنوب كما قيل :

إذا كُنتَ فى نِعْمَة فَارْعَهَا ‏‏‏‏ فإنَّ المَعَاصى تُزِيلُ النِّعَم

فما حُفِظَتْ نعمةُ الله بشىء قَطُّ مثل طاعته ، ولا حصلت فيها الزيادة بمثل

---

(١) الرعد ١١

شُكره ، ولا زالت عن العبد بمثل معصيته لربّه ، فإنّها نارُ النّعم التى تعمل فيها،كما تعمل النار فى الحطب اليابس ، ومن سافَر بفكره فى أحوال العالم استغنى عن تعريف غيره له . والمقصود أن هذه الأسباب شرورٌ ولا بُدَّ .

وأما كون مسبباتها شرورًا فلأنَّها آلامٌ نفسيةٌ وبدنيةٌ فيجتمع على صاحبها مع شدة الألم الحسّى ألمُ الروح بالهموم والغموم والأحزان والحسرات ، ولو تفطن العاقل اللبيب لهذا حق التفطن لأعطاه حقَّه من الحذر والجد فى الهرب ، ولكن قد ضُرب على قلبه حجاب الغفلة ليقضى الله أمرًا كان مفعولاً ؛ فلو تَيَقَّظ حق التيقظ لتقطعت نفسه فى الدنيا حسراتٍ على ما فاته من حَظّه العاجل والآجل من الله ، وإنما يظهر له هذا حقيقة الظهور عند مفارقة هذا العالم ، والإشراف والإطلاع على عالم البقاء فحينئذ يقول : ﴿ يَا لَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾ (١) ، و﴿ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطتُ فِى جَنْبِ اللهِ ﴾ (٢) .

ولما كان الشر هو الآلام وأسبابها كانت استعاذات النبى ﷺ جميعها مدارها على هذين الأصلين فكل ما استعاذ منه أو أمر بالاستعاذة منه فهو إمَّا مُؤلمٌ ، وإما سبب يُفضى إليه . فكان يتعوّذ فى آخر الصلاة من أربع ، وأمر بالاستعاذة منهن ، وهى : عذاب القبر وعذاب النار - فهذان أعظم المؤلمات - وفتنة المحيا والممات ، وفتنة المسيح الدجال ، وهذان سبب العذاب المؤلم:فالفتنة سبب العذاب ، وذكر الفتنة خصوصًا وعمومًا ، وذكر نوعى الفتنة لأنها إما فى الحياة وإما بعد الموت ففتنة الحياة قد يتراخى عنها العذاب مدة ، وأما فتنة الموت فيتصل بها العذاب من غير تراخٍ ؛ فعادت الاستعاذة إلى الألم والعذاب وأسبابها .

وهذا من آكد أدعية الصلاة حتى أوجب بعضُ السَّلَف والخلف الإعادة (٣) على من لم يَدعُ به فى التشهد الأخير.وأوجبه ابن حزم فى كل تشهد فإن لم يأت به فيه بطلت صلاته .

ومن ذلك قوله ما رواه البخارى والترمذى وأحمد :

---

(١) الفجر : ٢٤ (٢) الزمر : ٥٦ (٣) إعادة الصلاة مرة أخرى .

« اللَّهُمَّ إنى أعوذ بك من الهمّ والحزن ، والعجز والكسل ، والجبن ، والبخل ، وضلع الدين وغلبة الرجال » (١) .

فاستعاذ من ثمانية أشياء كل اثنين منها قرينان : (فالهم والحزن) : قرينان وهما من آلام الروح ومعذباتها . والفرق بينهما : أن الهَمَّ توقُّع الشر فى المستقبل ، والحزن التألّم على حصول المكروه فى الماضى أو فوات المحبوب ، وكلاهما تألم ، وعذاب يرد على الروح ، فإن تعلق بالماضى سُمّى حزنًا ، وإن تعلق بالمستقبل سمّى هما .

(والعجز والكسل) قرينان ، وهما من أسباب الألم ؛ لأنهما يستلزمان فوات المحبوب ، فالعجز يستلزم عدم القدرة ، والكسل يستلزم عدم إرادته ؛ فتتألّم الروح لفواته بحسب تعلقها به والتذاذها بإدراكه لو حصل .

(والجبن والبخل) قرينان ؛ لأنهما عدم النفع بالمال والبدن ، وهما من أسباب الألم ؛ لأنَّ الجبان تفوته محبوبات ومفرحات وملذوذات عظيمة لا تنال إلا بالبذل والشجاعة ، والبخل يحول بينه دونها أيضًا فهذان الخلقان من أعظم أسباب الآلام .

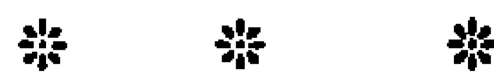
(وضلع الدين وقهر الرجال) قرينان ، وهما مؤلمان للنفس مُعذّبان لها ، أحدهما : قهرٌ بحق ، وهو ضلع الدين . والثانى : قهر بباطل ، وهو غلبة الرجال ، وأيضًا فضلع الدين ، قهر بسبب من العبد فى الغالب ، وغلبة الرجال قهر بغير اختياره .

ومن ذلك تعوذه ﷺ : « من المأثم والمغرم » رواه البخارى ومسلم .

فإنهما يسببان الألم العاجل ، ومن ذلك قوله :

« أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك » .

فالسخط سبب الألم ، والعقوبة هي الألم ، فاستعاذ من أعظم الآلام وأقوى أسبابها .



---

(١) ضلع الدين معناه : غلبة ديونه ، فلا يقدر على سدادها فيحزن .

المبحث الخامس

الحسد ، وقيده ، ومراتبه :

- لماذا قيد الحسد بقوله سبحانه : ﴿ إِذَا حَسَدَ ﴾ ؟
- وهل يحسد المؤمن ؟
- مراتب الحسد أربعة .
- الغبطة مجاز فى الحسد .
- المعوذتان دواء للمحسود .

يقول ابن القيم :

الحسد ، وقيده ، ومراتبه

قد يكون عند الرجل حسد ولكن يُخفيه ، ولا يرتب عليه أذى بوجه ما : لا بقلبه ولا بلسانه ولا بيده ، بل يجد فى قلبه شيئًا من ذلك ، ولا يعاجل أخاه إلا بما يحبُّ الله ، فهذا لا يكاد يخلو منه أحدٌ إلا من عصمه الله .

وقيل للحسن البصرى : أيَحسُدُ المؤمنُ ؟ قال : ما أنساك إخوة يوسف !

* لكن الفرق بين القوة التى فى قلبه من ذلك وهو لا يطيعها ولا يأتمر لها ، بل يعصيها طاعة لله وخوفًا وحياء منه وإجلالاً له أن يكره نعمه على عباده ؛ فيرى ذلك مخالفة لله ، وبغضًا لما يحب الله ، ومحبة لما يبغضه ، فهو يجاهد نفسه على دفع ذلك ، ويلزمها بالدعاء للمحسود وتمنى زيادة الخير له ، بخلاف ما إذا حقق ذلك وحسد ورتب على حسده مقتضاه من الأذى بالقلب واللسان والجوارح فهذا الحسد المذموم ، هذا كله حسدُ تمنّى الزوال .

الثانية : تمنّى استصحاب عدم النعمة : فهو يكره أن يُحدث الله لعبده نعمةً، بل يحب أن يبقى على حاله من جهله ، أو فقره ، أو ضعفه ، أو شتَاتِ قلبه عن الله ، أو قلة دينه ، فهو يتمنى دوام ما هو فيه من نقص وعيب .

فهذا حسد على شيء مقدر ؛ والأول حسد على شيء محقق ، وكلاهما حاسدٌ عدوُّ نعمة الله وعدوُّ عباده ، وممقوتٌ عند الله تعالي وعند الناس ، ولا يسودُ أبدًا ، ولا يُواسى ؛ فإن الناس لا يُسوِّدُون عليهم إلا من يريد الإحسان إليهم ، فأما عدوُّ نعمة الله عليهم فلا يُسوِّدُونه باختيارهم أبدًا ، إلا قهرًا يعدونه من البلاء والمصائب التى ابتلاهم الله بها ؛ فهم يبغضونه وهو يبغضهم.

* **والحسد الثالث** : حسد الغبطة ، وهو : تمنّى أن يكون له مثل حال

المحسود من غير أن تزول النعمة عنه ، فهذا لا بأس به ولا يعاب صاحبه بل هذا قريب من المنافسة وقد قال تعالى : ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ (١) .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « لا حَسَدَ إلا في اثْنَتَيْنِ : رجلٌ آتاه اللهُ مالاً وَسَلَّطَه على هَلَكَتِه في الحَقِّ ، ورجلٌ آتاه اللهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا ، ويُعَلِّمُهَا النَّاس » (٢) .

فهذا حسد غبطة ، الحاملُ لصاحبه عليه كبرُ نفسه ، وحبُّ خصال الخير ، والتشبّهُ بأهلها والدخول في جملتهم ، وأن يكون من سُبَّاقهم وعليتهم ومُصَلّيهم لا من فساكلهم (٣) ؛ فتحدث له من هذه الهمة المنافسة والمسابقةُ والمسارعة مع محبته لمن يغبطه ، وتمنّى دوام نعمة الله عليه ؛ فهذا لا يدخل في الآية بوجه ما .

فهذه السورة من أكبر أدوية المحسود ؛ فإنها تتضمَّن التوكُّل على الله ، والالتجاء إليه ، والاستعاذة به من شر حاسد النعمة . فهو مستعيذٌ بوليّ النعم ومُولّيها ، كأنه يقول : يا مَن أولاني نعمتَه ، وأسداها إليَّ ! أنا عائذٌ بك من شرّ من يُريد أن يستلبها منّي ويزيلها عني .

وهو حسبُ من تَوكَّل عليه ، وكافي من لجأ إليه ، وهو الذي يُؤْمن خوفَ الخائف ، ويُجير المستجيرَ ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

فَمَن تولاه ، واستنصرَ به ، وتوكّلَ عليه ، وانقطع بكليته إليه ، تولاه وحَفِظه وحَرَسَه وصانه .

---

(١) المطففين : ٢٦ (٢) أخرجه البخاري وأحمد في « المسند » .

(٣) فساكل جمع فِسكِل (بكسر الفاء والكاف) أو فُسكل (بضمهما) ، وهو آخر الخيل الذي يجيء في آخر الحلبة ، وأولها المجلّي ، وهو السابق ، ثم المصلّي ، ثم المسلّي ، ثم التالي ، ثم العاطف ، ثم المرتاح ، ثم المؤمل ، ثم الحظي ، ثم اللطيم ، ثم السكيت ، وهو الفسكل ، راجع اللسان .

ومَن خافه واتَّقاه أمَّنه مما يخاف ويحذر ، وجلب إليه كل ما يحتاج إليه من المنافع :

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ، وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (١) .

فلا تستبطىء نصره ورزقه وعافيته ، فإن الله بالغٌ أمره ، وقد جعل الله لكل شىء قدرًا لا يتقدَّمُ عنه ولا يتأخر ، ومن لم يَخَفْ الله أخافَه من كل شىء ، وما خافَ أحدٌ غير الله إلا لَنقص خوفه من الله ، قال تعالى :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ (٢) .

وقال :

﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

أى يُخوِّفُكُم بأوليائه ، ويُعظِّمهم فى صدوركم فلا تخافوهم وأفردونى بالمخافة أكفكم إياهم .

* * *

---

(١) الطلاق : ٢ ، ٣ (٢) النحل : ٩٨ - ١٠٠ (٣) آل عمران : ١٧٥

المبحث السادس

القول فى تفسير سورة الناس

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾

بين يدى سورة « الناس » :

- المستعاذ به هنا : هو الرب ، والملك ، والإله .
- ما معنى الإضافات الثلاث : رب ، ملك ، إله .. إلى الناس ؟
- الإضافات تذكرنا بأننا عبيد الله وليس لنا سواه .
- وتنتظم أسماء الله الحسنى .
- وتشمل قواعد الإيمان .

● الفرق بين المستعاذ منه فى « المعوّذتين » :

المستعاذ منه فى سورة « الفلق » ، هو : الشر الخارجى ، والحاصل من ظلم الغير : بالسحر ، والحسد ، والإيذاء .. أى من شر المصيبات .

والمستعاذ منه فى سورة « الناس » ، هو الشر الداخلى ، والناشىء من عيوب الوسوسة ، وما يعتمل فى القلب من حقد ، وغل وغش فى قلوب الثقلين : (الإنس والجن) .

هل لنفوس الحاسدين وأعينهم تأثير على غيرهم ؟

وهل للأرواح الشيطانية تأثير بواسطة السحر والنفث فى العقد ؟

للعلماء فى هذا وذاك آراء .

العلاج لدفع شرّ الحاسد ، والعائن ، والساحر .



● الفرق بين المستعاذ منه فى السورتين :

وهذه السورة - الناس - مشتملة على الاستعاذة من (الشر) الذى هو سبب الذنوب والمعاصى كلها : هو (الشر) الداخل فى الإنسان الذى هو منشأ العقوبات فى الدنيا والآخرة .

فسورة (الفلق) : تضمنت الاستعاذة من الشر الذى هو ظلم الغير له بالسحر والحسد ، وهو شر من خارج (*)

وسورة (الناس) : تضمنت الاستعاذة من الشر الذى هو سبب ظُلم العبد نفسَه وهو شرٌ من داخل .

(*) أقول : ومن الشر العام من المخلوقات ، والغاسق إذا وقب ، فضلاً عن السحر والحسد ، وكل ما يزعج الإنسان ، وينغص عليه حياته ، ويفسد معيشته ، وأمنه النفسى والخارجى .

فالشر **الأول** : لا يدخل تحت التكليف ولا يُطلب منه الكفُّ عنه ؛ لأنه ليس من كسبه .

والشر الثانى فى سورة (الناس) : يدخل تحت التكليف ، ويتعلق به النهى ؛ فهذا شرُّ المعائب ، والأول شر المصائب ، **والشر كله يرجع إلى العيوب** والمصائب ، ولا ثالث لهما .

فسورة الفلق تتضمن الاستعاذة من شر المصيبات ، وسورة الناس تتضمن الاستعاذة من شر العيوب التى أصلها كلها الوسوسة .



● رأى العلماء فى تأثير أعين الحاسدين :

فقد عرفت بعض ما اشتملت عليه هذه السورة من القواعد النافعة المهمة التى لا غنى للعبد عنها فى دينه ودنياه ؛ ودَلَّت على أن نفوس الحاسدين وأعيُنَهم لها تأثير ، وعلى أن الأرواح الشيطانية لها تأثير بواسطة السحر والنفث فى العقد .

وقد افترق العلماء فى هذا المقام أربع فرق :

الفرقة الأولى : أنكرت تأثير هذا وهذا ، وهم فرقتان : فرقة اعترفت بوجود النفوس الناطقة والجن ، وأنكرت تأثيرهما ألبتة . وهذا قول طائفة من المتكلمين ممن أنكر الأسباب والقُوى والتأثيرات .

وفرقة أنكرت وجودَهما بالكلية ، وقالت : لا وجود لنفس الآدمى سوى هذا الهيكل المحسوس وصفاته وأعراضه فقط ، ولا وجود للجن والشياطين سوى أعراض قائمة به .

وهذا قول كثير من ملاحدة الطبائعيين وغيرهم من الملاحدة المنتسبين إلى الإسلام ، وهو قول شذوذ من أهل الكلام الذين ذمهم السَّلَف ، وشهدوا عليهم بالبدعة والضلالة .



* الفرقة الثانية : أنكرت وجود النفس الإنسانية المفارقة للبدن ، وأقرت بوجود الجن والشياطين ، وهذا قول كثير من المتكلمين من المعتزلة وغيرهم .

* *

* الفرقة الثالثة : بالعكس أقرت بوجود النفس الناطقة المفارقة للبدن ، وأنكرت وجود الجن والشياطين ، وزعمت أنها غير خارجة عن قوى النفس وصفاتها . وهذا قول كثير من الفلاسفة الإسلاميين وغيرهم . وهؤلاء يقولون : إن ما يوجد فى العالم من التأثيرات الغريبة والحوادث الخارقة فهى : من تأثيرات النفس ، ويجعلون السحر والكهانة كله من تأثير النفس وحدها بغير واسطة شيطان منفصل .

وابن سينا وأتباعه على هذا القول . حتى أنهم يجعلون معجزات الرسل من هذا الباب ، ويقولون : إنما هى من تأثيرات النفس فى هيولى العالم ، وهؤلاء كفار بإجماع أهل الملل ، ليسوا من أتباع الرسل جملة (١) .

* *

* الفرقة الرابعة : وهم أتباع الرسل وأهل الحق أقروا بوجود النفس الناطقة المفارقة للبدن ، وأقروا بوجود الجن والشياطين ، وأثبتوا ما أثبته الله تعالي من صفاتهما وشرهما ، واستعاذوا بالله منه ، وعلموا أنه لا يعيذهم منه ولا يجيرهم إلا الله .

فهؤلاء أهل الحق ، ومَن عداهم مفرط فى الباطل ، أو معه باطل وحقٌ ، والله يهدى من يشاء إلى الصراط المستقيم .

* *

● وجه الإضافات المتتالية فى أول سورة الناس :

سورة الناس تضمنت أيضًا استعاذة ، ومستعاذًا به ، ومستعاذًا منه . فالاستعاذة تقدمت ، وأما المستعاذ به فهو الله : ﴿ رَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَٰهِ النَّاسِ ﴾ (٢) ، فذكر ربوبيته للناس ، وملكه إياهم ، وإلاهيته لهم .

---

(١) أقول : إلا إذا تابوا وأنابوا .

(٢) تكرار الناس ، الناس الناس: أظهر فى مقام الإضمار لقصد تأكيد ربوبيته سبحانه وملكه وإلآهيته للناس كلهم .

ولا بد من مناسبة فى ذكر ذلك فى الاستعاذة من الشيطان كما تقدم ، فنذكر أولاً معنى هذه الإضافات الثلاث ، ثم وجه مناسبتها لهذه الاستعاذة :

* *

● وجه الإضافات الثلاث :

(الإضافة الأولى) : ﴿ رَبِّ النَّاسِ ﴾ [1] إضافة الربوبية المتضمنة لخلقهم وتدبيرهم وتربيتهم وإصلاحهم وجلب مصالحهم وما يحتاجون إليه ، ودفع الشر عنهم وحفظهم مما يفسدهم .. هذا معنى ربوبيته لهم . وذلك يتضمن قدرته التامة ورحمته الواسعة وإحسانه ، وعلمه بتفاصيل أحوالهم ، وإجابة دعواتهم وكشف كرباتهم ..

(الإضافة الثانية) : ﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ إضافة الملك : فهو مَلِكُهم المتصرف فيهم ، وهم عبيده ومماليكه ، وهو المتصرّف لهم ، المُدبّر لهم ، كما يشاءَ النافذ القدرة فيهم ، الذى له السلطان التام عليهم ، فهو ملكهم الحق : الذى إليه مَفزعهم عند الشدائد والنوائب ، وهو مستغاثهم ومعاذهم وملجأهم ، فلا صلاح لهم ولا قيام إلا به وبتدبيره ، فليس لهم ملكٌ غيره يهربون إليه إذا دَهمهم العدوُّ ، ويستصرخون به إذا نزل العدوُّ بساحتهم .

* *

(الإضافة الثالثة) : ﴿ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴾ : إضافة الإلهية : فهو إلَههم الحقُّ ، ومعبودهم الذى لا إله لهم سواه ، ولا معبود لهم غيره . فكما أنَّه وحده هو ربُّهم ومَليكهم ، لم يشركه فى ربوبيته ، ولا فى ملكه أحدٌ ، فكذلك هو وحده إلههم ومعبودهم ، فلا ينبغى أن يجعلوا معه شريكًا فى إلهيته ، كما لا شريك معه فى ربوبيته وملكه .

وهذه طريقة القرآن يحتج عليهم بإقرارهم بهذا التوحيد على ما أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة .

= - (والناس) فى آخر السورة : لبيان أحد صنفى الذى يوسوس فى صدور الناس ، وذلك غير ماصدق كلمة الناس فى أول السورة ، وسر الإضافات أن عطف البيان يقتضى الإظهار .

(١) هو رب من يلقون الشر ليصرفهم ، ومن يلقى إليهم الشر ليُصرف عنهم .

وإذا كان وحده هو ربُّنا ومَلِكنا وإلهنا : فلا مفزع لنا فى الشدائد سواه ، ولا ملجأ لنا منه إلا إليه ، ولا معبود لنا غيره ؛ فلا ينبغى أن يُدعى ولا يُخاف ولا يُرجى ولا يُحبّ سواه ، ولا يُذَلُّ لغيره ، ولا يُخضع لسواه ، ولا يُتَوكل إلا عليه ؛ لأن من ترجوه وتخافه وتدعوه وتتوكل عليه :

إمَّا أن يكون مُربِّيك ، والقيّم بأمورك ، ومتولى شأنك وهو ربُّك فلا رب سواه .

أو تكون مملوكه وعبده الحق ، فهو مَلِك الناس حقًا وكلهم عبيده ومماليكه .

أو يكون معبودك وإلهك الذى لا تستغنى عنه طرفة عين ، بل حاجتك إليه أعظم من حاجتك إلى حياتك وروحك ، وهو الإله الحق إله الناس الذى لا إله لهم سواه . فمن كان ربهم وملكهم وإلههم فهم جديرون أن لا يستعيذوا بغيره ، ولا يستنصروا بسواه ، ولا يلجؤا إلى غير حماه : فهو كافيهم وحسبهم ، وناصرهم ووليهم ، ومتولى أمورهم جميعًا بربوبيته وملكه وإلهيته لهم ، فكيف لا يلتجئ العبدُ عند النوازل ونزول عدوه به إلى ربه ومالكه وإلهه .

فظهرت مناسبة هذه الإضافات الثلاث للاستعاذة من أعدى الأعداء ، وأعظمهم عداوةً ، وأشدهم ضررًا وأبلغهم كيدًا .

* *

ثم إنه سبحانه كَرَّر الاسم الظاهر (١) ، ولم يوقع المضمر موقعه فيقول : « رب الناس ، وملكهم ، وإلههم » .. تحقيقًا لهذا المعنى وتقوية له ، فأعاد ذكرهم عند كل اسم من أسمائه .

ولم يعطف بالواو (٢) ؛ لما فيها من الإيذان بالمغايرة ، والمقصود الاستعاذة بمجموع هذه الصفات حتى كأنها صفةٌ واحدة .

---

(١) الناس ، والناس .

(٢) وملك ، وإله .

وَقَدَّم الربوبية لعمومها وشمولها لكل مربوب .

وأَخَّر الإلهية لخصوصها ؛ لأنه سبحانه إنما هو إله مَنْ عبده ووَحَّده واتخذه دون غيره إلهًا ، فمن لم يعبده ويُوحِّده ، فليس بإلهه ، وإن كان فى الحقيقة لا إله له سواه ، ولكن ترك إلهه الحق واتخذ إلهًا غيره .

ووسط صفة الملك بين الربوبية والإلهية ؛ لأن الملك هو المتصرف بقوله ، وأمره : فهو المُطاع إذا أمر ، وملكه لهم تابع لخلقه إياهم ، فملكه من كمال ربوبيته ، وكونه إلههم الحق من كمال ملكه ؛ فربوبيته تستلزم ملكه وتقتضيه ، وملكه يستلزم إلهيته ويقتضيها : فهو الرب الحق ، الملك الحق ، الإله الحق ؛ خَلَقَهم بربوبيته ، وقهرهم بمُلكه ، واستعبدهم بإلهيته .

فتأمل هذه الجلالةَ وهذه العظمةَ التى تضمنتها هذه الألفاظ الثلاثة على أبدع نظام ، وأحسن سياق : ﴿ رَبِّ النَّاسِ ، مَلِكِ النَّاسِ ، إِلَهِ النَّاسِ ﴾ .

* *

● تضمن الإضافات لقواعد الإيمان :

وقد اشتملت هذه الإضافات الثلاث على جميع قواعد الإيمان ، وتضمنت معانى أسمائه الحسنى .

أما تضمنها لمعانى أسمائه الحسنى : فإن (الرَّبَّ) هو القادر ، الخالق ، البارىء ، المصور ، الحى ، القيوم ، العليم ، السميع ، البصير ، المحسن ، المنعم ، الجوّاد ، المعطى ، المانع ، الضّار ، النافع ، المقدّم ، المؤخّر ، الذي يضل من يشاء ، ويهدى من يشاء ، ويُسعد من يشاء ، ويُشقى ، ويُعزُّ من يشاء ، ويُذلُّ من يشاء .. إلى غير ذلك من معانى ربوبيته التى له منها ما يستحقه من الأسماء الحسنى .

* وأما (الملك) فهو الآمر ، الناهى ، المُعزّ ، المُذل ، الذى يَصرفُ أمور عباده ، كما يُحبّ ، ويُقلبهم كما يشاء ، وله من معنى الملك ما يستحقه من

الأسماء الحسنى : كالعزيز ، الجبار ، المتكبر ، الحكَم ، العدل ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، العظيم ، الجليل ، الكبير ، الحسيب ، المجيد ، الوالى ، المتعالى ، مالك الملك ، المقسط ، الجامع .. إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى (المَلِك) .

※ وأما (الإله) فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال ، فيدخل فى هذا الاسم جميع الأسماء الحسنى ؛ ولهذا كان القول الصحيح : أن (الله) أصله الإله كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه إلا من شذَّ منهم ، فإن اسم (الله) تعالى هو الجامع لجميع معانى الأسماء الحسنى والصفات العُلى : فقد تضمنت هذه الأسماء الثلاثة جميع معانى أسمائه الحسنى ، فكان المستعيذ بها جديرًا بأن يُعاذ ويُحفظ ويُمنع : من الوسواس الخناس لا يسلط عليه .

وأسرار كلام الله أجل وأعظم من أن تدركها عقول البشر .. وإنما غاية أولى العلم الاستدلال بما ظهر منها على ما وراءه ، وإن باديه إلى الخافى يسير (١) .

※ ※ ※

---

(١) قرأت قديمًا أن الكاتب الكبير عباس محمود العقاد رحمه الله رحمه واسعة .. تعجب حين قرأ هذه السورة (الناس) فى إبان شبابه وظن أن التكرار غير مفيد .. ولمانضجت قراءته ومفاهيمه الإسلامية ، قال : إنها فى قمة البلاغة والبيان ، والإعجاز ، لأن الإنسان يحتاج للتربية قبل وبعد الولادة حتى يشب عن الطوق . ثم يأتى دور الملك أو الحاكم فى التهذيب والسلوك فى افعل أو لا تفعل ، وأن الإنسان بعدئذ بحاجة إلى أن يلبى أشواق روحه وروحانيته ليكون قريبًا من الخالق المنان ، وحين يلبى الإيمان والإسلام ما يحتاجه .. يصبح بشرًا سويًا ، يرضى عن نفسه ، وعن خالقه سبحانه .

المبحث السابع

● **الوسواس الخناس ومراتب شره (*) :**

أصل الوسوسة : الحركة ، أو الصوت الخفى الذى لا يحس فيحترز منه .

فهو الإلقاء الخفى فى النفس : إما بصوت خفى لا يسمعه إلا من ألقى إليه .

وإما بغير صوت كما يوسوس الشيطان إلى العبد ، ومنه وسوسة الحلى ، وهو حركته الخفية فى الأذن والظاهر - والله أعلم - أنها سميت وسوسة لقربها وشدة مجاورتها لمحل الوسوسة من شياطين الإنس ، وهو الأذن .

ووسوسة الشيطان محلها القلب ؛ لأن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم . . قال الله تعالى : ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ ، وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ (١) .

❋ ❋

فمن وسوسته وفساده لابن آدم ، ما جاء فى الحديث الصحيح :

عن أبى سلمة بن عبد الرحمن، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ:

« إِذَا نُودِيَ بِالصَّلاةِ أَدبرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُراطٌ ، فإذا قُضِيَ أَقْبَلَ ، فإذا ثُوِّبَ بها أدبَرَ ، فإذا قُضِيَ أقبلَ ، حتى يخطُر بين الإنسان وقلبه ، فيقول : اذْكُرْ كذا أذكر كذا ، حتى لا يَدْرِى أثلاثًا صَلَّى أم أربعًا ؟

---

(١) آل عمران : ١٥٤ .

(*) الوسواس : يشمل الشياطين التى تلقى الخواطر الشريرة ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ ويشمل الكلام الخفى من الناس: أصحاب المكائد والمؤامرات للأذى.

يوسوس : مجاز لعمل الشيطان ؛ إذ ليس له مجاز كلام فى باطن الإنسان . . . وحقيقه فى تسويس الإنسان لغيره عمل السوء .

جمع الله صنفى الموسوسين (من الجنة والناس) فى قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ . . . غُروراً ﴾ الأنعام : ١١٢ ، ١١٣ .

فإذا لم يدر أثلاثًا صلى أم أربعًا سجدَ سَجدتى السَّهو » (١) .

ومن وسوسته ما ثبت فى الصحيح ، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال :

« يأتى الشيطانُ أحدَكم فيقول مَن خَلَقَ كذا ؟ مَن خلق كذا ؟ حتى يقولُ مَن خَلَقَ الله ؟ فَمَن وجدَ ذلك . . فليَستعذ بالله ولينْتَه » (٢) .

وفى الصحيح أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : يا رسولَ الله ! إن أحدَنَا ليجد فى نفسه ما لأن يَخرَّ من السماء إلى الأرض أحبُّ إليه من أن يتكلم به قال : « الحمدُ لله الّذى رَدَّ كَيْدَه إلى الوَسْوَسَة » (٣) .

ومن وسوسته أيضًا أن يشغل القلب بحديثه حتى ينسيه ما يريد أن يفعله ، ولهذا يضاف النسيان إليه إضافته إلى سببه ، قال تعالى حكاية عن صاحب موسى عليه السلام ، أنه قال : ﴿ فَإِنِّى نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ (٤) .

* وتأمل حكمة القرآن وجلالته ، كيف أوقع الاستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنه : الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس ، ولم يقل من شر وسوسته ؛ لتعم الاستعاذة شره جميعه .

فإن قوله : ﴿ من شَرِّ الْوَسْوَاسِ ﴾ يعم كل شره .

ووَصفَه بأعظمَ صفاته وأشدها شرًا وأقواها تأثيرًا وأعمها فسادًا وهى الوسوسة التى هى مبادئ الإرادة .

فإن القلب يكون فارغًا من الشر والمعصية . . فيُوسوس إليه ويُخطر الذنبَ بباله ؛ فيصوِّره لنفسه ويُمَنِّيه ويُشَهِّيه ، فيصير شهوة ويُزيِّنهاله ، ويُحَسِّنها ويُخيِّلها له فى خيال تميل نفسه إليه ؛ فيصير إرادة ، ثم لا يزال يُمثِّل ويُخيِّل ويُمنِّى ويُشهِّى ويُنسى علمه بضررها ، ويطوى عنه سوء عاقبتها ؛ فيحول بينه وبين مطالعته ، فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط ، وينسى ما وراء

---

(٢) رواه البخارى ، ومسلم وغيرهما . ومن النوادر ماروى عن أبى حنيفة - رضى الله عنه - أن رجلا قال له : وضعت كنزا فى مكان ثم نسيته . فقال الإمام بعد صلاة العشاء وسننها . . انشط فى التنفل لله بالصلاة تجد الكنز وامتثل الرجل وفى أول ركعة فى التنفل . . تذكر مكان الكنز ؛ فقطع الصلاة ونام مسرورا (لأن الشيطان أفسد عليه تنفله) وأخبر الرجل الإمام فى الصباح . . فقال الإمام : هلا أتممت النفل بقية الليل شكراً لله تعالى ؟ .

(٢) رواه البخارى ، ومسلم . (٣) فى « شعب الإيمان » . (٤) الكهف : ٦٣

ذلك فتصير الإرادة عزيمة جازمة ، فيشتد الحرص عليها من القلب ، فيبعث الجنود فى الطلب فيبعث الشيطان معهم مددًا لهم وعونًا ، فإن فتروا حرّكهم ، وإن وَنَوا أزعجهم ، كما قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ (١) .

أى تُزعجهم إلى المعاصى إزعاجًا كلما فَتروا أو وَنَوا أزعجتهم الشياطين وأزَّتْهُم (٢) وأثارتهم ، فلا تزال بالعبد تقوده إلى الذنب ، وتنظم شمل الاجتماع بألطف حيلة وأتم مكيدة :

قد رضى (إبليس) لنفسه بالقيادة لفجرة بنى آدم ، وهو الذى استكبر وأبى أن يسجد لأبيهم ، فلا بتلك النخوة والكبر ولا يرضاه أن يصير قوّادًا لكل من عصى الله ، كما قال بعضهم :

عجبت من إبليس فى تيهه وقبح ما أظهر من نخوته
تاه على آدم فى سجدة وصار قَوَّادًا لذريته

* *

فأصل كل معصية وبلاء إنما هو الوسوسة ، فلهذا وصفه بها لتكون الاستعاذة من شرها أهمَّ من كل مستعاذ منه ، وإلا فشرّه بغير الوسوسة حاصل أيضًا .

فمن شرّه إنه لصٌّ سارقٌ لأموال الناس ، فكُلّ طعام أو شراب لم يُذكر اسمُ الله عليه فله فيه حظٌّ بالسرقة والخطف ؛

وكذلك يَبيتُ فى البيت إذا لم يذكر فيه اسم الله ، فيأكل طعامَ الإنس بغير إذنهم ، ويبيت فى بيوتهم بغير أمرهم ، فيدخل سارقًا ، ويخرج مُغيرًا .

---

(١) مريم : ٨٣

(٢) وتأمل أزتهم لما فى الهمزة من الشدة أكثر مما لو قال : تهزهم هزًّا .

ويدلُّ على عوراتهم فيأمر العبدَ بالمعصية ، ثم يُلقى فى قلوب الناس يقظةً ومنامًا أنه فعل كذا وكذا .

ومن هذا : أن العبد يفعلُ الذنبَ لا يطلع عليه أحدٌ من الناس فيُصبح والناس يتحدثون به ، وما ذاك إلا أن الشيطان زَيَّنه له وألقاه فى قلبه ، ثم وسوس إلى الناس بما فعل ، وألقاه إليهم ، فأوقعه فى الذنب ثم فضحه به ؛ فالرب تعالى يستُره ، والشيطان يَجهدُ فى كشف ستره وفضيحته ، فيغترُّ العبدُ ويقول : هذا ذنب لم يره إلا الله ، ولم يشعر بأن عدُوَّه ساعٍ فى إذاعته وفضيحته ، وقلّ من يتفطن من الناس لهذه الدقيقة .

* *

* ومن شره أنه إذا نام العبد عقد على رأسه عقدًا تمنعه من اليقظة كما فى صحيح البخارى ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يَعقدُ الشيطانُ على قافيةِ رأسِ أحدكم إذا هو نامَ ثلاث عُقَد ، يضربُ على كل عُقدةٍ مكانَها : عليكَ ليلٌ طويلٌ فَارقُدْ ، فإن استيقظَ فذكرَ اللهَ انحلَّتْ عقدةٌ ، فإن توضأَ انحلَّتْ عقدةٌ ، فإن صَلَّى انحلَّتْ عُقَدُه كلُّها ، فأصبح نشيطًا طَيِّبَ النفس ، وإلا أصبحَ خبيثَ النفس كسلانَ » (١) .

* *

* ومن شره أنه يبول فى أذن العبد حتى ينام إلى الصباح ، كما ثبت عن النبى ﷺ أنه ذكر عنده رجل نام ليله حتى أصبح (٢) قال : « ذَاكَ رجُلٌ بالَ الشيطانُ فى أُذُنَيْه ، أو قَالَ فِى أُذُنِه » (٣) .

* *

* ومن شره أنه قعد لابن آدم بطُرق الخير (٤) كلها ، فما من طريق من

(١) رواه البخارى ، ومسلم ، والنسائى ، وابن ماجه ، ومالك ، وأحمد .
(٢) وفاتته صلاة الصبح قبل طلوع الشمس .
(٣) رواه البخارى ، ورواه النسائى ، وابن ماجة ، وأحمد .
(٤) جاء ذلك فى حديث رواه أحمد ، والنسائى ، ورواه البيهقى .

طُرق الخير إلا والشيطان مُرصد عليه يمنعه بجهده أن يسلُكه ، فإن خالفه وسلكه ثَبَّطَه فيه وعَوَّقَه وشوَّش عليه بالمعارضات والقواطع ، فإن عمل عمله ، وفرغ منه قَيَّض له ما يُبطل أثره ويُرده على حافرته .

* *

● **جهوده ضد بنى آدم**[1] :

ويكفى من شره أنه أقسمَ باللهِ ليقعدنَّ لبنى آدم صراطَه المستقيم ، وأقسم ليأتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم ، وعن شمائلهم . ولقد بلغ شره أن أعمل المكيدة ، وبالغ فى الحيلة حتى أخرج آدمَ من الجنة ، ثم لم يكفِه ذلك حتى استقطعَ من أولاده شُرطَةً للنار من كل ألف . . تسعمائة وتسعة وتسعين .

ثم لم يكفه ذلك حتى أعمل الحيلةَ فى إبطال دعوة الله من الأرض ، وقصد أن تكون الدعوة له ، وأن يُعبد من دون الله ، فهو ساعٍ بأقصى جهده على إطفاء نورِ الله ، وإبطال دعوته ، وإقامة دعوة الكفر والشرك ، ومحو التوحيد وأعلامه من الأرض .

* *

● **تصديه لأنبياء الله تعالى ورسله** :

ويكتفى من شره أنه تصدّى لإبراهيم خليل الرحمن ﷺ حتى رماه قومه بالمنجنيق فى النار ، فردَّ اللهُ كيدَه عليه ، وجعل النار على خليلة بردًا وسلامًا .

وتصدَّى للمسيح ﷺ حتى أراد اليهودُ قتلَه وصلبه ، فرد الله كيدَه وصانَ المسيح ورفعَه إليه .

وتصدى لزكريا ويحيى - عليهما السلام - حتى قُتلاً .

واستثار فرعون حتى زَيَّنَ له الفسادَ العظيم فى الأرض ودعوى أنه ربهم الأعلى .

---

(١) بعد كل ما تقدم من شرور وآثام .

وتصدى للنبي ﷺ وظاهرَ الكفارَ على قتله بجهده ، والله تعالى يكبته ويرده خاسئًا .

وتفلّت على النبي ﷺ بشهاب من نار يريد أن يرميه به وهو في الصلاة ، فجعل النبي ﷺ يقول : ألعنك بلعنة الله [١] .

وأعان اليهود على سحرهم [٢] للنبي ﷺ . .

فإذا كان هذا شأنه وهمّته في الشر . . فكيف الخلاص منه إلا بمعونة الله وتأييده وإعاذته ؟

ولا يمكن حصر أجناس شره فضلاً عن آحادها ، إذ كل شرّ في العالم فهو السبب فيه ، ولكن ينحصر شره في ستة أجناس لا يزال بابن آدم حتى ينال منه واحدًا منها أو أكثر .



● انحسار شره في ستة أجناس :

(الشر الأول) شر الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله ، فإذا ظفر بذلك من ابن آدم بردَ أنينُه ، واستراح من تعبه معه ، وهو أول ما يريد من العبد فلا يزال به حتى يناله منه ؛ فإذا نال ذلك صيَّره من جنده وعسكره واستنابه على أمثاله وأشكاله ، فصار من دُعاة إبليس ونوَّابه ، فإن يأس منه من ذلك ، وكان ممن سبق له الإسلام في بطن أمه نقله إلى :



● المرتبة الثانية من الشر :

وهي البدعة ، وهي أحب إليه من الفسوق والمعاصي ؛ لأن ضررها في نفس الدين ، وهو ضرر متعدّ ، وهي ذنبٌ لا يُتاب منه . وهي مخالفة لدعوة الرسل ، ودعا إلى خلاف ما جاءوا به ، وهي باب الكفر والشرك .

---

(١) رواه البخاري ، وأحمد في « المسند » .

(٢) بعض العلماء يرى أن النبي لم يسحر ، لأن الله عصمه من السحر ، راجع تفسير العلامة : ابن عاشور في تفسير التنوير والتحرير في تفسير الفلق في ملحق بآخر هذا الكتاب .

فَإِذَا نال منه البدعة وجعله من أهلها .. بقى أيضًا نائبه وداعيًا من دُعاته . فإن أعجزه من هذه المرتبة وكان العبد ممن سبقت له من الله موهبة السنة ، ومعاداة أهل البدع والضلال ، نقله إلى :

* *

● المرتبة الثالثة من الشر :

وهى الكبائر على اختلاف أنواعها : فهو أشدُّ حرصًا على أن يُوقعه فيها ، ولا سيما إن كان عالمًا متبوعًا ، فهوحريص على ذلك لينفرَ النَّاسُ عنه ، ثم يُشيع من ذنوبه ومعاصيه فى الناس ، ويستنيب منهم من يشيعها ويُذيعها .. تديُّنًا وتقربًا بزعمه إلى الله تعالى ، وهو نائب إبليس ولا يشعر ؛ فإن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم .. هذا إذا أحبُّوا إشاعتها وإذاعتها ، فكيف إذا تولَّوا هم إشاعتها وإذاعتها لا نصيحة منهم ، ولكن طاعةً لابليس ونيابةً عنه ؟ كل ذلك لينفر الناس عنه ، وعن الانتفاع به.

وذنوبُ هذا ولو بلغت عنان السماء أهونُ عند الله من ذنوب هؤلاء ؛ فإنها ظلم منه لنفسه إذا استغفرَ اللهَ وتابَ إليه ، قبلَ الله توبته ، وبَدَّل سيئاته حسنات .

وأما ذنوب أولئك فظُلم للمؤمنين وتتبُّعٌ لعورتهم ، وقصدٌ لفضيحتهم والله سبحانه بالمرصاد لا تخفى عليه كمائن الصدور ، ودسائسُ النفوس .. فإن عجز الشيطان عن هذه المرتبة نقله إلى :

* *

● المرتبة الرابعة :

وهى الصغائر التى إذا اجتمعت فربما أهلكت صاحبها ، كما قال النبى ﷺ :

« إيَّاكُم ومُحَقَّراتِ الذنوب ، فإنَّ مثل ذلك : مثل قومٍ نزلوا بفلاةٍ من الأرض »(١) .

---

(١) روى عن عدد من الصحابة ، وأخرجه أبو الشيخ ، من حديث عبد الله بن مسعود ، وانظر فيه تخريجه .

وذكر حديثًا معناه : أن كل واحد منهم جاء بعود حطب حتى أوقدوا نارًا عظيمة فطبخوا واشتَوَوا .

ولا يزال يسهل عليه أمر الصغائر حتى يستهين بها فيكون صاحبُ الكبيرة الخائفُ منها أحسنَ حالاً منه ، فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة نقله إلى :

* *

● المرتبة الخامسة :

وهى إشغاله بالمباحات التى لا ثَواب فيها ولا عقاب ، بل عاقبتُها فوت الثواب الذى ضاع عليه باشتغاله بها ، فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة وكان حافظًا لوقته شحيحًا به يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها وما يقابلها من النعيم والعذاب ، نقله إلى :

* *

● المرتبة السادسة : وهى أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه ؛ ليزيح عنه الفضيلة ، ويُفَوّته ثواب العمل الفاضل ؛ فيأمره بفعل الخير المفضول، ويحضّه عليه ويُحسنه له إذا تضمّن ترك ما هو أفضل وأعلى منه ، وقَلَّ من يتنبَّه لهذا من الناس ، فإنه إذا رأى فيه داعيًا قويًا ومحركًا إلى نوع من الطاعة لا يشك أنه طاعةٌ وقُربةٌ . . فإنه لا يكاد يقول : إن هذا الداعى من الشيطان ، فإن الشيطان لا يأمر بخير ، ويرى أن هذا خير ؛ فيقول : هذا الداعى من الله وهو معذورٌ ، ولم يصل علمُه إلى أن الشيطان يأمر بسبعين بابًا من أبواب الخير إمّا ليتوصَّل بها إلى باب واحد من الشر . وإما ليُفَوّت بها خيرًا أعظم من تلك السبعين بابًا ، وأجلّ وأفضل .

وهذا لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور من الله يقذفُه فى قلب العبد يكون سببه تجريدَ متابعة الرسول ﷺ ، وشدّة عنايته بمراتب الأعمال عند الله وأحبها إليه وأرضاها له وأنفعها للعبد ، وأعمها نصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولعباده

المؤمنين ، خاصتهم وعامتهم . ولا يعرف هذا إلا من كان من ورثة الرسول صلى الله عليه وسلم ونُوّابه فى الأُمة وخلفائه فى الأرض . وأكثر الخلق محجوبون عن ذلك ، فلا يخطُر بقلوبهم والله يمُنُّ بفضله على من يشاء من عباده .



● التشويش والتشويه بعد كل ما سبق :

فإذا أعجزه العبدُ من هذه المراتب الست ، وأعىَ عليه : سَلَّط عليه حزبَه من الإنس والجن بأنواع الأذى والتكفير والتضليل والتبديع والتحذير منه ، وقصد إخماله وإطفاءه ليشوّش عليه قلبه ، ويشغل بحربه فكره ، وليمنع الناس من الانتفاع به ، فيبقى سعيه فى تسليط المبطلين من شياطين الإنس والجن عليه ، لا يفتر ولا ينى .. فحينئذ يلبس المؤمنُ لأمةَ الحرب ، ولا يضعها عنه إلى الموت ؛ ومتى وضعها أُسِر أو أصيب ، فلا يزال فى جهاد حتى يلقى الله .

فتأمَّل هذا الفصل وتدبَّر موقعه وعظيم منفعته واجعله ميزانك تزن به الناس، وتزن به الأعمال ؛ فإنه يُطلعك على حقائق الوجود ومراتب الخلق والله المستعان وعليه التكلان ، ولو لم يكن فى هذا التعليق إلا هذا الفصل لكان نافعًا لمن تدبره ووعاه (١) .



● وما هو الخناس ؟

هو فعال من خنس يَخْنِسُ : إذا توارى واختفى .

وحقيقة اللفظ : اختفاء بعد ظهور ، فليست لمجرد الاختفاء .

---

(١) نقلنا الاشتقاق فى (الوسواس الخناس) إلى قسم اللغويات ، فراجعه هناك .

وهل هى الكواكب تخنس بالنهار فلا ترى ؟

أو هى الكواكب السبعة السيارة ترجع كل ليلة إلى جهة المشرق ؟

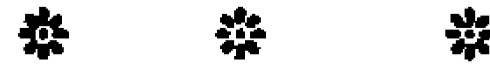
قالوا : وأصل الخنوس : الرجوع إلى الوراء .

فهو مأخوذ من الاختفاء ، والرجوع والتأخر ؛ فإن العبد إذا غفل عن ذكر ربه جثم الشيطان على قلبه ووسوس .

فإذا ذكر العبد ربه انخنس وتوارى ؛ فذكر الله كمقمعة يقمع بها الشيطان وسياط تؤذيه .

ومن ثم فشيطان المؤمن هزيل ضئيل بما يعذبه المسلم من ذكر الله ، وعمل الصالحات . .

وجاء بناء الوسواس مكرراً لتكرير الوسوسة . . وجاء بناء الخناس على وزن فعّال ؛ لأنه يتكرر منه نوع الفعل ، لأنه كلما ذكر الله انخنس . . وإذا غفل عن الذكر عاد . . فطابق اللفظ المعنى .



(*) أقول : وقد يدفع الشيطان الإنسان إلى عمل الخير والبرّ فى أبواب كثيرة حتى يستطيع من خلالها التسلط عليه بباب واحد من الشر ، يغتر به ؛ فيؤخذ من هذا الجانب ، أو يسلط عليه جنده بالأذى والوسوسة ؛ لإبعاده عن ذكر الله تعالى ، وعن الصلاة وسائر الطاعات .

المبحث الثامن

● ما يندفع به شر الحاسد ، والعائن ، والساحر :

- التعوذ بالله تعالى والتحصن به .
- تقوى الله وحفظه عند أمره ونهيه .
- الصبر على عدوه وكيده ومكره .
- التوكل على الله حق التوكل .
- فراغ القلب من الاشتغال به والتفكير فيه .
- الإقبال على الله والإخلاص له ومحبته وترضيه .
- تجريد التوبة إلى الله من الذنوب .
- التصدق والإحسان عامة .
- الإحسان إلى من يؤذيك .
- تجريد التوحيد ، واعتقاد أن النافع والضار هو الله تعالى .

يقول رحمه الله تعالى :

يندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب :

أحدها : التعوُّذ بالله من شره ، والتحصن به ، واللجأ إليه ، وهو المقصود بهذه السورة ، والله تعالى سميع لاستعاذته ، عليم بما يستعيذ منه .

والسمع هنا المراد به سمع الإجابة لا السمع العام ، فهو مثل قوله : (سمع الله لمن حمده) ، وقول الخليل ﷺ : ﴿ إنَّ ربِّى لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [(١)] .

ومرة يقرنه **بالعلم** ، ومرة **بالبصر** ، لاقتضاء حال المستعيذ ذلك ، فإنه

---

(١) إبراهيم : ٣٩

يستعيذ به من عدوّ يعلم أن الله يَراه ويعلم كيدَه وشرَّه ، فأخبر الله تعالى هذا المستعيذ أنه سميعٌ لاستعاذته ، أى : مجيب عليم بكيد عدُوّه يراه ويبصره ، لينبسط أمل المستعيذ ، ويقبل بقلبه على الدعاء .

وتأمَّل حكمةَ القرآن كيف جاء فى الاستعاذة من الشيطان الذى نعلم وجوده ولا نراه ، بلفظ : « السميع العليم » فى الأعراف (١) ، وحَم السجدة (٢) ، وجاءت الاستعاذة من شر الإنس الذين يُؤنَسون ويُرَون بالأبصار ، بلفظ «السميع البصير » ، حيث يقول سبحانه :

﴿ إنَّ الَّذينَ يُجَادلُونَ فى آيَات الله بغَيْر سُلْطَان أتَاهُمْ إنْ فى صُدُورِهِمْ إلا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغيه فَاسْتَعذْ بالله إنَّهُ هُوَ السَّميعُ الْبَصيرُ ﴾ (٣) .

لأن أفعال هؤلاء (الإنس) أفعال معاينة ترى بالبصر ، وأما نزغ (الشيطان) فوساوس وخطرات يُلقيها فى القلب يتعلق بها العلمُ ؛ فأمر بالاستعاذة بالسميع العليم فيها ، وأمر بالاستعاذة بالسميع البصير فى باب ما يرى بالبصر ويدرك بالرؤية ، والله أعلم .

* *

(السبب الثانى) : تقوى الله وحفظه عند أمره ونهيه ، فمن اتقى الله تولى الله حفظه ولم يكله إلى غيره قال تعالى :

﴿ وَإِنْ تَصبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ (٤) .

وقال النبى ﷺ لعبد الله بن عباس رضى الله عنهما :

« احفَظ اللهَ يَحفَظْك ، احفَظِ اللهَ تَجدْه تُجاهَك » (٥) .

---

(١) الأعراف : ٢٠٠ (٢) فصلت : ٣٦ (٣) المؤمن : ٥٦

(٤) آل عمران : ١٢٠ (٥) حديث مشهور أخرجه البيهقى .

فمن حفظ اللهَ حفظه الله ، ووجدَه أمامه أينما توجَّه ، ومن كان الله حافظه وأمامه فممن يخاف ولمن يحذر ؟

* *

(**السبب الثالث**) : الصبر على عدوه ، وألا يقاتله ولا يشكوه ، ولا يُحدّث نفسه بأذاه أصلاً ، فما نصر على حاسده وعدوه بمثل الصبر عليه والتوكل على الله ، ولا يستطل تأخيرَه وبغيه ، فإنه كلما بغي عليه كان بغيه جُندًا وقُوَّةً للمبغى عليه المحسود يقاتل به الباغى نفسه ، وهو لا يشعر ، فبغيُه **سهام يرميها من نفسه إلى نفسه** ، ولو أرى المبغى عليه ذلك لسرَّه بغيه عليه ، ولكن لضعف بصيرته لا يرى إلا صورة البغى دون آخره ومآله ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللهُ ﴾ (١) .

فإذا كان الله قد ضمن له النصر مع أنه قد استوفى حقَّه أولاً ، فكيف بمن لم يستوف شيئًا من حقه بل بُغِي عليه ، وهو صابرٌ ، وما من الذنوب ذنبٌ أسرعُ عقوبةً من البغى وقطيعة الرحم ، وقد سبقت سُنة الله : أنه لو بَغَى جبلٌ على جبل جعلَ الباغِى منهما دكًّا .

* *

(**السبب الرابع**) : التوكل على الله ؛ فمن يتوكَّلُ على الله فهو حسبُه ، والتوكل من أقوى الأسباب التى يدفع بها العبدُ ما لا يُطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم ، وهو من أقوى الأسباب فى ذلك : فإن الله حسبُه أى كافيه ، ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدُوّه ، ولا يضرُّه إلا أذى (٢) لا بد منه : كالحر والبرد ، والجوع والعطش ، وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبدًا .

وفرق بين الأذى الذى هو فى الظاهر إيذاء له وهو فى الحقيقة إحسان إليه وإضرار بنفسه ، وبين الضرر الذى يتشفى به منه .

---

(١) الحج : ٦٠ (٢) أذى ضئيل .

قال بعض السَّلَف : جعل الله لكل عمل جزاءً من جنسه ، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده فقال سبحانه : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (١) .

ولم يقل : نؤته كذا وكذا من الأجر ، كما قال في الأعمال ، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكِّل عليه وحسبه وواقيه ، فلو توكّل العبد على الله حق توكله .. وكادته السماوات والأرض ومن فيهنّ ، لجعل له مخرجًا من ذلك وكفاه ونصره .

وقد ذكرنا حقيقة التوكل وفوائده وعظم منفعته وشدة حاجة العبد إليه في : (كتاب الفتح القدسي) ، وذكرنا هناك فساد من جعله من المقامات المعلولة ، وأنه من مقامات العوام ، وأبطلنا قوله من وجوه كثيرة ، وبيَّنَّا أنه من أَجَلّ مقامات العارفين ، وأنه كلّما علا مقامُ العبد كانت حاجتُه إلى التوكل أعظمَ وأشدَّ . وأنه على قدر إيمان العبد يكون توكّله ، وإنما المقصود هنا ذكر الأسباب التي يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر والباغي .



(السبب الخامس) : فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خَطَر له : فلا يلتفت إليه ، ولا يخافه ، ولا يملأ قلبه بالفكر فيه ، وهذا من أنفع الأدوية وأقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره ، فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليُمسكه ويؤذيه ، فإذا لم يتعرَّض له ولا تماسك هو وإياه ، بل انعزل عنه لم يقدر عليه ؛ فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه حصل الشر .

وهكذا الأرواح سواء : فإذا علق روحه وشبثها به ، وروح الحاسد الباغي متعلقة به يقظةً ومنامًا لا يفتُرُ عنه ، وهو يتمنَّى أن يتماسك الروحان ، ويتَشَبَّثا ،

---

(١) الطلاق : ٣

فإذا تعلقتْ كُلُّ روح منهما بالأخرى ، عُدِم القرارُ ، ودَامَ الشَّرُّ حتى يهلك أحدهما ؛ فإذا جبذ روحه عنه ، وصانها عن الفكر فيه والتعلق به ، وأن لا يخطره بباله ، فإذا خطر بباله بادر إلى محو ذلك الخاطر ، والاشتغال بما هو أنفع له وأولى به .. بقى الحاسد والباغى يأكل بعضه بعضًا ؛ فإن الحسد كالنار فإذا لم تجد ما تأكله أكل بعضها بعضًا (١) ، وهذا (*) باب عظيم النفع لا يلقاه إلا أصحاب النفوس الشريفة والهمم العلية .. (٢) وبين الكيس الفطن وبينه حتى يذوق حلاوته وطيبه ونعيمه : كأنه يرى من أعظم عذاب القلب والروح اشتغاله بعدوه وتعلّق روحه به ، ولا يرى شيئًا ألم لروحه من ذلك ، ولا يُصدّق بهذا إلا النفوس المطمئنة الوادعة الليّنة التى رضيت بوكالة الله لها ، وعلمت أن نصره لها خيرٌ من انتصارها هى لنفسها ، فوثقَتْ بالله ، وسكنت إليه ، واطمأنَّت به ، وعلمت أن ضمانه حقٌّ ، ووعده صدقٌ ، وأنه لا أوفى بعهده من الله ، ولا أصدق منه قيلاً . فعلمت أن نصره لها أقوى وأثبت وأدوم ، وأعظم فائدةً من نصرها هى لنفسها ، أو نصر مخلوق مثلها لها ولا يقوى على هذا إلا بالسبب السادس .

* *

(السبب السادس) : وهو الإقبال على الله والإخلاص له وجعل محبته وترضيه والإنابة إليه فى محل خواطر نفسه وأمانيها .. تدبُّ فيها دبيب تلك الخواطر شيئًا فشيئًا حتى يقهرها ويغمرها ، ويذهبها بالكلية ؛ فتبقى خواطره وهواجسه وأمانيه كلها فى محاب الرب والتقرب إليه وتملقه وترضيه واستعطافه وذكره .

(*) التغاضى عن الحاسد والشانئ .

(١) كما قال الشاعر :

اصبر على مضض الحسود ... فــإن صبرك قاتلـــــه
النـــار تأكـــل نفســـها ... إنْ لم تجد ما تأكلـــه

(٢) الظاهر أن هناك سقط .. لعل تقديره : وهذا فرق بين صاحب الهمة النائمة والذكاء المحدود ، وبين ...

كما يذكر المحب التام المحبة لمحبوبه المحسن إليه الذى قد امتلأت جوانحه من حبه ، فلا يستطيع قلبه انصرافًا عن ذكره ، ولا روحه انصرافًا عن محبته ، فإذا صار كذلك : فكيف يرضى لنفسه أن يجعل بيت إنكاره وقلبه معمورًا بالفكر فى حاسده والباغى عليه والطريق إلى الانتقام منه والتدبير عليه ؟ هذا ما لا يتسع له إلا قلب خراب لم تسكُن فيه محبة الله وإجلاله ، وطلب مرضاته ، بل إذا مسَّه طيفٌ من ذلك واجتاز ببابه من خارج ناداه حرسُ قلبه : إياك وحمِىَ الملك ، إذهب إلى بيوت الخانات التى كل من جاء حلَّ فيها ، ونزل بها ، مالك ولبيت السلطان الذى أقام عليه اليزك ، وأدار عليه الحرس ، وأحاطه بالسور . قال تعالى حكاية عن عدوه إبليس أنه قال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (١) .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إلا من اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوِينَ ﴾ (٢) .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ (٣) .

وقال تعالى فى حق الصديق يوسف عليه السلام :

﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٤) .

فما أعظم سعادَة من دخل هذا الحصن ، وصار داخل اليزك لقد آوى إلى حصنٍ لا خوفَ على من تحصَّن به ، ولا ضيعة على من آوى إليه ، ولا مطمعَ للعدو فى الذنوب إليه منه :

﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (٥) .

* *

(١) سورة ص : ٨٢ ، ٨٣ (٢) الحجر : ٤٢ (٣) النحل : ٩٩ ، ١٠٠

(٤) يوسف : ٢٤ (٥) الجمعة : ٤

(السبب السابع) : تجريد التوبة إلى الله من الذنوب التى سلطت عليه أعداءه ؛ فإن الله تعالى يقول :

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ (١) .

وقال لخير الخلق وهم أصحاب نبيه دونه ﷺ :

﴿ أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ (٢) .

فما سلَّط على العبد من يؤذيه إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه ، وما لا يعلمه العبدُ من ذنوبه أضعافُ ما يعلمه منها ، وما ينساه مما علمه وعمله أضعافُ ما يذكره ، وفى الدعاء المشهور :

« اللَّهُمَّ إنِّى أعوذ بك أن أُشرك بك وأنا أعلَم ، وأستغفرُك لما لا أعلم » (٣) .

فما يحتاج العبدُ إلى الاستغفار منه ، مما لا يعلمه أضعافُ أضعاف ما يعلمه ، فما سُلِّط عليه مؤذٍ إلا بذنب .

* ولقى بعض السَّلَف رجل فأغلظ له ، ونال منه ، فقال له : قف حتى أدخل البيت ، ثم أخرج إليك فدخل ، فسجد لله ، وتضرع إليه ، وتاب وأناب إلى ربه ، ثم خرج إليه فقال له : ما صنعت ؟ فقال : تبت إلى الله من الذنب الذى سلطك به علي .

* وسنذكر إن شاء الله تعالى أنه ليس فى الوجود شر من الذنوب وموجباتها ، فإذا عُوفى من الذنوب عوفى من موجباتها : فليس للعبد إذا بُغى عليه وأوذى وتسلط عليه خصومُه شيءٌ أنفعَ له من التوبة النصوح ، وعلامةُ سعادته أن يعكس فكرَه ونظره على نفسه وذنوبه وعيوبه فيشتغل بها

---

(١) الشورى : ٣٠   (٢) آل عمران : ١٦٥

(٣) رواه أبو يعلى فى « مسنده » (١/ ٦١ - ٦٢ رقم ٥٨ - ٦١) من حديث أبى بكر الصديق ، وإسناده ضعيف ، راجع « مجمع الزوائد » (١٠/ ٢٤٤) .

وبإصلاحها وبالتوبة منها ، فلا يبقى فيه فراغٌ لتدبُّرِ ما نزل به ، بل يتولى هو التوبة وإصلاح عيوبه ، والله يتولَّى نصرتَه وحفظه والدفع عنه ولا بُدّ . فما أسعده من عبد ! وما أبركها من نازلة نزلت به ! وما أحسن أثرها عليه ! ولكن التوفيق والرشد بيد الله ، لا مانع لما أعطَى ، ولا مُعْطِى لما منعَ ، فما كل أحد يوفق لهذا : لا معرفة به ، ولا إرادة له ، ولا قدرة عليه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .



(السبب الثامن) : الصدقة والإحسان ما أمكنه . فإن لذلك تأثيرًا عجيبًا فى دفع البلاء ودفع العين وشر الحاسد ، ولو لم يكن فى هذا إلا تجارب الأُمم قديمًا وحديثًا لكفى به : فما يكاد العين والحسد والأذى يتسلط على محسنٍ متصدقٍ ، وإن أصابه شىء من ذلك كان معاملاً فيه باللطف ، والمعونة والتأييد وكانت له فيه العاقبة الحميدة ؛ فالمحسن المتصدق فى خفارة إحسانه وصدقته عليه من الله جُنَّةٌ واقيةٌ ، وحصن حصين .

وبالجملة فالشكر حارسُ النعمة من كل ما يكون سببًا لزوالها ، ومن أقوى الأسباب حسد الحاسد والعائن ، فإنه لا يفتر ولا ينى ولا يبرد قلبه حتى تزول النعمة عن المحسود ، فيحنئذ يبرد أنينه وتنطفى ناره - لا أطفأها الله -

فما حرسَ العبدُ نعمة الله عليه بمثل شكرها ، ولا عرضها للزوال بمثل العمل فيها معاصى الله ، وهو كفران النعمة وهو باب إلى كفران المنعم ؛ فالمحسن المتصدق يستخدم جندًا وعسكرًا يقاتلون عنه ، وهو نائم على فراشه ، فمن لم يكن له جند ولا عسكر وله عدو فإنه يُوشك أن يظفر به عدوُّه وإن تأخَّرَتْ مدة الظفر والله المستعان .



(السبب التاسع) : وهو من أصعب الأسباب على النفس وأشقّها عليها ، ولا يوفق له إلا من عظُم حظُّه من الله ، وهو طفىُّ نار الحاسد والباغى

والمؤذى بالإحسان إليه ، فكلما ازداد أذى وشرًا وبغيًا وحسدًا ازددت إليه إحسانًا وله نصيحةً وعليه شفقةً ، وما أظنك تُصدِّق بأن هذا يكون ، فضلاً عن أن تتعاطاه ، فاسمع الآن قوله عَزَّ وجَلَّ :

﴿ وَلا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ، فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ (٢) .

وتأمل حال النبى ﷺ كما جاء فى حديثه أنه ضربه قومه حتى أدموه فجعل يسلت الدم عنه ويقول : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِى فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ»(٣) .

كيف جمع فى هذه الكلمات أربع مقامات من الإحسان قابل بها إساءَتهم العظيمة إليه :

أحدها : عفوه عنهم .

والثانى : استغفاره لهم .

الثالث : اعتذاره عنهم بأنهم لا يعلمون .

الرابع : استعطافه لهم بإضافتهم إليه ، فقال : « اغْفِرْ لِقَوْمِى » ، كما يقول الرجل لمن يشفع عنده فيمن يتصل به : هذا ولدى ، هذا غلامى ، هذا صاحبى ، فهبه لى .

واسمع الآن ما الذى يُسَهِّل هذا على النفس ويطيبه إليها وينعمها به :

---

(١) فصلت : ٣٤ - ٣٦ (٢) القصص : ٥٤ (٣) رواه البخارى .

اعلم أن لك ذنوبًا بينك وبين الله تخاف عواقبها ، وترجوه أن يعفو عنها ، ويغفرها لك ويهبها لك .

ومع هذا لا يقتصر على مجرد العفو والمسامحة حتى يُنعم عليك ويُكرمك ويَجلب إليك من المنافع والإحسان فوق ما تؤمله : فإذا كنت ترجُو هذا من ربك أن يُقابلَ به إساءتَك . . فما أولاك وأجدرك أن تعامل به خلقه ، وتقابل به إساءتهم ؛ ليعاملك الله هذه المعاملة ؛ فإن الجزاء من جنس العمل : فكما تعمل مع الناس فى إساءتهم فى حقك ، يفعل الله معك فى ذنوبك وإساءتك جزاء وفاقًا ، فانتقِمْ بعد ذلك أو اعفُ وأحسن أو اترك فكما تَدينُ تُدان ، وكما تفعل مع عباده يفعل معك .

فَمن تصوَّر هذا المعنى وشغل به فكرَه . . هانَ عليه الإحسان إلى مَن أسَاءَ إليه ، هذا مع ما يحصل له بذلك من نصر الله ومعيته الخاصة ، كما قال النبى ﷺ للذى شكى إليه قرابته ، وأنه يحسن إليهم وهم يسيئون إليه فقال :

« لا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ ما دُمت على ذلك »[1] .

* هذا مع ما يتعجله من ثناء الناس عليه ، ويصيرون كلهم معه على خصمه ، فإنه كل من سمع أنه محسنٌ إلى ذلك الغير ، وهو مُسىء إليه وجدَ قلبه ودعاءَه وهمَّتَه مع المحسن على المسىء ، وذلك أمر فطرى فطر الله عليه عباده .

فهو بهذا الإحسان قد استخدم عسكرًا لا يعرفهم ولا يعرفونه ، ولا يريدون منه إقطاعًا ولا خبزًا ، هذا مع أنه لا بُدَّ له مع عدوه وحاسده من إحدى حالتين :

إما أن يملكه بإحسانه فيستعبده ، وينقاد له ، ويذلُّ له ويبقى من أحب الناس إليه .

---

(١) رواه مسلم وأحمد .

وإما أن يُفَتِّت كبده ، ويقطع دابره إن أقام على إساءته إليه ؛ فإنه يذيقه بإحسانه أضعاف ما ينال منه بانتقامه ، ومَن جَرَّب هذا عَرَفه حق المعرفة ، والله هو المُوفّق المُعين ، بيده الخير كُلُّه لا إله غيره ، وهو المسئول أن يستعملنا وإخواننا فى ذلك بمنّه وكرمه .

وفى الجملة : ففى هذا المقام من الفوائد ما يزيد على مائة منفعة للعبد عاجلة وآجلة ، سنذكرها فى موضع آخر إن شاء الله تعالى .

* *

(السبب العاشر) : وهو الجامع لذلك كله ، وعليه مدار هذه الأسباب ، وهو : تجريد التوحيد ، والترحّل بالكفر فى الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم ، والعلم بأن هذه آلات بمنزلة حركات الرياح ، وهى بيد مُحرّكها وفاطرها ، وبارئها ، ولا تضر ولا تنفع إلا بإذنه ، فهو : الذي يحسن عبده بها ، وهو الذى يصرفها عنه وحده ، لا أحد سواه ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ (١) .

وقال النبى ﷺ لعبد الله بن عباس رضى الله عنهما :

« واعلم أن الأُمَّةَ لو اجتَمَعُوا عَلَى أن يَنْفَعُوكَ ، لَم يَنْفَعُوكَ إلا بِشَىء كتبهُ اللهُ لك . ولو اجتَمَعُوا عَلَى أن يَضُرُّوكَ لَمْ يَضُرُّوكَ إلا بِشَىْء كَتَبهُ اللهُ عَلَيْكَ » (٢) .

* فإذا جَرَّدَ العبدُ التوحيد فقد خرجَ من قلبه خوفُ ما سواه ، وكان عدُوُّه أهون عليه من أن يخافه مع الله ، بل يفرد الله بالمخافة ، وقد أمنه منه وخرج من قلبه اهتمامه به واشتغاله به وفكره فيه ، وتجرَّدَ لله محبةً وخشيةً وإنَابَةً وتوكلاً واشتغالاً به عن غيره ، فيرى أن إعماله فكره فى أمر عدوه وخوفه منه واشتغاله به من نقص توحيده ، وإلا فلو جرَّدَ توحيده لكان له فيه شغل شاغلٌ ،

---

(١) يونس : ١٠٧ (٢) الحديث فى « شعب الإيمان » .

والله يتولى حفظه ، والدفع عنه ، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا ، فإن كان مؤمنًا ، فالله يُدافع عنه ولا بُدَّ . وبحسب إيمانه يكون دفاع الله عنه ، فإن كَمُل إيمانه كان دفع الله عنه أتمَّ دفع ، وإن مزج . مزج له ، وإن كان مرَّةً ومَرَّةً . . فالله له مرة مرة :كما قال بعض السلف : مَن أقبلَ على الله بكليته أقبل الله عليه جملة ، ومَن أعرضَ عن الله بكليته أعرض اللهُ عنه جملة ، ومن كان مَرَّةً وَمَرَّةً ، فالله له مرة ومرة .

* فالتوحيد حصن الله الأعظم الذى من دخله كان من الآمنين ، قال بعض السَّلَف : مَنْ خَافَ اللهَ خَافَه كُلُّ شَىْء ، ومن لم يخف الله . . أخافه الله من كل شىء .

* *

* فهذه عشرة أسباب ، يندفع بها شر الحاسد ، والعائن ، والساحر ، وليس له أنفع من التوجه إلى الله ، وإقباله عليه ، وتوكله عليه ، وثقته به ، وألا يخاف معه غيره ، بل يكون خوفه منه وحده ، ولا يرجو سواه ، بل يرجوه وحده ، فلا يعلق قلبه بغيره ، ولا يستغيث بسواه ، ولا يرجو إلا إيّاه ، ومتى علق قلبه بغيره ، ورجاه وخافه وُكِلَ إليه . وخذل من جهته ؛ فمن خاف شيئًا غير الله سُلِّط عليه ، ومن رجا شيئًا سوى الله خُذِل من جهته وحُرِم خيرَه .

هذه سُنَّة الله فى خلقه ولن تجد لسُنَّة الله تبديلاً .

* * *

المبحث التاسع

● ما يعتصم به الإنسان من شياطين الإنس والجن :

(ما يعتصم به العبد من الشيطان ويستدفع به شره ويحترز به منه) :

وذلك عشرة أسباب :

أحدها : الاستعاذة بالله من الشيطان ، قال تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَالسَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١) .

وفى موضع آخر : ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .

وقد تقدم أن « السمع » المراد به ههنا سمع الإجابة لا مجرد السمع العام ، وتأمَّلْ سِرَّ القرآن كيف أكَّد الوصف بـ « السميع العليم » بذكر صيغة (هو) الدال على تأكيد النسبة واختصاصها ، وعَرَّف الوصف بالألف واللام فى سورة حَم ؛ لاقتضاء المقام لهذا التأكيد ، وتركه فى سورة الأعراف لاستغناء المقام عنه ؛ فإن الأمر بالاستعاذة فى سورة حَم (فصلت) (٣) ، وقع بعد الأمر بأشقّ الأشياء على النفس وهو مقابلة إساءة المسيء بالإحسان إليه ، وهذا أمر لا يقدر عليه إلا الصابرون ، ولا يُلَقَّاه إلا ذو حظ عظيم كما قال الله تعالى (٤) ، والشيطان لا يدع العبد يفعل هذا بل يُريه أن هذا ذُلٌّ وعجز ، ويُسلِّط عليه عدوه ، فيدعوه إلى الانتقام ويُزيِّنه له . فإن عجز عنه دعاه إلى الإعراض عنه ، وأن لا يسيء إليه ، ولا يحسن فلا يؤثر الإحسان إلى المسيء إلا من خالفه وآثر الله وما عنده ، على حظه العاجل فكان المقام مقام تأكيد وتحريض فقال تعالى فيه : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٥) .

وأما فى سورة الأعراف فإنه أمره أن يعرض عن الجاهلين ، وليس فيها

---

(١) فصلت : ٣٦ (٢) الأعراف : ٢٠٠ (٣) فصلت : ٣٦

(٤) راجع الآيات ٣٤ - ٣٥ من سورة حم السجدة . (٥) فصلت : ٣٦

الأمر بمقابلة إساءتهم بالإحسان بل بالإعراض،وهذا سهل على النفوس غير مستعصى عليها : فليس حرص الشيطان وسعيه فى دفع هذا كحرصه على دفع المقابلة بالإحسان فقال :

﴿ وَإِمَّا ينزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

وقد تقدم ذكر الفرق بين هذين الموضعين وبين قوله تعالى : فى حم المؤمن : ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (٢) .

وفى صحيح البخارى (٣) عن عدى بن ثابت عن سليمان بن صرد قال : كنت جالسًا مع النبى ﷺ ورجلان يَستَبَّان فأحدُهما احمرً وجهُه وانتفخَت أوداجُه ، فقال النبى ﷺ : « إنِّى لأعلمُ كلمةً لو قالَها ذهبَ عنه ما يجدُ ، لو قال : أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرَّجيمِ ذَهَبَ عنهُ ما يَجدُ » .

* *

(الحرز الثانى) : قراءة هاتين السورتين (٤) فإن لهما تأثيرًا عجيبًا فى الاستعاذة بالله من شره ودفعه والتحصن منه . ولهذا قال النبى ﷺ : « ما تعوَّذَ المتعوِّذُونَ بِمثلهما » (٥) .

وقد تقدم أنه كان يتعوّذُ بهما كل ليلة عند النوم ، وأمر عُقبةَ أن يقرأ بهما دُبُر كل صلاة ، وتقدم قوله ﷺ :

« إن مَن قرأهما مع سورة الإخلاص ثلاثًا حين يمسى ، وثلاثًا حين يُصبح كَفَتْه من كل شىء » .

* *

(الحرز الثالث): قراءة آية الكرسى ففى الصحيح (٦) ، من حديث محمد ابن سيرين عن أبى هريرة قال :

« وَكَّلنى رسولُ اللهِ ﷺ بحفظِ زَكاةِ رمضانَ فأتى آتٍ ، فجعل يحثو من

---

(١) الأعراف : ٢٠٠ (٢) المؤمن : ٥٦ (٣) فى الأدب : ٩٩/٧

(٤) المعوذتين . (٥) مرّ الحديث فى تفسير (الفلق) .

(٦) رواه البخارى .

الطعام ، فأخذتُه فقلتُ : لأرفعنَّكَ إلى رسول الله ﷺ فذكر الحديث . . . فقال : إذا أويتَ إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى فإنه لن يزالَ عليكَ من الله حافظٌ ، ولا يقربك شيطانٌ حتى تصبح ، فقال النبى ﷺ : « صدقَكَ وهو كذوبٌ ، ذاكَ الشّيطانُ » .

وسنذكر إن شاء الله تعالى السرّ الذى لأجله كان لهذه الآية العظيمة هذا التأثير العظيم فى التحرز من الشيطان،واعتصام قارئها بها فى كلام مفرد عليها وعلى أسرارها وكنوزها بعون الله وتأييده .

* *

(الحرز الرابع) : قراءة سورة البقرة ، ففى الصحيح من حديث سهل عن عبد الله ، عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال :

« لا تَجْعَلُوا بُيوتَكم قُبورًا ، وأن البيتَ الَّذِى تُقرأ فيه البقرةُ لا يدخله الشيطان » (١) .

* *

(الحرز الخامس) : خاتمة سورة البقرة ، فقد ثبت فى الصحيح (٢) من حديث أبى موسى الأنصارى ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« مَنْ قَرأَ الآيَتَيْنِ من آخرِ سورةِ البقرةِ فِى لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ » .

وفى الترمذى (٣) عن النعمانِ بن بشير ، عن النبى ﷺ قال : « إنَّ اللهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبلَ أن يخلُقَ الخلقَ بألْفَىْ عام ، أنزل منه آيتينِ ختَمَ بهما سورة البقرة فَلا يُقْرآن فى دار ثلاثَ ليالٍ فيُقر بها شيطانٌ » .

* *

(الحرز السادس) : أول سورة حَم المؤمن إلى قوله : ﴿ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ ، مع آية الكرسى ، ففى الترمذى (٤) من حديث عبد الرحمن بن أبى بكر عن

---

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه البخارى ، ومسلم .
(٣) أخرجه فى فضائل القرآن ، والنسائى .
(٤) رواه الترمذى .

ابن أبى مليكة ، عن زرارة بن مصعب ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن قرأ حَم المؤمن إلى : ﴿ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ وآيةَ الكرسى حين يُصبح حُفِظ بهما حتي يُمسى ، ومَن قرأهما حين يُمسى حُفِظَ بهما حتى يصبح » .

وعبد الرحمن المليكى وإن كان قد تكلم فيه من قبل حفظه ، فالحديث له شواهد فى قراءة آية الكرسى ، وهو محتمل على غرابته .

* *

(الحرز السابع) : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد، وهو على كل شىء قدير ، مائةَ مرة ، ففى الصحيحين [1] من حديث سُمَىّ مولى أبى بكر عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ قال لا إلَهَ إلا اللهُ وَحدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ ، وَلَهُ الْحَمْدُ ، وهُوَ على كُلِّ شَىءٍ قديرٌ ، فى يوم مئة مرة كانت له عَدْلَ عشر رقاب ، وكُتبت له مائةُ حسنةٍ ، ومُحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزًا من الشيطان يومَه ذلك حتى يُمسى ، ولم يأتِ أحدٌ بأفضلَ مما جاءَ به إلا رجلٌ عملَ أكثر من ذلك » .

فهذا حرز عظيم النفع جليل الفائدة يسير سهل على من يسره الله عليه .

* *

(الحرز الثامن) : وهو من أنفع الحروز من الشيطان كثرة ذكر الله عَزَّ وجَلَّ : ففى الترمذى [2] من حديث الحارث الأشعرى أن النبى ﷺ قال : « إنَّ اللهَ أمرَ يحيى بن زكريا بخمس كلمات أنْ يعمل بها ويأمُر بنى إسرائيلَ أن يعملوا بها ، وأنهُ كاد أن يُبطىءَ بها ، فقال عيسى : إنّ الله أمركَ بخمسِ كلماتٍ لتعملَ بها وتأمرَ بنى إسرائيلَ أن يعملوا بها ، فإمَّا أن تأمرهم ، وإما أن آمُرَهُمْ . فقال يحيى : أخشى إنْ سبقتَنى بها أن يُخْسَفَ بِى ، أو أُعذَّب ، فجمعَ

---

(١) رواه البخارى .

(٢) أخرجه الترمذى .

النّاسَ فى بيتِ المقدسِ فامتلأ وقعدوا على الشرفِ ، فقال : إن اللهَ أمَرنى بخمس كلمات أن أعملَ بهن وآمُركم أن تعملوا بهن .

أوَّلُهُنَّ أن تعبدوا اللهَ ولا تُشْرِكوا به شيئًا . وإن مثلَ من أشركَ بالله كمثل رجلٍ اشترى عبدًا من خالصِ ماله بذهب أو ورَق فقال : هذه دارى ، وهذا عملى ، فاعمل وأدِّ إلىَّ ، فكان يعملُ ، ويُؤدّى إلى غير سيده فأيُّكم يرضى أن يكون عبده كذلك .

* وأن الله أمَركم بالصلاة فإذا صَلَّيْتم فَلا تَلْتَفِتُوا ، فإنّ الله ينصبُ وجهه لوجه عبدِهِ فى صلاتِهِ ما لم يَلْتَفِتْ .

* وأمركم بالصِّيَامِ : فإن مثلَ ذلك كمثل رجلٍ فى عصابة معه صُرَّةٌ فيها مِسْكٌ فكلّهم يُعجب أو يعجبه ريحها ، وإن ريح الصائم أطيبُ عند الله من ريح المسك .

* وأمركم بالصدقة : فإن مثل ذلك كمثل رجلٍ أسره العدُوُّ فأوثقُوا يده إلى عنقه ، وقدّموه ليضربوا عنقه ، فقال : أنا أفديه منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه منهم .

* وأمركم أن تذكروا الله : فإن مثل ذلك كمثل رجلٍ خرجَ العدُو فى أثره سراعًا حتى أتى على حصن حصين فأحرزَ نفسه منهم ، كذلك العبد لا يحرزُ نفسه من الشيطان إلا بذكر الله .

قال النبى ﷺ : « وأنا آمركم بخمس الله أمرنى بهن . السمع ، والطاعة ، والجهاد ، والهجرة ، والجماعة . فإن من فارق الجماعة قيدَ شبر فقد خلع ربقةَ الإسلام من عنقه إلا أن يراجع .

ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جُثَاء جهنم » فقال رجل : يا رسول الله ! وإن صلى وصام قال :

« وإن صلى وصام ؛ فادعوا بدعوى الله الذى سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله » .

قال الترمذى هذا حديث حسن غريب صحيح .

وقال البخارى (١) الحارث الأشعرى له صحبة وله غير هذا الحديث فقد أخبر النبى ﷺ فى هذا الحديث أن العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله وهذا بعينه هو الذى دلّت عليه سورة قل أعوذ برب الناس فإنه وصف الشيطان فيها بأنه الخناس ، والخناس الذى إذا ذكر العبدُ اللهَ انخنس وتجمّع وانقبض وإذا غفل عن ذكر الله التقم القلبَ ، وألقى إليه الوساوس التى هى مبادىء الشر كله ، فما أحرز العبد نفسه من الشيطان بمثل ذكر الله عزّ وجلّ .

* *

(الحرز التاسع) : الوضوء والصلاة ، وهذا من أعظم ما يتحرّز به منه ولا سيما عند توارد قوة الغضب والشهوة : فإنها نارٌ تغلى فى قلب ابن آدم كما فى الترمذى (٢) من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ أنه قال :

« ألا وإنَّ الغضبَ جمرةٌ فِى قلبِ ابنِ آدمَ ، أمَا رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه ؟ فمن أحسَّ بشىء من ذلك فليلصق بالأرض » .

وفى أثر آخر (٣) . « إن الشيطان خُلق من نارٍ وإنما تطفأ النار بالماء » .

فما أطفأ العبدُ جمرةَ الغضب والشهوة بمثل الوضوء والصلاة ، فإنها نار ، والوضوء يطفئها والصلاة إذا وقعت بخشوعها والإقبال فيها على الله أذهبت أثر ذلك كله ، وهذا أمر تجربته تغنى عن إقامة الدليل عليه .

* *

(الحرز العاشر) : إمساك فضول النظر والكلام والطعام ومخالطة الناس ؛ فإن الشيطان إنما يتسلط على ابن آدم وينال منه غرضه من هذه الأبواب الأربعة :

---

(١) راجع التاريخ الكبير . (٢) أخرجه فى « الفتن » ، وأخرجه أحمد .

(٣) أخرجه أبو داود .

فإن فضول النظر يدعو إلى الاستحسان ووقوع صورة المنظور إليه فى القلب والاشتغال به ، والفكرة فى الظفر به ، فمبدأ الفتنة من فضول النظر كما فى المسند عن النبى ﷺ أنه قال : « النظرةُ سهمٌ مسمومٌ من سهام إبليس ، فمن غضَّ بصره لله أورثه الله حلاوة يجدها فى قلبه إلى يوم يلقاه » أو كما قال صلى الله عليه وسلم (١) .

فالحوادث العظام إنما كلها من فضول النظر فكم نظرة أعقبت حسرات لا حسرة ، كما قال الشاعر :

كُلُّ الحوادث مبدأها من النظـــرِ ومُعظمُ النار من مستصغر الشرر

كم نظرةً فتكتْ فى قلب صاحبها فتكَ السهام بلا قوس ولا وتــر

والمقصود أن فضول النظر أصل البلاء .

وأما فضول الكلام فإنها تفتح للعبد أبوابًا من الشر كلها مداخل للشيطان ؛ فإمساك فضول الكلام يسدُّ عنه تلك الأبواب كلها ، وكم من حرب جَرَّتها كلمةٌ واحدة ، وقد قال النبى ﷺ لمعاذ : « وهل يكُبُّ النَّاسَ على مناخرهم فى النار إلا حصائدُ ألسنتهم » (٢) .

وفى الترمذى أن رجلاً من الأنصار توفى فقال بعض الصحابة طوبى له فقال النبى ﷺ : « فما يدريك فلعله تكلَّم بما لا يعنيه أو بخل بما لا ينقصه » .

وأكثر المعاصى إنما تولدها من فضول الكلام والنظر وهما أوسع مداخل الشيطان فإن جارحتيهما لا يملأن ولا يسئمان .. بخلاف شهوة البطن ، فإنه إذا امتلىء لم يبق فيه إرادة للطعام ، وأما العين واللسان فلو تركا لم يفترا من النظر والكلام ، فجنايتهما متسعة الأطراف ، كثيرة الشُّعب ، عظيمة الآفات . وكان السَّلَف يحذرون من فضول النظر كما يحذرون من فضول الكلام ، وكانوا يقولون : ما شىء أحوج إلى طول السجن من اللسان .

* وأما فضول الطعام فهو داع إلى أنواع كثيرة من الشر فإنه يحرّك الجوارح

---

(١) رواه الحاكم فى « المستدرك » . (٢) رواه الترمذى وأحمد .

إلى المعاصى ، ويثقلها عن الطاعات ، وحسبك بهذين شرا . فكم من معصية جلبها الشبع وفضول الطعام ، وكم من طاعة حال دونها ، فمن وُقى شر بطنه فقد وُقى شرًا عظيمًا ، والشيطان أعظم ما يتحكم من الإنسان إذا ملأ بطنه من الطعام ولهذا جاء فى بعض الآثار : ضَيِّقوا مجارى الشيطان بالصوم ، وقال النبى ﷺ :

« مَا مَلأَ آدمىٌّ وعاءً شرا من بطن » (١) .

ولو لم يكن فى الامتلاء من الطعام إلا أنه يدعو إلى الغفلة عن ذكر الله عَزَّ وجَلَّ . وإذا غفل القلب عن الذكر ساعة واحدة جثم عليه الشيطان ، ووعده ومنَّاه وشهّاه ، وهام به فى كل واد ، فإن النفس إذا شبعت تحركت وجالت وطافت على أبواب الشهوات ، وإذا جاعت سكنت وخشعت وذلت .

* وأما فضول المخالطة فهى الداء العضال الجالب لكل شر . وكم سلبت المخالطةُ والمعاشرةُ من نعمة ! وكم زرعت من عداوة ! وكم غرست فى القلب من حزازات تزول الجبال الراسيات ، وهى فى القلوب لا تزول ! ففضول المخالطة فيه خسارة الدنيا والآخرة ، وإنما ينبغى للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة ، ويجعل الناس فيها أربعة أقسام متى خلط أحد الأقسام بالآخر ولم يميز بينهما دخل عليه الشر :

أحدها : مَن مخالطته كالغذاء لا يستغنى عنه فى اليوم والليلة ، فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة ، ثم إذا احتاج إليه خالطه هكذا على الدوام وهذا الضرب أعزُّ من الكبريت الأحمر ، وهم العلماء بالله وأمره ومكايد عدوه وأمراض القلوب وأدويتها ، الناصحون لله ولكتابه ولرسوله ولخلقه فهذا الضرب فى مخالطتهم الربح كله .

(القسم الثانى) : من مخالطته كالدواء يحتاج إليه عند المرض فما دمت صحيحًا فلا حاجة لك فى خلطته ، وهم من لا يستغنى عن مخالطتهم فى مصلحة المعاش وقيام ما أنت محتاج إليه من أنواع المعاملات والمشاركات

---

(١) رواه الترمذى وأحمد .

والاستشارة والعلاج للأدواء ونحوها فإذا قضيت حاجتك من مخالطة هذا الضرب بقيت مخالطتهم من .

(القسم الثالث) : وهم مَن مخالطته كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه وقوته وضعفه : فمنهم من مخالطته كالداء العضال والمرض المزمن ، وهو من لا تربح عليه فى دين ولا دنيا ، ومع ذلك فلا بد من أن نخسر عليه الدين والدنيا أو أحدهما ، فهذا إذا تمكنت مخالطته واتصلت فهى مرض الموت المخوف .

ومنهم من مخالطته كوجع الضرّس يشتد ضربًا عليك فإذا فارقك سكن الألم .

ومنهم من مخالطته حمى الروح وهو الثقيل البغيض العقل الذى لا يحسن أن يتكلم فيفيدك ، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك ، ولا يعرف نفسه فيضعها فى منزلتها ، بل إن تكلم فكلامه كالعصى تنزل على قلوب السامعين مع إعجابه بكلامه وفرحه به : فهو يحدث من فيه كلّما تحدث ، ويظن أنه مسك يطيب به المجلس ، وإن سكت فأثقل من نصف الرحا العظيمة التى لا يطاق حملها ولا جرها على الأرض .

ويذكر عن الشافعى رحمه الله أنه قال : ما جلس إلى جانبى ثقيل إلا وجدت الجانب الذى هو فيه أنزل من الجانب الآخر .

ورأيت يومًا عند شيخنا قدس الله روحه رجلاً من هذا الضرب والشيخ يحمله وقد ضعفت القوى عن حمله ، فالتفت إلىّ وقال : مجالسة الثقيل حمى الربع ، ثم قال : لكن قد أدمنت أرواحنا على الحمى فصارت لها عادة أو كما قال .

وبالجملة فمخالطة كل مخالف حمى للروح فعرضية ولازمة . ومن نكد الدنيا على العبد ، أن يبتلى بواحد من هذا الضرب وليس له بد من معاشرته ومخالطته فليعاشره بالمعروف حتى يجعل الله له فرجًا ومخرجًا .

(القسم الرابع) : من مخالطته الهلك كله ، ومخالطته بمنزلة أكل السم فإن اتفق لآكله ترياق وإلا فأحسن الله فيه العزاء . . وما أكثر هذا الضرب فى الناس - لاكثرهم الله - وهم أهل البدع والضلالة الصادون عن سُنَّة رسول الله ﷺ الداعون إلى خلافها الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا ،

فيجعلون البدعة سُنَّة ، والسُّنَّة بدعة . والمعروف منكرًا ، والمنكر معروفًا ، إن جرَّدت التوحيد بينهم قالوا : تنقَّصت جناب الأولياء والصالحين ، وإن جرّدت المتابعة لرسول الله ﷺ قالوا : أهدرت الأئمة المتبوعين ، وإن وصفت الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير غلوّ ولا تقصير ، قالوا : أنت من المشَبِّهين . وإن أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف ، ونهيت عما نهى الله عنه ورسوله من المنكر ، قالوا : أنت من المُفتنين ، وإن اتبعت السُّنَّة وتركتَ ما خالفها قالوا : أنت من أهل البدع المضلين ، وإن انقطعت إلى الله تعالى وخلَّيتَ بينهم وبين جيفة الدنيا قالوا : أنت من المُلَبِّسين . وإن تركتَ ما أنت عليه واتبعتَ أهواءهم فأنت عند الله من الخاسرين وعندهم من المنافقين .

فالحزمُ كل الحزم التماس مرضات الله تعالى ورسوله بإغضابهم وألا تشتغل بإعتابهم ولا باستعتابهم ، ولا تبالى بذمهم ولا بغضهم ، فإنه عين كمالك كما قال القائل :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنّى فاضل

وقال آخر :

وقد زادنى حبًا لنفسى أننى بغيض إلى كل امرىء غير طائل

فمن كان بوَّابَ قلبه وحارسه من هذا المداخل الأربعة التى هى أصل بلاء العالم وهى فضول النظر والكلام والطعام والمخالطة واستعمل ما ذكرناه من الأسباب التسعة التى تحرزه من الشيطان فقد أخذ بنصيبه من التوفيق ، وسد على نفسه أبوابَ جهنم ، وفتح عليها أبواب الرحمة ، وانغمر ظاهره وباطنه ، ويوشك أن يحمد عند الممات عاقبة هذا الدواء ، فعند الممات يَحمد القومُ التُّقَى ، وفى الصباح يَحمد القومُ السُّرَى والله الموفق لا رب غيره ولا إله سواه .

* *

وآخر دعوانا : الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

* * *

الملاحـــق [1]

(١) أضفنا هذه الملاحق ، للمقارنة بما مر في بعض نقاط هذه الدراسة ، ولإلقاء مزيد من الضوء والفائدة .

الملحق الأول :

ابن جنى وعلم الأصوات (*)

علم الأصوات عند العلامة ابن جنى

(*) سقنا هذه الملاحق بتصرف لا يخل بالموضوع ، ليثق أبناء العربية والإسلام فى أنفسهم وفى أسلافهم ، الذين أسهموا بجهدهم فى تراث الإنسانية ، وليصنعوا صنيع أجدادهم ، وللمقارنة بين ماذكره ابن جنى وابن القيم فى القسم الأول من هذا الكتاب : (اللغويات) . .

ابن جنى

هو عبقرية فذة خالدة .. كانت له جوانب متعددة فى حقول علوم اللُّغة العربية ، ولم يفهمه كثير من الناس .. لا فى وقته ولا من تلاهم حتى فى عصرنا .. والله أعلم بما يكون بعد عصرنا .

وقد قدمت أبحاثًا من كتبه وخاصة كتابه : « الخصائص » والتى حققها الأستاذ الجليل المرحوم : الشيخ محمد على النجار ، والأستاذ الدكتور : إبراهيم محمد نجا رحمه الله ، وأستاذنا المرحوم الدكتور : عبد الله عيد العزازى ، وأساتذتى بالأزهر وجهونى لدراسته .

ومن البِرِّ بابن جنى أن تتوافر وتتضافر جهود العلماء المحدثين لإحياء وتحقيق ونشر آثار ابن جنى ، للاستفادة منها ، ووفاء بحق عظمائنا ؛ لأن نشر تراثنا العربى على أسس علمية منهجية ضرورة أساسية فى الدراسات العربية المعاصرة ..

وللأستاذ الدكتور محمد حسن باقلا دراسة قيمة فى علم الصوتيات عند ابن جنى ، نال بها درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف ، فأسدى بذلك جميلاً إلى دارسى العربية ، وبهر بها أساتذته فى انجلترا .. وأصبحت مرجعًا للدارسين .. ومنها استفدت كثيرًا .. فى هذا الملحق .. وآمل أن تنال الرسالة عناية الدارسين والباحثين فى تراث ابن جنى ففيها الخير الكثير ، والعلم الوفير .

كما إنى أرجو وآمل أن تزدهر اللغة العربية ، وتصبح لغة العالم الإسلامى كله ، والذى فاق المليار فى هذا العصر ، وإعادة الوحدة القوية ، والتعاون ، والتفاهم الروحى ، واللغوى ، والعزة والكرامة ، وفهم العلوم الإسلامية حق

الفهم . . وتذوق بلاغة وفصاحة القرآن الكريم وإعجازه وعلوم السنة النبوية ، وفى ذلك إعزاز للمسلمين ، وجمع لشملهم ، وتعاون على كل ما فيه نفعهم وخيرهم فى الدارين ، تحقيقًا لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ .

* *

● تعريف بابن جنى :

هو : أبو الفتح عثمان بن جنى ، وله من الأبناء ثلاثة ، هم : على ، وعلاء ، وعالى ، وقد تتلمذوا على والدهم .

نسبه : قيل : إن أباه كان روميًا يونانيًا ، من أقاليم تركيا ، أو آسيا الصغرى .

ولادته : ولد ابن جنى بالموصل ، فى العقد الثانى من القرن الرابع الهجرى تقريبًا ، وهو عصر الازدهار الفكرى والعلمى . وتوفى فى الثامن والعشرين من صفر ٣٩٢ هـ .

منزلته العلمية : يعتبر ابن جنى مدرسة متميزة فى علوم العربية ، وفلسفتها ، وعلم اللهجات ، وعلم الدلالة .

* ويقول ابن خلكان ، فى وفيات الأعيان : أبو الفتح عثمان بن جنى النحوى المشهور ، كان إمامًا فى علم العربية .

* ويقول آدم ميتز ، فى مجلة المجمع العلمى العربى م/ ٣٠ : إن كتب علم الاشتقاق ، وفقه اللغة ، ومعرفة أسرار اللُّغة من مبتكراته .

* وفى نفس المرجع يقول دكتور محمد أسعد طلس : أصبح ابن جنى ثقة وحجة فى اللغة والأدب ، وأوتى من ذلك حظًا عظيمًا ، لا يقل عن حظ أكبر الأئمة ، كأبى عمرو بن العلاء ، والخليل ، وسيبويه وغيرهم .

* وتصدر للإقراء فى جامع الموصل فى حداثة سنه ، دلالة على نبوغه .

* ومن شيوخه ، فى اللغة وعلومها ، والأدب ، والقراءات الأخفش ، وابن وكيع ، وأبو بكر الذهبى ، وأبو بكر بن الحجاج ، وأبو الفرج الأصفهانى ، وابن مقسم ، وأهم شيوخه على الإطلاق أبو على الفارسى ، الذى لازمه ابن جنى قرابة أربعين عامًا ، ومات سنة ٣٧٧ هـ ، فخلفه ابن جنى عميد اللغة العربية وآدابها فى بغداد .

* ومن تلاميذه : أبناؤه ، والشريف الرضى ، وعبد السلام البصرى ، وعمر بن ثابت ، وأبو الحسن الشمسى ، وثابت بن محمد الجرجانى ، وابن شاهويه ، والأمير عبد الله بن سنان الخفاجى ، وابن بشران ، وأبو عبد الله ابن أحمد بن نصر .

* مؤلفاته : تربو مؤلفاته على الخمسين ، منها : التصريف الملوكى ، والمقتضب ، والخصائص ، والمذكر والمؤنث ، والمهموز ، والمقصور والممدود ، وكتاب « الشواذ » ، و« المحتسب فى القراءات الشاذة » ، و« المنصف فى شرح التصريف » للمازنى ، و« سر صناعة الإعراب » ، و« علل التثنية » ، و« اللمع فى النحو » ، و« العروض والقوافى » ، و« عقود اللمع » ، و« شرح بعض الدواوين الشعرية » لمعاصريه ، و« سرّ صناعة الإعراب » (أو « سرّ الصناعة ») . . . إلخ .

ومن المفيد أن نقف قليلاً عند كتابه « سرّ الصناعة » فى مقدمته ؛ لمعرفة منهجه والجوانب التى تضمنها فى دراسته ، وأسلوبه فى التأليف ؛ لتزداد معرفة به وإعجابًا للعبقرية الفذة ، التى يجب أن نتناول آثارها بالبحث والدراسة والتحقيق والمقارنة فى ضوء الدراسات الحديثة المناظرة .

يقول فى المقدمة : رسمت أن أضع كتابًا يشتمل على جميع أحكام حروف المعجم وأحوال كل حرف منها ، وكيف مواقعه فى كلام العرب ، وأن أتقصى القول فى ذلك وأشيعه وأوكده . فاتبعتُ ما رسمته وانتهيتُ إلى ما مثلته .

وأنا - بإذن الله تعالى ومعونته وطوله ومشيئته - أبلغ من ذلك فوق قدر

الكفاية ، وأحرز فيه - بتوفيق الله - قصب الغاية ، وأجتنب مع ذلك الإسهاب والإطالة إلا فيما تضمن نكتًا أو أثار دفينًا .

وأتبع كل حرف منها مما رويته عن حذاق أصحابنا وجلّتهم ، وحذوته على مقاييسهم .

وأذكر أحوال هذه الحروف فى مخارجها ومدارجها ، وإنقسام أصنافها ، وأحكام مجهورها ومهموسها ، وشديدها ورخوها ، وصحيحها ومعتلها ، ومنفتحها ومطبقها ، وساكنها ، ومتحرّكها ، ومضغوطها ، ومهتوتها ، ومنحرفها ، ومشربها ، ومكررها ، ومستعليها ومنخفضها . . . إلى غير ذلك من أحكامها ، وأجناسها .

وأذكر فرق ما بين الحرف والحركة ، وأين محلّ الحركة من الحرف : هل هى قبله ؟! أو معه أو بعده ؟

وأذكر أيضًا الحروف التى هى فروع مستحسنة ، والحروف التى هى فروع مستقبحة ، والحركات التى هى فروع متولّدة عن الحركات كتفرع الحروف عن الحروف .

وأذكر ما كان من الحروف فى حال سكونه له مخرج ما فإذا تحرك أقلقته الحركة وأزالته عن محله فى حال سكونه .

وأذكر أيضًا أحوال هذه الحروف فى أشكالها والغرض من وضع واضعها ، وكيف ألفاظها ما دامت أصواتًا مقطعة ، ثم كيف ألفاظها ، إذا صارت أسماء معربة ، وما الذى يتوالى فيه إعلالان بعد نقله ممّا يبقى بعد ذلك من الصحة على قديم حاله ، وما يمكن تركبه ومجاورته من هذه وما لا يمكن ذلك فيه ، وما يحسن وما يقبح فيه . ما ذكرناه .

ثمّ أفرد فيما بعد لكل حرف منها بابًا اغترف فيه ذكر أحواله وتصرفه فى

الكلام : من أصليته وزيادته ، وصحته ، وعلته ، وقلبه إلى غيره ، وقلب غيره إليه .

وليس غرضنا فى هذا الكتاب ذكر هذه الحروف مؤلّفة ؛ لأن ذلك كان يقود إلى استيعاب جميع اللغة وهذا مما يطول جدًا ، وليس عليه عقدنا هذا الكتاب .. وإنما الغرض فيه ذكر أحوال الحروف مفردة أو منتزعة من ابنية الكلم التى هى مصوغة فيها ؛ لما يخصها من القول فى أنفسها . وأقروا ذلك شيئًا فشيئًا على تأليف حروف المعجم دون مدارج الحروف .

هذا ما جاء فى مقدمة كتابه « سر الصناعة » ، وقد أشار فيها إلى مسائل شتى .



* بحثت فى ثنايا الكتاب : فى النحو والصرف ، والأدب ، كما عالج الجوانب الصوتية ، وما يتصل بها ، وقد استخلص الأستاذ الدكتور محمد حسن باكلا ، من هذا الجانب الصوتى رسالته القيمة : (ابن جنى عالم الصوتيات) ، ونال بها الدكتوراه بدرجة مرتبة الشرف من انجلترا سنة ١٤٠٢ هـ ، ومن مقدمته استفدنا كثيرًا من المعلومات .. وقد طلبته منه فى السعودية ، فحمله - مشكورًا - إلى باب دارى فى كندا ، فكانت فرحتى به عظيمة ، وما زالت .. ؛ لأنه سدّ جانبًا كبيرًا من قصور أبناء العربية اليوم ، من عدم قيامهم بواجب نشر وتحقيق روائع تراثنا الخالد ، لأمثال الأفذاذ من العباقرة ، أمثال ابن جنى رحمه الله تعالى ، وإطلاع غيرنا على ما عندنا من كنوز .

وأستخلص من سر الصناعة : المعلومات الصوتية ، وقارنها بالمعلومات الصوتية فى كتبه الأخرى ، ثم قام بمقارنة كل ذلك بكتب علماء العرب المسلمين الأقدمين والمحدثين ، وأيضًا بالدراسات الغربية والشرقية الحديثة .. موثقًا باللوحات الفوتوغرافية ، وبأحدث التقنية المعاصرة ، ومعبرًا بالعربية والإنجليزية .. فجاءت رسالته مفخرة تشير إلى روعة تراثنا الخالد ، وعبقرية

علمائنا ، وترفع عنا ملامة إهمالنا لتراثنا ، واهتمام الأجانب به . وقد نوهت بفضله فى خطبة جمعة - فى مناسبة الإبداع العربى والإسلامى - فجزى الله سبحانه الدكتور باكلا عن الإسلام والمسلمين ، والعربية ، وعلمائها وأبنائها خير الجزاء .

* *

* فى سر الصناعة عالج الأصوات العربية من جوانب ثلاثة من حيث مخارجها ومدارجها ، وبحسب نوعياتها ، ثم وصفها بحسب الملامح الصوتية ، أو من حيث الصفات والأجناس .

ودراسة ابن جنى - إذن - كدراسة الخليل وسيبويه ، مبنية على أساس من التحليل الرياضى والمنطقى ، بل زاد ابن جنى فيما ذهب إليه لاعتبارات وأبعاد باطنية وضمنية ، لم يلتفت إليها معاصروه ، ومن سبقوه .

فقد ذكر أن الحرف (أو الفونيم ، أو الوحدة الصوتية) وحدة تتألف من صفات وملامح صوتية ، بعضها صفات مشتركة مع الحروف الأخرى ، وبعضها صفات مميِّزة ، أى تميّز الحرف عن الحرف .

وابن جنى أيضًا سبق الدراسات الحديثة ، إلى فكرة (الفونيم) أو الوحدة الصوتية ، و(الألَفون) أو عضو الوحدة الصوتية ، كما سبقهم إلى نظرية (المورفونيم) .

وفرق بين الحروف الصوامت والصوائت ، وما يتعلق بتركبها وتآلفها أو تنافرها وتباعدها ، وهو ما يسمى حديثًا بـ « الفونوتاكتكس » ، أو دراسة تتابع الوحدات الصوتية ، كما عالج الظواهر الصوتية الصرفية ، كالمماثلة ، والمخالفة والحذف ، والقلب المكانى . . . إلخ ، مما يطلق عليه حديثًا - فى علم اللسانيات - اسم « المورفونولوچيا » .

كما ذكر ابن جنى فى كتابه « سر الصناعة » نظريات تنطبق على اللغة الإنسانية عامة : فيعرف « الصوت » بأنه :

« عرض يخرج مع النفس مستطيلاً متصلاً ، حتى يعرض له فى الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته ، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفًا ، وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها » .

وله طريقة عملية - شاعت بعدئذ فى كتب المتأخرين - كمنهج تجريبى ، وطريقة عملية فى وصف أصوات الحروف ، ومخارجها ، مما يسمى حديثًا بـ « الفون » ، أو العضو الرئيسى « للفونيم » ، يقول :

« وسبيلك إذا أردت اعتبار صدى الحرف أن تأتى به صامتًا لا متحركًا ؛ لأن الحركة تقلق الحرف عن موضعه ومستقره ، وتجذبه إلى جهة الحرف التى هى بعضه ، ثم تدخل عليه همزة الوصل مكسورة من قبله لأن الساكن لا يمكن الابتداء به ، فتقول : إكْ ، إقْ ، إجْ . . . وكذلك سائر الحروف » .

ويشبه أعضاء النطق عند الإنسان بآلات الموسيقى ، من حيث تقطيع الأصوات ، وتغاير جرسها ، فيختلف النغم ، يقول رحمه الله تعالى :

« ولأجل ما ذكرنا من اختلاف الأجراس فى حروف المعجم ؛ باختلاف مقاطعها ، التى هى أسباب تباين أصدائها ما شبه بعضهم الحلق والفم بالناى :

فإن الصوت يخرج فيه مستطيلاً أملس ساذجًا ، كما يجرى الصوت فى الألف غفلاً بغير صنعة ، فإذا وضع الزامر أنامله على خروق الناى المنسوقة ، وراوح بين أنامله اختلفت الأصوات ، وسمع لكلّ حرف منها صوت لا يُشبه صاحبَه . فكذلك إذا قطع الصوت فى الحلق والفم بإعتمادٍ على جهات مختلفة كان سبب استماعنا هذه الأصوات المختلفة .

ونظير ذلك وتر العود : فإنّ الضارب إذا ضربه وهو مرسل سمعتَ له صوتًا ، فإن حصر آخر الوتر ببعض أصابع يسراه أدّى صوتًا آخر ، فإن أدناها قليلاً سمعتَ غير الاثنين . ثمّ كذلك كلّما أدنى أصبعه من أول الوتر تشكّلت له أصداء مختلفة ، إلا أنّ الصوت الذى يؤديه الوتر غافلاً غير محصور تجده بالإضافة إلى ما أدّاه وهو مضغوط محصور أملس مهتزًا .

ويختلف ذلك بقدر قوة الوتر وصلابته وضعفه ورخاوته : فالوتر فى هذا التمثيل كالحلق ، والخفقة بالمضراب عليه كأول الصوت من أقصى الحلق ، وجريان الصوت فيه غفلاً غير محصور كجريان الصوت فى الألف الساكنة وما يعترضه من الضغط والحصر بالأصابع ، كالذى يعرض للصوت فى مخارج الحروف من المقاطع ، واختلاف الأصوات هناك كاختلافها هنا .

وإنّما أردنا بهذا التمثيل الإصابة والتقريب ، وإن لم يكن هذا الفن مما لنا ولا لهذا الكتاب به تعلق . ولكنّ هذا القبيل من هذا العلم ؛ أعنى « علم الأصوات والحروف » له تعلق ومشاركة للموسيقى لما فيه من صنعة الأصوات والنغم .

وأخيرًا نلاحظ أن « مصطلحات ابن جنى الفنية ، هو ابن بجدتها ، وهو الذى أشار إليها محددًا ومعرفًا ، وإن أخذت عند المحدثين أسماء أجنبية ، مثل :

قوله : « علم الأصوات والحروف » ، يقابل : « الفوناتيكس » ، أو « الفوناتيك » فى علم الصوتيات ، و« الفونولوچيا » ، أو « الفونيمكس » لعلم الحروف ، و« الفونيم للوحدة الصوتية » ، و« المورفونولوچيا » للظواهر الصرفية الصوتية . . إلخ .

وأخيرًا يطمئن ابن جنى إلى ما هداه إليه تفكيره . . ويفتح المجال لمن يأتى بجديد ، حيث يقول : (وما علمت أن أحدًا خاض فى هذا الفن هذا الخوض ، ولا أشبعه هذا الإشباع .

ومن وجد قولاً قاله . . والله يعين على الصواب بقدرته) .

* * *

الملحق الثانى

(علم الصوتيات)

من العلوم الكونية فى التراث الإسلامى (*)

(*) للأستاذ الدكتور أحمد فؤاد باشا ، بكلية علوم القاهرة ، نشرته مجلة الأزهر . . وشكر الله للدكتور فى ثباته على التنقيب عن علم العلماء العرب والمسلمين الأقدمين ، ليرد الثقة إلى المهزومين من بنى جلدتنا .

أشار الأقدمون من علمائنا إلى الأصوات اللغوية بما تيسر لهم من معارف حولها ، بما سمعوه من غيرهم ، أو لا حظوه فى الأصوات الموسيقية ، أو مارسوه ولا حظوه عند نطق بعض الحروف ، أو استخرجوه بوسائل بدائية .. جاءت قريبة من الصواب ، أو أصابته أحيانًا . ولهم العذر فى ذلك ، لانعدام الوسائل التقنية أو ندرتها .. ولكن بحسهم الكبير ، وتفكيرهم العميق وملاحظاتهم الدقيقة جعلت قولهم وحكمهم صحيحًا أو قريبًا من الصحيح .

وفى هذا المقال الذى نقدمه تجد التقنية الحديثة ، مع صواب واجتهاد علمائنا القدامى .. دبجته براعة أستاذ فاضل عنى طويلاً بمثل هذه الأبحاث التى تشيد بفضل علمائنا وتطلعنا على الجديد المفيد فى كل ما كُتِب ويكتب ويتتبع المقتبسين أو الذين سطوا على تراثنا ونسبوه لأنفسهم ، فتخلوا عن سمات العلماء والباحثين فى الأمانة والاقتباس والنقل .

يقول الدكتور - أحمد فؤاد باشا :

علم الصوتيات من العلوم الكونية التى شهدت تطورًا هائلاً فى العصر الحاضر ، وتدين بنشأتها وإرساء أصولها المنهجية والمعرفية السليمة لعلماء المسلمين الأوائل فى عصر الحضارة الإسلامية الزاهرة .

ويعنى علم الصوتيات بدراسة الصوت والظواهر الصوتية بمختلف تطبيقاتها فى نواح عديدة من حياة الإنسان ، تشمل : مجالات الطب والهندسة والاتصالات ، والحاسبات والفضاء ، والموسيقى والبحث العلمى وغيرها .

وإن تأكيد الدور الإسلامى فى تأسيس تلك العلوم الحضارية بالبرهان القاطع والحجة الواضحة ، من شأنه أن يسهم فى تصحيح تاريخ العلم والحضارة بعد أن عبث به العابثون . وأن يعيد لشباب الأمة الإسلامية الثقة فى نفسه ، وفى عقيدته ، بعد أن حاولت قوى كثيرة طمس معالمها وإخماد جذوتها وإطفاء نورها . لقد أدى تجاهل مآثر أسلافنا فى مختلف مجالات المعرفة الإنسانية إلى فصل المسلمين المعاصرين عن ماضيهم العريق ، وتعميتهم عن تراثهم الثمين ، وتعميق الشعور لديهم بالنقص والعجز وعدم القدرة على

استيعاب مقومات التقدم والرقى ، فلا يكاد الدارس فى أى تخصص علمى ، يجد أثرًا لعالم مسلم ؛ لأن غالبية الكتب التى يدرسها تزدان فقط بأسماء علماء الغرب القدامى والمحدثين ، من أمثال : أرسطو وأرشميدس وفيثاغورث ونيوتن وأينشتين وغيرهم ، وتغفل - عن قصد أو جهل - عشرة قرون أو تزيد ، حمل فيها المسلمون وحدهم لواء المعرفة فى كل مجال ، وأرسوا قواعد النهضة العلمية المعاصرة .

* *

• علم الصوتيات فى التراث الإسلامى :

لم نعرف شيئًا ذا قيمة علمية عن اهتمام أهل الحضارات القديمة بدراسة ظاهرة الصوت ، اللهم إلا فيما يتعلق ببعض أنواع الغناء والعزف (الموسيقى)، ومن ثم فإننا لا نستطيع أن نبدأ الحديث عن نظرية الصوت والظواهر الصوتية إلا من حيث بدأ علماء الحضارة الإسلامية فى تناولها بالبحث والتحليل على أسس منهجية سليمة .

فقد أجمعوا من حيث المبدأ على أن هناك شيئين ضروريين لانبعاث الصوت وانتشاره :

أما الشيء الأول : فلا بد من وجود جسم يهتز لإحداث موجات الصوت التضاغطية ، على نحو ما نجد فى وتر العود أو الكمان ، أو فى الأوتار الصوتية عند الإنسان .

وأما الشيء الثانى : فلا بد من وجود وسط مادى ، كالهواء أو الماء ، تنتقل خلاله هذه الموجات الصوتية إلى أن تصل إلى الأذن ويحدث الإحساس بالسمع . فوتر العود ، مثلاً ، لا نسمع له صوتًا إذا اهتز فى الفراغ ؛ لأن التموجات الصوتية لا تجد الوسط الذى تنتقل خلاله إلينا . ونحن نعلم اليوم أن القمر ليس له غلاف هوائى مثل الأرض ، ولهذا فإن رواد الفضاء على سطحه يتبادلون الحديث بواسطة الراديو (اللاسلكى) ، حيث يمكن للضوء وموجات الراديو - وليس موجات الصوت - أن تنتقل خلال الفراغ .

والتجربة البسيطة التى يجريها الطلاب فى المعمل للتأكد من صحة هذه الحقيقة العلمية يضعون فيها ناقوسًا زجاجيًا فوق ساعة « منبه » به جرس يدق ، ويستخدمون مضخة هوائية لتفريغ ما يمكن إفراغه من هواء الناقوس ، ثم يسمحون بدخول الهواء تحت الناقوس مرة أخرى ، فيلاحظون أن صوت دقات الجرس يخفت رويدًا رويدًا أثناء تفريغ الناقوس من الهواء ، ثم يشتد الصوت عندما يدخل الهواء فى الناقوس .

* *

* كذلك أجمع علماء المسلمين على تفسير جيد لحدوث « الصدى » نتيجة لانعكاس الموجات الصوتية عندما يعترض مسارها عائق ، فتحدث فى ارتدادها رجعًا يشبه الصوت الأصلى .

* ومن أوضح النصوص التى وردت فى تراثنا الإسلامى عن طبيعة الصوت والصدى ما ذكره **بهمنيار بن المرزبان** فى كتابه « تحصيل بهمنيار » حيث قال :

« **والصوت** أمر يحدث من تموج الجسم السيال الرطب كالهواء والماء بين جسمين متصاكين متقاومين .

وأما **الصدى** فإنه يحدث من تموج يوجبه هذا التموج ، فإن هذا التموج إذا قاومه شيء من الأشياء كجبل أو جدار حتى دفعه لزم أن ينضغط أيضًا بين هذا التموج المتوجه إلى قرع الحائط أو الجبل وبين ما يقرعه هواء آخر يرده ذلك ويصرفه إلى خلف بانضغاطه ، ويكون شكله شكل الأول وعلى هيئته . . . ويجوز أن يكون لكل صوت صدى ولكن لا يسمع ، كما أن لكل ضوء عكسًا . . والسبب فى ألا يسمع الصدى فى البيوت أن المسافة إذا كانت قريبة من المصدر وعاكس الصوت سمعًا معًا فى زمان واحد أو قريب من واحد » (١) .

---

(١) د . أحمد فؤاد باشا ، التراث العلمى للحضارة الإسلامية ومكانته فى تاريخ العلم والحضارة - الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٨٤ ص ٨٩

* ويؤكد الجلدكي في كتابه « أسرار الميزان » أن (التموج الذى يحدث الصوت ليس المراد منه حركة انتقالية من ماء أو هواء واحد بعينه ، بل هو أمر يحدث بصدم بعد صدم ، وسكون بعد سكون . . . والصدى يحدث عن انعكاس الهواء المتموج (بنفس شكله وهيئته) من مصادمة عال كجبل أو حائط ، ويجوز ألا يقع الشعور بالانعكاس لقرب المسافة فلا يحس بتفاوت زمانى الصوت وعكسه . . . » [1] .

ويستدل من هذا النص على أن الطاقة الصوتية - لا الوسط - هى التى تنتقل أثناء انتشار الصوت ، وهو ما سنعرض لشرحه بعد قليل فى ضوء التفسير الحديث لحركة الموجات التضاغطية .

* وللصوت ، عند الفخر الرازى ، سببان أحدهما قريب والآخر بعيد .

فالسبب القريب تموج الهواء ، وهو حالة شبيهة بتموج الماء تحدث بالتداول : من صدم بعد صدم مع سكون بعد سكون .

وأما السبب البعيد فهو من وجهين : إمساس عنيف وهو القرع أو تفريق عنيف وهو القلع . « وإنما اعتبرنا العنيف (وحده) لأنك لو قرعت جسمًا لينًا كالصوف بقرع لين جدًا لم تحس صوتًا ، ولو شققت شيئًا (شقًا) يسيرًا ، وكان الشيء المشقوق لا صلابة فيه ، لم يكن للقلع صوت . ثم إن تموج الهواء لازم من كلا السببين ؛ لأن القارع للهواء يحوج (الهواء) إلى أن ينقلب من المسافة التى يسلكها القارع إلى جنبتيها بعنف شديد ، وكذلك القالع .

ثم (إننا نجد) فى الأمرين جميعًا (أنه) يلزم للمتباعد من الهواء أن ينقاد للشكل والموج الواقعين هناك ، وإن كان القرعى أشد انبساطًا من القلعى » [2] .

---

(١) قدرى حافظ طوقان . العلوم عند العرب ، سلسلة الألف كتاب - مكتبة مصر بالفجالة (بدون تاريخ) ص ٣٨ .

(٢) عمر فروخ ، تاريخ العلوم عند العرب ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٧، ص ٢٤١.

* إن تأمل هذه النصوص التراثية يدل دلالة واضحة على إحاطة علماء المسلمين بالحقائق الأساسية فى نظرية الصوت ، وخاصة ما يتعلق بشروط إحداثه وطبيعة انتشاره وانعكاسه . بل إنهم فطنوا كذلك إلى تأثير الحركة الصوتية فى الهواء الذى (لشدة لطافته وخفة جوهره وسرعة حركة أجزائه يتخلل الأجسام كلها ، فإذا صدم جسم جسمًا آخر انسل ذلك الهواء من بينهما وتدافع وتموج إلى جميع الجهات ، وحدث من حركته شكل كروى واتسع كما تتسع القارورة من نفخ الزجّاج (صانع الزجاج) فيها ، وكلما اتسع ذلك الشكل ضعفت حركته وتموجه إلى أن يسكن ويضمحل) [1] . ولعل فى هذا القول ما يؤكد سبق علماء المسلمين إلى تقرير ما أثبته العلم التجريبى حديثًا من أن الموجات الصوتية المنتقلة فى الوسط المادى تفقد قدرًا من طاقتها عند اصطدامها بالأجسام تبعًا لنوعيتها وطبيعتها .



● حركة الموجات التضاغطية :

أما عن كيفية انتقال موجات الصوت الطولية التضاغطية خلال الهواء (أو أى وسط مادى) فإننا نعلم الآن أن ذلك يتم عبر سلسلة من التضاغطات (تكاثفات) والتخلخلات التى تحدث لوسط الانتقال ، أى أن الطاقة الصوتية ، لا الوسط ، هى التى تنتقل عن طريق اهتزاز جسيمات الوسط فى اتجاه انتشار التموجات . فعندما يهتز وتر العود ، مثلاً ، فإن حركته إلى الأمام تعمل على ضغط الهواء الملاصق له وانطلاق موجة تضاغطية فى الهواء ، وفى لحظة تالية يتحرك وتر العود إلى الخلف تاركًا وراءه منطقة تخلخل ذات ضغط منخفض تتباعد فيه جزئيات الهواء عن بعضها . وبتكرار هذه العملية مرات

(١) عن قدرى حافظ طوقان ، مرجع سابق ، وقد وجدنا نفس النص منسوبًا لإخوان الصفافى مؤلف الدكتور عمر فروخ : إخوان الصفا . درس - عرض - تحليل ، دار الكتاب العربى بيروت ١٤٠١ هـ ، ١٩٨١ م ص ٧٣

كثيرة تتحرك مناطق التضاغط والتخلخل ذهابًا وإيابًا بنفس الطريقة التى يهتز بها وتر العود وينشأ ما نسميه بموجات الصوت الطولية التضاغطية .

* *

* ومن الجدير بالذكر أن علماء المسلمين قد تعرضوا للحديث عن عملية التكاثف والتخلخل فيما يتعلق بإشكاليات المكان والمادة والخلاء ، فقال بعضهم بأن التخلخل هو تباعد الأجزاء تباعدًا يترك ما بينها خالياً ، والتكاثف رجوع من الأجواء إلى ملء الخلاء المتخلخل . **وذكر ابن سينا** أن (هناك نحواً آخر من التكاثف والتخلخل لا يكون سببه اجتماع الأجزاء المتفرقة ، بل سببه أن المادة نفسها تقبل حجمًا أصغر تارة وحجمًا أكبر تارة أخرى ، وكلاهما أمران عارضان للجسم) (١) ، لكن ربط هذا الكلام بحركة التموجات الصوتية فى الهواء لم يكن واردًا فى تلك المرحلة المبكرة جدًا من التناول العلمى لظاهرة الصوت ، وإن كان من المهم أن يعول عليه عند التأريخ لحركة الموجات التضاغطية فى العلم الطبيعى بوجه عام ، وذلك للوقوف على حقيقة الدور الهام الذى أسهم به أسلافنا فى تحديد وصياغة واستخدام المفاهيم والمصطلحات العلمية .

* *

● سرعة الصوت فى التراث الإسلامى :

يكتسب الحديث عن سرعة الصوت فى كتب التراث الإسلامى أهمية خاصة ، فى الإطار المنهجى لتقييم المعرفة العلمية تاريخيًا . ومن يستعرض هذا الموضوع فى مختلف النصوص التراثية سوف يلاحظ أن البحث فى سرعة الصوت يأتى فى أغلب الأحيان مقارنًا بسرعة الضوء ، فقد ذكر **البيرونى** ، على سبيل المثال ، أن سرعة النور أعظم كثيرًا من سرعة الصوت (٢) وتحدث

---

(١) راجع فى ذلك : د . محمد عاطف العراقى - « الفلسفة الطبيعية عند ابن سينا » - دار المعارف ١٩٨٣ ، ص ١١٢ وما بعدها .

(٢) عمر فروخ ، تاريخ العلوم عند العرب ، مرجع سابق ، ص ٤١٨

ابن سينا عن تأخر سماع صوت الرعد عن رؤية وميض البرق ، لكنه علّل ذلك بأن البرق يُرى فى الآن (أى فى نفس لحظة حدوثه) بلا زمان ، وأما السمع فيحتاج فيه إلى تموج الهواء أو ما يقوم مقامه من أجسام صلبة أو سائلة ، وذلك يحدث فى زمان :

فإذا اتفق أن قرع إنسان من بعد جسمًا على جسم فإنك ترى القرع قبل أن تسمع الصوت ، لأن الإبصار ، فيما يرى ابن سينا ، ليس له زمان والاستماع يحتاج إلى (آن) ، وإذا كان ابن سينا قد جانبه الصواب فى تعليل الشق الخاص بالإبصار ، فإن الحسن ابن الهيثم استطاع بالتجربة العملية أن يبطل نظرية السرعة الآنية للضوء التى قال بها ابن سينا ، وأن يثبت أن للضوء زمانًا وسرعة معينة كما أن للصوت زمانًا وسرعة معينة ، إلا أن زمان حركة الضوء أسرع بحيث لا يحس به أصلاً (١) .

ومما يؤسف له أن أحدًا فى ذلك الوقت لم يفد من هذه الأفكار الهـامة فى تقدير سرعة الصوت كميًا (٢) ، وتأخرت هذه الخطوة الهامة والبسيطة إلى القرن السابع عشر عندما تمكن ميرسين وجاسندى Mersenne And Gassendi من إجراء أول تجربة عملية لتعيين سرعة الصوت فى الهواء عن طريق قياس الفترة الزمنية التى تنقضى بين لحظة رؤية النار المنبعثة من فوهة مدفع (أو بندقية) عند إطلاق قذيفة منه على مسافة بعيدة محددة وبين لحظة سماع صوت القذيفة .

وظلت فكرة الربط بين ضوء وصوت صادرين من مصدر واحد فى نفس اللحظة أساسًا لتجارب عديدة ، أجريت بعد ذلك إلى أن تمكن إسكلاجنون E . Esclagnon خلال الحرب العالمية الأولى فى عامى ١٩١٧، و١٩١٨م ، من تقدير سرعة الصوت فى الهواء الجاف عند درجة الصفر

---

(١) كمال الدين الفارسى ، كتاب « تنقيح المناظر لذوى الأبصار والبصائر » ، الجزء الأول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م ، ص ٢٨٠ وما بعدها .

(٢) نرى سببًا لذلك غير عدم توافر أجهزة دقيقة لقياس الزمن بالثوانى فى تلك المرحلة المبكرة من تاريخ التقنية عمومًا وأجهزة القياس الدقيق بخاصة .

المثوى بدقة عالية تقترب من القيمة النظرية لسرعة الموجات التضاغطية وهى ١ر٠٣٣ مترًا فى الثانية (١) .

* *

● أراء متقدمة للمسلمين فى علم الصوتيات وتطبيقاته :

* يتضح مما سبق أن طبيعة الصوت وانتقال الموجات الصوتية وإنعكاسها كانت معروفة تمامًا فى كتب التراث العلمى الإسلامى بنفس المفاهيم التى نعرفها عنها اليوم ، وقد أفاد علماء الحضارة الإسلامية من نظريتهم فى علم الصوتيات ، وسجلوا آراء كثيرة متقدمة فى مجالات متنوعة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

١ - تقديم تفسير مناسب لآلية بعض مصادر الصوت ، على نحو ما ورد عن **إخوان الصفا** فى صوت الرعد : فقد زعموا الصواب فى أن « البخار الرطب » يتمدد فى طبقة ما من الهواء فيضيق به مكانه فيحاول الانفلات فيمر فى الهواء كله ويحدث صوتًا هو الرعد (٢) .

وهذا التصور لا يختلف كثيرًا عن التفسير المعاصر الذى يقضى بأن صوت الرعد ينجم عن تسخين شديد مفاجىء يحدثه البرق فى منطقة انبعاثه ، حيث يتمدد الهواء فجأة ويزداد حجمه ويتمزق محدثًا تفريغًا جزئيًا فى المكان ، أى تخلخلاً ، ولذا سرعان ما يندفع الهواء من كل صوب ليملأ موضع الفراغات ، وتتولد بذلك سلسلة من أمواج التضاغط والتخلخل فى الجو ، هى صوت الرعد .

وما دوِىّ الرعد المعروف إلا سلسلة الانعكاسات التى تحدث لموجات صوت الرعد الأصلى من قواعد السحب وقمم المرتفعات ونحوها .

---

(١) A . I Reimann, Physics, Vol, PP 285 - 286, Barnes NoBle, inc., New York1971

(٢) الدكتور عمر فروخ : « إخوان الصفا » ، مرجع سابق ص ٧٤ .

٢ - استخدام القياس والمماثلة لاستحداث نظريات جديدة ، على نحو ما ذكر كمال الدين الفارسى فى كتابه « تنقيح المناظر لذوى الأبصار والبصائر » من أن « الحركة التى مر تقريرها فى الأضواء إنما هى على نحو حركة الأصوات ، لا على نحو حركة الأجسام » (١) . فهو بذلك يشير لأول مرة إلى أن الضوء يسرى بحركة موجية شأنه شأن الصوت الذى اتفق على أنه ينتقل فى تموجات .

ومما يحز فى نفس كل مسلم أن هذا الرأى المتقدم لكمال الدين الفارسى يذكر فى كتب العلم منسوبًا لعالم غربى يدعى « هيجنز » (*) نشره عام ١٦٩٠ م وأيدته تجربة يونج المشهورة عام ١٨٠١ م ، ثم تجربة فرنل عام ١٨١٤ م .

٣ - تطوير علم التأليف (الموسيقى والآلات الموسيقية) ، والتوصل إلى أن اهتزاز الأوتار يخضع لعلاقة ثابتة تربط بين طول الوتر وغلظه وقوة توتره وشدة النقر عليه ، وبين نوع الصوت الذى يحدث عنه . لكن الصياغة الرياضية لهذه العلاقة لم تتحقق إلا فى القرن السابع عشر .

● ولعل الكندى كان صاحب أول مدرسة عربية للموسيقى فى العصر الإسلامى ، وكانت الموسيقى عنده من العلم الطبيعى ، ولكنها أيضًا ذات صلة وثيقة بالرياضيات ، ثم هى ذات أثر فى شفاء الأمراض ، وكان يعدها وسيلة لتحقيق غاية إنسانية أعلى . (٢) .

٤ - الاستفادة من الخصائص المعروفة للصوت فى علم التصنيف ، مثال ذلك :

---

(١) د . على الدفاع ، ود . جلال شوقى « أعلام الفيزياء فى الإسلام » - ط ٢، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م . ص ٦٩

(*) كم من سرقات وسطو على تراثنا الإسلامى والعربى . . ونحن عن السارق والمسروق غافلون . .

(٢) راجع فى ذلك د . أحمد فؤاد الإهوانى « الكندى فيلسوف العرب » - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥ ، ص ١٦١ ، وما بعدها .

تصنيف الأصوات إلى أنواع منها : الجهير والخفيف والحاد والغليظ ، تبعًا لطبيعة الأجسام المصوتة وقوة تموج الهواء .

وأيضًا تصنيف الحيوانات إلى : حيوانات ذوات الرئة ، وهى التى تختلف أصواتها باختلاف أطوال أعناقها وسعة حلاقيمها ، وتركيب حناجرها وشدة استنشاقها الهواء وقوة دفع أنفاسها من أفواهها ومناخرها .

وحيوانات ليست لها رئة ولكن لها أجنحة كالزنابير ، وهى التى تحدث الأصوات نتيجة لتحرك الهواء بالأجنحة .

وحيوانات ليست لها رئة ولا أجنحة كالديدان ، والسلاحف ، وهى تسمى الحيوانات الخرس ، وتختلف الأصوات التى تحدثها باختلاف يبسها وصلابتها.

* * *

الملحق الثالث

السحر والسحرة وحقيقة الملكين ببابل

هاروت وماروت (*)

يقول الله تعالى :

﴿ وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى المَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ، وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ المَرْءِ وَزَوْجِهِ ، وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ ، وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ ، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

(*) مقتبس بتصرف لا يخل بالمعنى ص ٢٦٢ من تفسير : « التحرير والتنوير » : للعلامة الأستاذ الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى - طبع الدار التونسية سنة ١٩٨٤ م ، ونكتفي بشرحه للآية ﴿ واتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا ﴾ . . . إلى آخرها . . ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (رقم ١٠٢) ، وغرضنا في هذا الملحق ردع المبطلين المشعوذين ، ورد الثقة للخائفين المتوهمين حتى من خيالهم .

(١) البقرة : ١٠٢ ، ١٠٣

لمزيد من الفائدة ، وإرشاداً للمسلم الذى سيطرت عليه الخرافة والوهم ، نقتبس هذه المقطفات المفيدة ، من تفسير هذا العالم الجليل ، إعلاناً للحقيقة ، فى هذه الآية :

- المراد بالكتاب فى الآية السابقة : هو القرآن الكريم ، أو التوراة .

- سبب النزول : أن نبينا ﷺ ذكر أن سليمان عليه السلام نبى : فقالت اليهود : سليمان ساحر وليس بنبى .

- هل المقصود بالشياطين . . من الإنس ؟ أو من الجن ؟

- التلاوة إذا تعدى فعلها بعلى . . . تضمن الفعل معنى الكذب .

- سليمان ولد قبل المسيح - عليهما السلام بـ ١٠٣٢ سنة .

- حقيقة السحر . . . تمويه ، وتلبيس ، وتخييل ، وتعلمه خبث وسخافةوكفر وعصيان .

- كثر ذكر السحر بين المسلمين بعد الهجرة .

- الأديان والكتب السماوية تحرم السحر . . . ولكن الكهنة مارسوه أول الأمر ، والمشعوذين آخر الأمر،والدجالين حتى الآن مع الجهلة والإمعات .

- أصول السحر : التمويهات والإرهاب ، واستخدام مؤثرات من خصائص الأجسام ، والشعوذة ، والتمويه ، والتجسس بخفة الحركة والسرعة . جاء فى القرآن الكريم : ﴿ سَحَرُوا أعيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾، و﴿ إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ﴾ ، و﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ .

- يشترط فى الساحر : الذكاء وقوة الإرادة ، وكتمان السرّ ، والثبات .

- ويشترط فى المسحور : خور العقل ، وضعف العزيمة ، والجهالة ، والأمية .

- رأى علماء الإسلام فى السحر - وعقوبة الساحر عندهم ؟

- ما قصة الملكين ببابل ؟ وما حقيقة هاروت وماروت ؟

- إشكالات ودفعها .

- لماذا قال المعلمان : إنما نحن فتنة ، وهم يعلّمون ؟

- إفساد ما بين الزوجين ، كيف يتم ؟ وما خطره ؟

- النافع والضار هو الله تعالى .

- متعاطى السحر لا حظ له فى الدنيا ولا فى الآخرة إلا الخسارة ، وغضب الله تعالى ، فأولى به عدم الاشتغال به ، وعدم الضحك به على السذج والبسطاء ، والضعفاء فى العقل والإيمان .

يقول العلامة ابن عاشور رحمه الله تعالى :

﴿ وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾

إن كان المراد بكتاب الله فى قوله « كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ » (١) : القرآن، فالمعنى : أنهم لما جاءهم رسول الله مصدقًا لما معهم نبذوا كتابه بعلة أنهم متمسكون بالتوراة فلا يتبعون ما خالف أحكامها ، وقد اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ، وهو مخالف للتوراة ؛ لأنها تنهى عن السحر والشرك ، فكما قيل لهم فيما مضى : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ ﴾ ، يقال لهم : أفتؤمنون بالكتاب تارة ، وتكفرون به تارة أخرى .

وإن كان المراد بكتاب الله (التوراة) فالمعنى لما جاءهم رسول الله نبذوا ما فى التوراة من دلائل صدق هذا الرسول ، وهم مع ذلك قد نبذوها من قبل حين « اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان » ، مع أن ذلك مخالف لأحكام التوراة .

قال القرطبى : قال ابن إسحاق : لما ذكر النبى ﷺ سليمان فى الأنبياء

---

(١) فى الآية السابقة ، والضمير يرجع إلى اليهود العاصين .

قالت اليهود : إن محمدًا يزعم أن سليمان نبى ، وما هو بنبى ، ولكنه ساحر فنزلت هذه الآية .

و« الشياطين » يحتمل أن يكونوا شياطين من « الجن » ، وهو الإطلاق المشهور ، ويحتمل أن يراد به ناس تمردوا وكفروا وأتوا بالفظائع الخفية ، فأطلق عليهم الشياطين على وجه التشبيه كما فى قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ ﴾ (١) ، وقرينة ذلك قوله : ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ فإنه ظاهر فى أنهم يدرسونه للناس ، وكذلك قوله بعده : ﴿ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ إذ هذا الاستدراك فى الإخبار يدل على أنهم من (الإنس) لأن كفر الشياطين من الجن أمر مقرر لا يحتاج للإخبار عنه (١) .

(والاتباع) فى الأصل هو المشى وراء الغير ، ويكون مجازًا فى العمل بقول الغير .

والتلاوة قراءة المكتوب والكتاب وعرض المحفوظ عن ظهر قلب ، وفعلها يتعدى بنفسه : « يتلون عليكم آياتى » فتعديته بحرف الاستعلاء يدل على تضمنه معنى تكذب ، أى : تتلو تلاوة كذب على ملك سليمان ، كما يقول : تقوّل على فلان ، أى : قال عليه ما لم يقله ، وإنما فهم ذلك من حرف (على) . . . .

(وسليمان) هو النبى سليمان بن داود بن يسى من سبط يهوذا ، ولد سنة ١٠٣٢ قبل المسيح .

وولى ملك إسرائيل سنة ١٠١٤ قبل المسيح ، بعد وفاة أبيه داود النبى ، ملك إسرائيل ، وتوفى فى أورشليم سنة ٩٧٥ قبل المسيح ، وعظم ملك بنى

---

(١) ذكر هنا ما رواه ابن إسحاق ، أن الشياطين بعد موت النبى سليمان - عليه السلام - كتبوا السحر وختموه بخاتم سليمان ، أو أن آصف بن برخيا وزير سليمان كتب الحكمة لسليمان ، وزاد الشياطين أشياء عن السحر فيها ، فقالت اليهود : كان سليمان - عليه السلام - ساحرًا ، وما هو بساحر » .

إسرائيل فى مدته وكان يأكل من كسب يده كحداد ، مع أنه كان نبيًا وملكا ، حكيمًا شاعرًا ، وجعل لمملكته أسطولاً بحريًا عظيمًا كانت تمخر سفنه البحار إلى جهات قاصية مثل شرق إفريقيا . .

* *

وقد كان اليهود يعتقدون كفر سليمان فى كتبهم ؛ فقد جاء فى سفر الملوك الأول : أن سليمان فى زمن شيخوخته أمالت نساؤه المصريات والصيدونيات والعمونيات قلبَه إلى آلهتهن ، مثل : (عشتروت) إله الصيدونيين ، و(مُولوك) إله العمونيين (الفينيقيين) ، وبنى لهاته الآلهة هياكل فغضب الله عليه ؛ لأن قلبه مال عن إله إسرائيل ، الذى أوصاه أن لا يتبع آلهة أخرى ، لذلك قال الله تعالى مكذبًا لهم : ﴿ ومَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ (١) .

* *

● **حقيقة السحر** : وقوله : ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ حال من ضمير كفروا ، والمقصود منه تشنيع حال كفرهم إذ كان مصحوبًا بتعليم السحر .

* **والسحر** : الشعوذة ، وهى تمويه الحيل بإخفائها تحت حركات وأحوال يظن الرائى أنها هى المؤثرة ، مع أن المؤثر خفى ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فيه يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ (٢) ، ولذلك أطلق السحر على الخديعة تقول:سحرت الصبى إذا عللته بشىء ، قال لبيد :

فــــإن تسألينا فيمَ نحنُ فإننا عصافيرُ مِن هذا الأنامِ المسحّر

ثم أطلق على ما علم ظاهره وخفى سببه ، وهو التمويه والتلبيس وتخييل

---

(١) شياطين الإنس ، أو شياطين الجن . (٢) الحجر : ١٤ ، ١٥

غير الواقع واقعًا ، وترويج المحال ، تقول العرب : عنز مسحورة إذا عظم ضرعها وقل لبنها ، وأرض مسحورة : لا تنبت ، قال أبو عطاء :

فـوالله ما أدرى وإنى لصـادق   أداء عرانى من حبابك أم سحر

أى شىء لا يعرف سببه .

والعرب تزعم : أن الغيلان سحرة الجن ؛ لما تتشكل به من الأشكال وتعرضها للإنسان .

والسحر من المعارف القديمة التى ظهرت فى منبع المدنية الأولى ، أعنى : ببلاد المشرق ، فإنه ظهر فى بلاد الكلدان والبابلين وفى مصر فى عصر واحد ، وذلك فى القرن الأربعين قبل المسيح ، مما يدل على أنها كانت فى تينك الأمتين من تعاليم قوم نشأوا قبلهما ، فقد وجدت آثار مصرية سحرية فى عصر العائلة الخامسة من الفراعنة والعائلة السادسة (٣٩٥١ - ٣٧٠٣) ق . م

* *

● **للعرب خيال واسع فى السحر :**

للعرب فى السحر خيال واسع ، وهو : أنهم يزعمون أن السحر يقلب الأعيان ، ويقلب القلوب ، ويطوع المسحور للساحر ؛ ولذلك كانوا يقولون : إن الغول ساحرة الجن ولذلك تتشكل للرائى بأشكال مختلفة .

وقالت قريش لما رأوا معجزات رسول الله : إنه ساحر ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ (١) ، وقال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ۞ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴾ (٢) .

وفى حديث البخارى عن عمران بن حصين : أن القوم عطشوا فى سفر

(١) القمر : ٢   (٢) الحجر : ١٤ ، ١٥

مع رسول الله فطلبوا الماء ، فوجدوا امرأة على بعير لها مزادتان من ماء ، فأتيا بها رسول الله فسقى رسول الله جميع الجيش ، ثم رد إليها مزاديتها كاملتين ، فقالت لقومها : فوالله إنه لأسْحَرُ من بين هذه وهذه ، تعنى السماء والأرض .

وفى الحديث : « إنَّ منَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا » . . ولم أر ما يدل على أن العرب كانوا يتعاطون السحر ، فإن السحر مستمد من خصائص الأمور الطبيعية والتركيب ، ولم يكن للعرب ضلاعة فى الأمور اليدوية ، بل كانت ضلاعتهم فكرية محضة ، وكان العرب يزعمون : أن أعلم الناس بالسحر اليهود والصابئة ، وهم أهل بابل ، ومساق الآية يدل على شهرة هؤلاء بالسحر عند العرب .

وقد اعتقد المسلمون : أن اليهود فى يثرب سحروهم فلا يولد لهم ؛ فلذلك استبشروا لما ولد عبد الله بن الزبير ، وهو أول مولود للمهاجرين بالمدينة ، كما فى صحيح البخارى . ولذلك لم يكثر ذِكْر السحر بين العرب المسلمين . . إلا بعد أن هاجروا إلى المدينة ؛ إذ قد كان فيها اليهود ، وكانوا يوهمون بأنهم يسحرون الناس .

* *

ويداوى من السحر العراف ، ودواء السحر : السلوة ، وهى خرزات معروفة تحك فى الماء ويُشرب ماؤها . .

* *

● الكتب السماوية تحرم السحر :

وورد فى التوراة : النهى عن السحر ؛ فهو معدود من خصال الشرك ، وقد وصفت التوراة به أهل الأصنام : فقد جاء فى سفر التثنية فى الإصحاح ١٨ : « إذا دخلتَ الأرض التى يعطيك الرب إلَهُك . لا تتعلمْ أن تفعل مثل رجس أولئك الأُمم ، لا يوجد فيك من يَزجّ ابنه أو ابنته فى النار ، ولا مَن يَعْرِف

عرَافَة ، ولا عائف ، ولا متفائل ، ولا ساحر ، ولا من يَرقى رقية ، ولا من يسأل جانًا ، أو تابعه ، ولا من يستشير الموتى ؛ لأن كل من يفعل ذلك مكروه عند الرب » .

* وفى سفر اللاويين الإصحاح ٢٠ (٦) والنفس التى تلتفت إلى الجان وإلى التوابع لتزنى وراءهم . . أجْعل وجهى ضد تلك النفس وأقطُعها من شعبها » (٢٧) ، وإذا كان فى رجل أو امرأة جانٌ أو تابعة فإنه يقتل بالحجارة يرجمونه دمُه عليه) .

* وكانوا يجعلونه أصلاً دينيًا لمخاطبة أرواح الموتى وتسخير الشياطين وشفاء الأمراض (١) .

وقد استفحل أمره فى بلد الكلدان وخلطوه بعلوم النجوم وعلم الطب .

وأرجع المصريون المعارف السحرية إلى جملة العلوم الرياضية التى أفاضها عليهم « طوط » ، الذى يزعمون أنه إدريس ، وهو هرمس عند اليونان .

وقد استخدم الكلدان والمصريون فيه أسرارًا من العلوم الطبيعية والفلسفية والروحية قصدًا لإخراج الأشياء فى أبهر مظاهرها ؛ حتى تكون فاتنة أو خادعة وظاهرة ، كخوارق عادات ، إلا أنه شاع عند عامتهم وبَعُدَ ضَلالهم عن المقصد العلمى منه ، فصار عبارة عن التمويه والتضليل ، وإخراج الباطل فى صورة الحق ، أو القبيح فى صورة حسنة أو المضر فى صورة النافع .

● وعند الكلدان وكهنة مصر :

وقد صار عند الكلدان والمصريين خاصية فى يد الكهنة ، وهم يومئذ أهل العلم من القوم الذين يجمعون فى ذواتهم الرئاسة الدينية والعلمية ، فاتخذوا قواعد العلوم الرياضية والفلسفية والأخلاقية ، لتسخير العامة إليهم ، وإخضاعهم بما يظهرونه من المقدرة على علاج الأمراض والاطلاع على الضمائر بواسطة الفراسة والتأثير بالعين والمكائد (٢) .

* وقد نقلته الأُمم عن هاتين الأمتين وأكثر ما نقلوه عن الكلدانيين ، فاقتبسه

(١) يضحكون به على الجهالة ؛ ويأكلون أموالهم بغير حق .
(٢) ورزق الهبل على المجانين .

منهم السريان (الأشوريون) واليهود والعرب وسائر الأمم المتدينة ، والفرس واليونان والرومان .

* *

● **وأصول السحر ثلاثة :**

الأول : زجر النفوس بمقدمات توهيمية وإرهابية بما يعتاده الساحر من التأثير النفسانى فى نفسه ، ومن الضعف فى نفس المسحور ، ومن سوابق شاهدها المسحور واعتقدها ، فإذا توجه إليه الساحر سُخر له ، وإلى هذا الأصل الإشارة بقوله تعالى فى ذكر سحرة فرعون : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾ (١) .

الثانى : استخدام مؤثرات من خصائص الأجسام من الحيوان والمعدن ، وهذا يرجع إلى خصائص طبيعية كخاصية الزئبق ، ومن ذلك العقاقير المؤثرة فى العقول صلاحًا أو فسادًا ، والمفترة للعزائم والمخدرات والمرقدات على تفاوت تأثيرها . . وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى فى سحرة فرعون : ﴿ إِنَّ مَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ﴾ (٢) .

الثالث : الشعوذة واستخدام خفايا الحركة والسرعة والتموج ؛ حتى يخيل الجماد متحركًا ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ (٣) .

هذه أصول السحر بالاستقراء .

وقد قسمها الفخر فى التفسير إلى ثمانية أقسام لا تَعْدُوا هذه الأصول الثلاثة وفى بعضها تداخل . . ولعلماء الأفرنج تقسيم آخر ليس فيه كبير جدوى .

وهذه الأصول الثلاثة كلها أعمال مباشرة للمسحور ومتصلة به ، ولها تأثير عليه بمقدار قابلية نفسه الضعيفة وهو لا يتفطن لها ، ومجموعها هو الذى

---

(١) الأعراف : ١١٦ (٢) طه : ٦٩ (٣) طه : ٦٦

أشارت إليه الآية ، وهو الذى لا خلاف فى إثباته على الجملة دون تفصيل ، وما عداها من الأوهام والمزاعم هو شىء لا أثر له ، وذلك كل عمل لا مباشرة له بذات من يراد سحره ويكون غائبًا عنه فيدعى أنه يؤثر فيه .

وهذا مثل : رسم أشكال يعبر عنها بـ الطلاسم ، أو عقد خيوط والنفث عليها برقيات معينة ، تتضمن الاستنجاد بالكواكب ، أو بأسماء الشياطين والجن وآلهة الأقدمين .

وكذا كتابة اسم المسحور فى أشكال ، أو وضع صورته أو بعض ثيابه وعلائقه وتوجيه كلام إليها بزعم أنه يؤثر ذلك فى حقيقة ذات المسحور .

أو يستعملون إشارات خاصة نحو جهته أو نحو بلده وهو ما يسمونه بالأرصاد .

وذكر أبو بكر ابن العربى فى القبس : أن قريشًا لما أشار النبى ﷺ بأصبعه فى التشهد قالوا هذا محمد يسحر الناس .

أو جمع أجزاء معينة وضم بعضها إلى بعض ، مع نية أن ذلك الرسم أو الجمع لتأثير شخص معين بضر أو خير أو محبة أو بغضة أو مرض أو سلامة ، ولا سيما إذا قرن باسم المسحور وصورته أو بطالع ميلاده .

فذلك كله من التوهمات ، وليس على تأثيرها دليل من العقل ولا من الطبع ولا ما يثبته من الشرع (١) .

وقد أنحصرت أدلة إثبات الحقائق فى هذه الأدلة ، ومن العجائب : أن الفخر فى التفسير حاول إثباته بما ليس بمقنع .

* *

● النبى محمد لم يسحر :

وقد تمسك جماعة لإثبات تأثير هذا النوع من السحر ، بما روى فى الصحيحين - عن قول عائشة : أن لبيد بن الأعصم سحر النبى ﷺ ورؤيا

---

(١) الناس فى الغرب غاصوا فى أعماق البحار ، وصعدوا إلى آفاق الأفلاك والكواكب . . ومازال بعض السفهاء يغوصون فى قراءة الطالع والودع والفنجان ، فتبا للجهل والخرافة .

النبى ﷺ أن ملكين أخبراه بذلك السحر ، وفى النسائى عن زيد بن أرقم مثله مختصرًا ، وينبغى التثبت فى عباراته ثم فى تأويله .

ولا شك أن لبيدًا حاول أن يسحر النبى ﷺ فقد كان اليهود سحرة فى المدينة وأن الله أطلع رسوله على ما فعله لبيد ، لتكون معجزة للنبى ﷺ فى إبطال سحر لبيد ، وليعلم اليهود أنه نبى ، لا تلحقه أضرارهم .

وكما لم يؤثر سحر السحرة على موسى ، كذلك .. لم يؤثر سحر لبيد على رسول الله ﷺ **وإنما عرض للنبى ﷺ عارض جسدى شفاه الله منه ، فصادف أن كان مقارنًا** لما عمله لبيد بن الأعصم من محاولة سحره ، وكانت رؤيا النبى ﷺ إنباء من الله له بما صنع لبيد ، والعبارة عن صورة تلك الرؤيا كانت مجملة ؛ فإن الرؤى رموز ، ولم يرد فى الخبر تعبير ما اشتملت عليه ، فلا تكون أصلاً لتفصيل القصة .

● **شروط وأحوال التأثير فى الساحر والمسحور :**

ثم إن لتأثير هاته الأسباب أو الأصول الثلاثة شروطًا وأحوالاً : بعضها فى ذات الساحر ، وبعضها فى ذات المسحور .

فيلزم فى الساحر : أن يكون مفرط الذكاء ، منقطعًا لتجديد المحاولات السحرية ، جسورًا قوى الإرادة ، كتومًا للسر ، قليل الاضطراب للحوادث ، سالم البنية ، مرتاض الفكر خفى الكيد والحيلة ، ولذلك كان غالب السحرة رجالاً ، ولكن كان الحبشة يجعلون السواحر نساء ، وكذلك كان الغالب فى الفرس والعرب ، قال تعالى : ﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ ، فجاء بجمع الإناث ، وكانت الجاهلية تقول إن الغيلان عجائز من الجن ساحرات ، فلذلك تستطيع التشكل بأشكال مختلفة ، وكان معلمو السحر يمتحنون صلاحية تلامذتهم لهذا العلم : بتعريضهم للمخاوف ، وأمرهم بارتكاب المشاق ، تجربة لمقدار عزائمهم وطاعتهم .

* وأما ما يلزم فى المسحور : فخور العقل ، وضعف العزيمة ، ولطافة

البنية ، وجهالة العقل ، ولذلك كان أكثر الناس قابلية له : النساء والصبيان والعامة،ومن يتعجب فى كل شىء .

ولذلك كان من أصول السحر إلقاء أقوال كاذبة على المسحور ؛ لاختبار مقدار عقله فى التصديق بالأشياء الواهية والثقة بالساحر ، قال تعالى : ﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (١) ، فجعلوا ذلك القول الغريب سحرًا .



● **التمويه فى السحر** : ثم تحف بالسحر أعمال القصد منها التمويه ، وهذه الأعمال أنواع :

١ - نوع الغرض منه تقوية اعتقاد الساحر فى نجاح عمله ، لتقوى عزيمته فيشتد تأثيره على النفوس ، وهذا مثل : تلقين معلمى هذا الفن تلامذتهم عبادة كواكب ومناجاتها لاستخدام أرواحها ، والاستنجاد بتلك الأرواح على استخدام الجن والقوى المتعاصية ؛ ليعتقد المتعلم أن ذلك سبب نجاح عمله ، فيقدم عليه بعزم ، وفى ذلك تأثير نفسانى عجيب ، ولذلك يسمون تلك الأقوال والمناجاة : عزائم جمع عزيمة ، ويقولون : فلان يعزِّم إذا كان يسحر ، ثم هو إذا استكمل المعرفة .. قد يتفطن لقلة جدوى تلك العزائم وقد لا يتفطن . وعلى كلتا الحالتين فمعلموه لا يتعرضون له فى نهاية التعليم بالتنبيه على فساد ذلك ، لئلا يدخلوا عليه الشكوك فى مقدرته ؛ فلذلك بقيت تلك الأوهام يتلقاها الأخلاف عن أسلافهم .

ومن هذا النوع : ضروب هى فى الأصل تجارب لمقدار طاعة المتعلم لمعلمه بقيت متلقاة عندهم عن غير بصيرة ، مثل : ارتكاب الخبائث ، وإهانة الصالحات والأمور المقدسة ؛ إيهامًا بأنها تُبلِّغ إلى مرضاة الشياطين وتسخيرها ،

---

(١) هود : ٧

وذلك فى الواقع اختبار لمقدار خضوع المتعلم ؛ لأن أكبر شىء على النفس نبذ أعز الأشياء وهو الدين ، ولأن السحرة ليسوا من المليين ، فهم يبلغون بمريديهم إلى مبالغهم السافلة .

وقد سمعنا : أن كثيرًا ممن يتعاطون السحر فى المسلمين يزعمون أنهم لا يتأتى لهم نجاح إلا بعد أن يلطخوا أيديهم بالنجاسات أو نحو من هذا الضلال .

* *

٢ - ونوع الغرض منه : إخفاء الأسباب الحقيقية لتمويهاتهم ، حتى لا يطلعَ الناس على كنهها ؛ فيستندون فى تعليل أعمالهم إلى أسباب كاذبة : كندائهم بأسماء سموها لا مسميات لها ، ووضعهم أشكالاً على الورق أو فى الجدران ، يزعمون أن لها خصائص التأثير ، واستنادهم لطوالع كواكب فى أوقات معينة ، لا سيما القمر ، ومن هذا تظاهرهم للناس بمظهر الزهد والهمة .

* *

٣ - ونوع يستعان به على نفوذ السحر ، وهو التجسس والتطلع على خفايا الأشياء وأسرارِ الناس بواسطة : السعى بالنميمة ، وإلقاء العداوات بين الأقارب والأصحاب والأزواج حتى يُفْشِيَ كل منهم سر الآخر ؛ فيتخذ الساحر تلك الأسرار وسيلة يُلقى بها الرعب فى قلوب أصحابها ، بإظهار أنه يعلم الغيبَ والضمائرَ ، ثم هو يأمر أولئك الذين أرهبهم ويستخدمهم بما يشاء فيطيعونه : فيأمر المرأة بمغاضبة زوجها ، وطلب فراقه ، ويأمر الزوج بطلاق زوجته ، وهكذا . .

وفى هذا القسم تظهر مقدرة الساحر الفكرية ، وبه تكثر أضراره وأخطاره على الناس ، وجرأته على ارتكاب المرعبات والمطوِّعات ؛ باستئصال الأموال بالسرقة يسرقها من لا يتهمه المسروق ، ومنه : أنه يفعل ذلك من خاصته وأبنائه وزوجه الذين يستهويهم السحرة ويسخرونهم للإخلاص لهم ، وينتهى فعل

السحرة فى هذا إلى حد إزهاق النفوس التى يشعرون بأنها تفطنت لخديعتهم ، أو التى تعاصت عن امتثال أوامرهم يُغرون بها من هى آمن الناس منه ، ثم استطلاع ضمائر الناس بتقريرات خفية ، وأسئلة تدريجية يوهمه بها أنه يسأله عنها ليعلمه بمستقبله .



٤ - ونوع يُجعل اختبارًا لمقدار مراتب أذهان الناس فى قابلية سحره : وذلك بوضع أشياء فى الأطعمة خيفة الظهور ؛ ليرى هل يتفطن لها من وضَعها . وبإبراز خيالات أو أشباح يوهم بها الناظر أنها جن أو شياطين أو أرواح ، وما هى إلا أشكال مموهة أو أعوان من أعوانه متنكرة ، لينظر هل يقتنع رائِيها بما أخبره الساحر عنها . . أم يتطلب كشف حقيقتها أو استقصاء أثرها .



● الأديان الحقَّة تحرم السحر :

فكان السحر قرين خباثة نفس ، وفساد دين ، وشرُّ عمل ، وإرعاب وتهويلٍ على الناس ، من أجل ذلك ما فتئتَ الأديان الحقة تحذر الناس منه ، وتعد الاشتغال به مروقًا عن طاعة الله تعالى ؛ لأنه مبنى على اعتقاد تأثير الآلهة والجِن المنسوبين إلى الآلهة فى عقائد الأقدمين .

وقد حذر موسى - عليه السلام - قومه من السحر وأهله .

ففى سفر التثنية : الإصحاح ١٨ أن مما خاطب به موسى - عليه السلام - قومه : (متى دخلتَ الأرضَ التى يعطيك الربُ إلهك لا تتعلم أن تفعل مثل رجس أولئك الأُمم ، لا يوجد فيك من يجيز [(١)] ابنه أو ابنته فى النار ، ولا من يَعْرُف عِرَافة ولا عائفٌ ولا متفائلٌ ولا ساحرٌ ، ولا من يَرقى رُقية ، ولا من يسأل جانًا أو تابعة ، ولا من يستثير الموتى) .

---

(١) كذا ولعل المراد : من يزج أو يجوز به .

وجعلت التوراة جزاء السحرة القتل : ففى سفر اللاويين الإصحاحين ٢٠ - ٢٧ : « وإذا كان فى رجل أو امرأة جان أو تابعة فإنه يقتل » .

وذكروا عن مالك أنه قال : الأسماء التى يكتبها السحرة فى التمائم : أسماء أصنام .

وقد حذر الإسلام من عمل السحر وذمه فى مواضع ، وليس ذلك بمقتضى إثبات حقيقة وجودية للسحر على الإطلاق ، ولكنه تحذير من فساد العقائد ، وخلع قيود الديانة ، ومن سخيف الأخلاق .

* *

● اختلاف علماء الإسلام فى حقيقة السحر :

وقد اختلف علماء الإسلام فى إثبات حقيقة السحر وإنكارها ، وهو اختلاف فى الأحوال فيما أراه : فكل فريق نظر إلى صنف من أصناف ما يُدعَى بالسحر .

● حكى عياض فى (إكمال العلم) : أن جمهور أهل السُّنَّة ذهبوا إلى إثبات حقيقته . قلت : وليس فى كلامهم وصف كيفية السحر الذى أثبتوا حقيقته فإنما أثبتوه على الجملة . .

وذهب عامة المعتزلة إلى أن السحر لا حقيقة له ، وإنما هو تمويه وتخييل ، وأنه ضرب من الخفة والشعوذة ، ووافقهم على ذلك بعض أهل السنة كما اقتضته حكاية عياض فى (الإكمال) ، قلت : وممن سُمِّى منهم أبو إسحاق الاسترابادى من الشافعية . والمسألة بحذافرها من مسائل الفروع الفقهية تدخل فى عقاب المرتدين والقاتلين والمتحيلين على الأموال ، ولا تدخل فى أصول الدين . وهو وإن أنكره الملاحدة لا يُقتضى أن يكون إنكاره إلحادًا . وهذه الآية غير صريحة . وأما الحديث فقد علمته آنفًا .

* *

● عقوبة الساحر :

شدد الفقهاء العقوبة فى تعاطيه ، قال مالك : يقتل الساحر ولا يستتاب إن كان مسلمًا ، وإن كان ذميًا لا يقتل . . بل يؤدب ، إلا إذا أدخل بسحره أضرارًا على مسلم ، فإنه يقتل ؛ لأنه يكون ناقضًا للعهد ؛ لأن من جملة العهد أن لا يتعرضوا للمسلمين بالأذى . قال الباجى (فى المنتقى) رأى مالك أن السحر كفر وشرك ودليلٌ عليه . وإنه لما كان يستتر صاحبه بفعله فهو كالزندقة لأجل إظهار الإسلام وإبطان الكفر ؛ ولذلك قال ابن عبد الحكم وابن المواز وأصبغ : هو كالزنديق : إن أسرّ السحر لا يستتاب ، وإن أظهره استتيب ، وهو تفسير لقول مالك لا خلاف له ، قال الباجى : فلا يقتل حتى يثبت أن ما يفعله من السحر هو الذى وصفه الله بأنه كفر . قال أصبغ يكشف ذلك من يعرف حقيقته ويثبت ذلك عند الإمام . وفى (الكافى) لابن عبد البر : إذا عمل السحر لأجل القتل وقتَل به قُتل وإن لم يكن كفرًا . وقد أدخل مالك فى الموطأ السحر فى باب الغيلة ، فقال ابن العربى فى (القبس) : وجه ذلك : أن المسحور لا يَعلم بعمل السحر حتى يقع فيه ، قلت : لا شك أن السحر الذى جُعل جزاؤه القتل هو ما كان كفرًا صريحًا مع الاستتار به ، أو حصل به إهلاك النفوس :وذلك أن الساحر كان يَعِد من يأتيه للسحر . . بأن فلانًا يموت الليلة أو غدًا أو يصيبه جنون ، ثم يتحيل فى إيصال سموم خفية من العقاقير إلى المسحور . . تُلقى له فى الطعام بواسطة أناس من أهل المسحور ، فيصبح المسحور ميتًا أو مختل العقل ، فهذا هو مراد مالك بأن جزاءه القتل أى إن قتل . ولذلك قال : لا تقبل توبته ، وبدون هذا التأويل لا يصح فقه هذه المسألة .

فقول مالك فى السحر ليس استنادًا لدليل معين فى خصوص السحر ، ولكنه من باب تحقيق المناط بتطبيق قواعد التعزير والإضرار .

ولبعض فقهاء المذهب فى حكاية هذه المسألة إطلاقات عجيب صدورها من

أمثالهم ، على أن السحر أكثر ما يتطلب لأجل تسخير المحبين محبوبيهم ؛ فهو وسيلة فى الغالب للزنا أو للانتقام من المحبوب أو الزوج : سئل مالك عمن يعقد الرجال عن النساء وعن الجارية تطعم رجلاً شيئًا فيذهب عقله ؟ فقال : لا يقتلان : فأما الذى يعقد فيؤدب ، وأما الجارية فقد أتت أمرًا عظيمًا . قيل : أفتقتل ؟ فقال : لا ، قال ابن رشد فى البيان رأى أن فعلها ليس من السحر أ . هـ .

* وقال أبو حنيفة : يقتل الرجل الساحر ولا يستتاب ، وأما المرأة فتحبس حتى تتركه ، فجعل حكمه حكم (المرتد) ووجَّه أبو يوسف بأنه جمع مع كفره السعى فى الأرض بالفساد ، وعن الشيخ أبى منصور أن القول بأن السحر كفر على الإطلاق خطأ بل يجب البحث عن حقيقته : فإن كان فى ذلك رد ما لزم من شرط الإيمان فهو كفر وإلا فلا ، وما ليس بكفر وفيه إهلاك النفس ، ففيه حكم قُطاع الطريق ، ويستوى فيه الذكور والإناث ، وتقبل توبته إذا تاب . ومن قال : لا تقبل فقد خلط ، فإن سحرة فرعون قبلت توبتهم أ . هـ ، وهذا استدلال بشرع من قبلنا .

* وقال الشافعى : يُسأل الساحر عن سحره ، فإن ظهر منه ما هو كفر فهو كالمرتد يستتاب ، فإن أصر قتل ، وإن ظهر منه تجويز تغيير الأشكال لأسباب قراءة تلك الأساطير أو تدخين الأدوية ، وعَلِم أنه يفعل محرمًا فحكمه حكم الجناية ؛ فإن اعترف بسحر إنسان وأنَّ سحره يقتل غالبًا قُتل قودًا (يعنى إذا ثبت أنه مات بسببه) ، وإن قال : إن سحْرى قد يقتل وقد لا يقتل فهو شِبه عمد ، وإن كان سِحره لغير القتل ؛ فمات منه فهو قتل خطأ تجب الدية فيه مخففة فى ماله .

* ويجب أن يستخلص من اختلافهم ومن متفرق أقوالهم . . ما يكون فيه بصيرة لإجراء أعمال ما يسمى بالسحر وصاحبُه بالساحر : مُجْرَى جنايات أمثاله ومقدار ما أثره من الاعتداء دون مبالغة ولا أوهام .

وقد يطلق اسم الساحر اليوم على اللاعب بالشعوذة فى الأسمار وذلك من أصناف اللهو فلا ينبغى عدّ ذلك جناية .

*　　*

● قصة الملكين ببابل :

﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ .

(ما) موصولة ، والواو عاطفة على أول الآية ﴿ واتَّبَعُوا ﴾ ، وقرئ الملكين بفتح اللام وكسرها ، وهل هناك فرق بين السحرين : تلاوة الشياطين ؟ وما أنزل على الملكين ؟ يقول العلامة ابن عاشور :

.... وكل هاته الوجوه تقتضى ثبوت نزول شىء على الملكين ببابل وذلك هو الذى يعنيه سياق الآية إذا فَصَّلت كيفية تعليم هذين المعلمين عِلم السحر :

* فالوجه أن قوله : « وما أنزل » عطف على « مُلك سليمان » ، فهو معمول لتتلوا الذى هو بمعنى تكذب فيكون المراد عدم صحة هذا الخبر أى ما تكذبه الشياطين على ما أنزل على المَلكين ببابل ، أى ينسبون بعض السحر إلى ما أنزل ببابل .

قال الفخر وهو اختيار أبى مسلم ، وأنكر أبو مسلم : أن يكون السحر نازلاً على المَلكَيْن ؛ إذ لا يجوز أمر الله به ، وكيف يتولى الملائكة تعليمه مع أنه كفر أو فسق ؟

وقيل : (ما) نافية معطوفة على ما كفر سليمان : أى وما كفر سليمان بوضع السحر كما يزعم الذين وضعوه ، ولا أنزل السحر على الملكين ببابل .

وتعريف (الملكين) تعريف الجنس ، أو هو تعريف العهد بأن يكون الملكان معهودين لدى العارفين بقصة ظهور السحر .

*　　*

وقد قيل إن هارون وماروت بدل من الشياطين ، وأن المراد بالشياطين : شيطانان وضعا السحر للناس هما هاروت وماروت ؛ على أنه من إطلاق الجمع على المثنى كقوله : « قلوبكما » ، وهذا تأويل خطأ ؛ إذ يصير قوله : « على الملكين » كلامًا حشوًا .

* *

● **إشكال ودفعُه :**

وعلى ظاهر هذه الآية إشكال من أربعة وجوه :

أحدها : كون السحر مُنْزَلاً إن حمل الإنزال على المعروف منه وهو الإنزال من الله .

الثاني : كون المباشر لذلك مَلَكَيْن من الملائكة على القراءة المتواترة .

الثالث : كيف يَجْمَع الملكان بين قولهما : نحن فتنة ، وقولهما : فلا تكفر ؟ فكيف يجتمع قصة الفتنة مع التحذير من الوقوع فيها .

الرابع : كيف حصرا حالهما في الاتصاف بأنهما فتنة ؟ فما هي الحكمة في تصديهما لذلك ؛ لأنهما إن كانا مَلَكَيْن (بفتح اللام) فالإشكال ظاهر ، وإن كانا ملِكين بكسر اللام . . فهما قد علما مضرة الكفر ؛ بدليل نهيهما عنه وعلمًا معنى الفتنة ؛ بدليل قولهما : إنما نحن فتنة ، فلماذا تورطا في هذه الحالة ؟

* ودفع هذا الإشكال برمته : أن الإنزال هو الإيصال ، وهو إذا تعدى بعلى يدل على إيصال من علو ، واشتهر ذلك في إيصال العلم من وحي أو إلهام أو نحوهما ، فالإنزال هنا بمعنى الإلهام وبمعنى الإيداع في العقل أو في الخلقة : بأن يكون الملكان قد برعا في هذا السحر وابتكرا منه أساليب لم يسبق لهما تلقيها من معلم ، شأن العلامة المتصرف في علمه المبتكر لوجوه المسائل وعللها وتصاريفها وفروعها .

والظاهر عندي : أن ليس المراد بالإنزال إنزال السحر ؛ إذ السحر أمر

موجود من قبل ، ولكنه إنزال الأمرِ للملَكَين ، أو إنزال الوحى أو الإلهام للملكين : بأن يتصديا لبث خفايا السحريين المتعلمين ؛ ليبطل انفراد شرذمة بعلمه ، فيندفع الوجهان الأول والثانى .

ثم إن الحكمة من تعميم تعليمه : أن السحرة فى بابل كانوا اتخذوا السحر وسيلة لتسخير العامة لهم فى أبدانهم وعقولهم وأموالهم ، ثم تطلعوا منه إلى تأسيس عبادة الأصنام والكواكب ، وزعموا أنهم - أى السحرة - مترجمون عنهم وناطقون بإرادة الآلهة . . فحدث فساد عظيم وعمت الضلالة ، فأراد الله على معتاد حكمته إنقاذ الخلق من ذلك : فأرسل أو أوحى أو ألْهم (هاروت وماروت) أن يكشفا دقائق هذا الفن للناس ؛ حتى يشترك الناس كلهم فى ذلك فيعلموا أن السحرة ليسوا على ذلك ويرجع الناس إلى صلاح الحال ، فاندفع الوجه الثالث .

وأما الوجه الرابع : فستعرف دفعه عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ ﴾ . . . الآية .

* وفى قراءة ابن عباس والحسن الملكِين بكسر اللام وهى قراءة صحيحة المعنى فمعنى ذلك أن ملكين كانا يملكان ببابل قد علما علم السحر .

وعلى قراءة فتح اللام : فالأظهر فى تأويله أنه استعارة وأنهما رجلان صالحان ، كان حكما مدينة بابل ، وكانا قد أطلعا على أسرار السحر التى كانت تأتيها السحرة ببابل ، أو هما وضعا أصله ، ولم يكن فيه كفر ، فأدخل عليه الناس الكفر بعد ذلك .

وقيل : هما ملكان أنزلهما الله تعالى ، تشكلا للناس يعلمانهم السحر لكشف أسرار السحرة ؛ لأن السحرة كانوا يزعمون أنهم آلهة أو رسل . . فكانوا يسخرون العامة لهم ، فأراد الله تكذيبهم ذبا عن مقام النبوءة ، فأنزل ملكين لذلك .

وقد أجيب : بأن تعلم السحر فى زمن هاروت وماروت جائز على جهة

الابتلاء من الله لخلقه : فالطائع لا يتعلمه والعاصى يبادر إليه ، وهو فاسد لمنافاته عموم قوله تعالى : ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ ﴾ . قالوا كما امتحن الله قوم طالوت بالنهر . . إلخ . . ولا يخفى فساد التنظير .

* وبابل بلد قديم من مدن العالم وأصل الاسم باللغة الكلدانية (باب إيلو) أى باب الله ويرادفه بالعبرانية (باب إيل) ، وهو بلد كائن على ضفتى الفرات . . . .

* *

* (وهاروت وماروت) بدل من الملكين ، وهما اسمان كلدانيان دخلهما تغيير التعريف لإجرائهما على خفة الأوزان العربية ، والظاهر أن هاروت معرب (هاروكا) ، وهو اسم القمر عند الكلدانيين وأن ماروت معرب (ماروداخ) ، وهو اسم المشترى عندهم .

فيكون (هاروكا) و(ماروداخ) قد كانا من قدماء علمائهم وصالحيهم والحاكمين فى البلاد ، وهما اللذان وضعا السحر . ولعل هذا وجه التعبير عنهما فى القصة بالملَكَين بفتح اللام .

* *

وقوله : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ ﴾ جملة حالية من هاروت وماروت ، وما نافية والتعبير بالمضارع لحكاية الحال إشارة إلى أن قولهما لمتعلمى السحر : ﴿ إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ ، قول مقارن لوقت التعليم لا متأخر عنه . . . وقد علم من هذا أنهما كانا معلمين ، وطوى ذلك للاستغناء عنه بمضمون هاته الجملة فهو من إيجاز الحذف ، أو هو من لحن الخطاب مفهوم للغاية .

وقوله : ﴿ إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ ، الفتنة : لفظ يجمع معنى مرج واضطراب أحوال أحد وتشتت باله بالخوف والخطر على الأنفس والأموال ، على غير عدل ولا نظام،وقد تخصص . . وتعمم بحسب ما تضاف إليه أو بحسب المقام ، يقال : فتنة المال وفتنة الدين .

﴿ فَلا تَكْفُرْ ﴾ ، كما كفر السحرة حين نسبوا التأثيرات للآلهة ، وقد علمت سرها . . فمعنى لا تكفر . . أى لا تفتتن . وبذلك اندفعت كل الإشكالات السابقة .

❊ ❊

﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ .

قوله : ﴿ مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ إشارة إلى جزئى من جزئيات السحر ، وهو أقصى تأثيراته : إذ فيه التفرقة بين طرفى آصرة متينة ؛ إذ هى آصرة مودة ورحمة ، قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (١) ، فإن المودة وحدها آصرة عظيمة ، وهى آصرة الصداقة والأخوة وتفاريعهما ، والرحمة وحدها آصرة منها الأبوة والبنوة ، فما ظنكم بآصرة جمعت الأمرين ، وكانت بجعل الله تعالى ، وما هو بجعل الله فهو فى أقصى درجات الإتقان .

وهذا التفريق يكون إما باستعمال مفسدات لعقل أحد الزوجين حتى يبغض زوجه وإما بإلقاء الحيل والتمويهات والنميمة حتى يفرق بينهما .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ جملة معترضة ، وهذا تنبيه على أن السحر لا تأثير له بذاته ، وإنما يختلف تأثير حيله باختلاف قابلية المسحور ، وتلك القابلية متفاوتة ، ولها أحوال كثيرة أجملتها الآية بالاستثناء من قوله - سبحانه - : ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ أى يجعل الله أسباب القابلية لأثر السحر فى بعض النفوس .

فهذا إجمال حسن مناسب لحال المسلمين الموجه إليهم الكلام ؛ لأنهم تخلقوا بتعظيم الله تعالى وقدرته،وليس المقام مقام تفصيل الأسباب والمؤثرات ، ولكن المقصود إبطال أن تكون للسحر حالة ذاتية وقواعد غير مموهة ، فالباء فى قوله : ﴿ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ للملابسة . . .

---

(١) الروم : ٢١

﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾: أى إلا بما أعد الله فى قابل السحر من استعداد لأن يضر به ، فإن هذا الاستعداد وإمكان التأثر مخلوق فى صاحبه ، فهو بإذن الله ومشيئته .

فليس المعنى أن السحر قد يضر وقد لا يضر ، بل المعنى أنه لا يضر منه إلا ما كان إيصال أشياء ضارة بطبعها . وقوله : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ ، يعنى : ما يضر الناس ضرًا آخر غير التفرقة بين المرء وزوجه ، فضمير يضرهم عائد على غير ما عاد عليه ضمير يتعلمون ، والمعنى أن أمور السحر لا يأتى منها إلا الضر أى فى الدنيا ، فالساحر لا يستطيع سحر أحد ليصير ذكيًا بعد أن كان بليدًا ، أو ليصير غنيًا بعد الفقر ، وهذا زيادة تنبيه على سخافة عقول المشتغلين به ، وهو مقصد الآية .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

الواو للعطف أو للحال . واللام فى (لقد) لام القسم أو لام الابتداء وكذلك لام (لمن) للقسم أو للابتداء . . .

والمعنى بإيجاز : أن اليهود اتبعوا ما تتلوا الشياطين مع علمهم بأن الذى يتعلم ذلك ويضحك به على الناس ليأكل أموالهم بالباطل ، ماله فى الآخرة ولا فى الدنيا من خلاق ولا بركة ، وإنما لهم الخسران المبين . . وكذلك كل من يعمل ذلك .

(والاشتراء) هو اكتساب شىء ببذل غيره ، فالمعنى : أنهم اكتسبوه ببذل إيمانهم المعبر عنه فيما يأتى بقوله أنفسهم .

(والخلاق) الحظ من الخير خاصة . وجاءت « خلاق » نكرة مع تأكيد النفى بمن لمعنى : أن متعاطى السحر لا حظ له فى الدنيا ولا فى الآخرة ، بل له الخسار والبوار ، وذهاب نور الوجه ، وغضب الله ، للساحر والمسحور له .

وإذا انتفى كل حظ من الخير ، ثبت الشر كله ؛ لأن الراحة من الشر خير ، وهى حالة الكفاف - وقد تمناها الفضلاء - أو دونه خشية من الله تعالى .

---

(١) البقرة : ١٠٢

قوله : ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ﴾ وَ﴿ شَرَوا ﴾ بمعنى : باعوا - من الأضداد - بمعنى بذلوا . وهو مقابل قوله : ﴿ لَمَنِ اشْتَرَاهُ ﴾ . ومعنى بذل النفس : هو التسبب لها فى الخسار والبوار .

وقوله : ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ فى آخر الآية مقتضٍ لنفي العلم بطريق (لو) الامتناعية ؛ لأن لو حرف امتناع لوجود : أى يمتنع العلم بالخسران للنفس ، لذلك أهانوا أنفسهم ؛ لأنهم لا يعلمون .. مع أنه أثبت لهم العلم بالتأكيد فى ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا ﴾ أى أن علمهم لم ينفعهم ولم يعصمهم من الوقوع فى الكفر .

تحقيقًا لقول النبى ﷺ : « من أتى كاهناً أو عرافًا فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد » .

والعلم المنفى عنهم هو : غير العلم المثبت لهم فى قوله : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا ﴾ ؛ إلا أن الذى علموه هو : أن مكتسب السحر ما له خلاق فى الآخرة ، والذى جهلوه هنا هو أن السحر شىء مذموم ، وفيه تجهيل لهم ؛ حيث علموا أن صاحبه لا خلاق له ، ولم يهتدوا إلى أن نفى (الخلاق) يستلزم الخسران ؛ إذ ما بعد الحق إلا الضلال . وهذا هو الوجه ؛ لأن لو كانوا يعلمون ذيل به قوله: ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ﴾ .

* والإمام الزمخشرى فى تفسيره ، والسكاكى فى « مفتاحه » ، يقولان فى نفى العلم النافع عن السحرة فى آخر الآية :

١ - المراد بنفى العلم .. أنهم لما كانوا فى علمهم كمن لا يعلم بعدم عملهم به .. نفى العلم عنهم ؛ لعدم الاعتداد به .. تهكمًا عليهم ، لأن علمهم كالجهل .

٢ - أو أن المعنى لو كانوا يعلمون ما يتبع السحر من العذاب فى الآخرة ، لابتعدوا عن ذلك كلية ، أى : كأن علمهم .. لا علم .. وإلا لما خالفوا .

٣ - أو أن الضمير فى (علموا) يرجع إلى الجن ، الذين يعلمون السحر ، وضميرى : ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ .. راجع إلى الإنس الذين تعلموا السحر وباعوا به أنفسهم وخسروها . والله أعلم أ هـ .

* * *

الملحق الرابع

الصواب فى قصة هاروت وماروت

لسماحة الأستاذ راشد عبد الله الفرحان (*)

فى هذا الملحق :

- النافع والضار هو الله تعالى بمشيئته .
- الملكان كانا رجلين من الإنس صالحين ، يعرفان خصائص الأشياء ، وطبائع النفوس ، وحيل المارقين .
- سليمان ، عليه السلام كان رسولاً هاديًا .
- لا يكفر بالقرآن الكريم إلا من فسد طبعه ، والسحر ، والخرافة تشيع مع الجهالة والغباء .
- أراذل اليهود ، وشياطين الإنس والجن يكذبون على الناس السذّج .
- من فسد طبعه ينأى عن الخير ، ويتبع الشر .
- العلماء المحققون قطعوا بأن قصة هاروت وماروت (الموضوعة) خرافية .
- تسللت بعض الأباطيل والخرافات والإسرائيليات [1] إلى تفاسيرنا ، فمتى نتقيها ونتبذها ؟ يقول الأستاذ الفاضل :

(*) من كتابه : « تفسير مشكل القرآن » - ط ثالثة عام ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥ م ، طبعة ، ونشر : جمعية الدعوة الإسلامية ، جـ ١ .

(١) الأسباب التى من أجلها تسللت هذه الخزعبلات إلى شرح قرآننا - فى رأيى هى
- لأن علماء المشرق فروا أمام غزو المغول إلى مصر . ولجأ علماء المسلمين من الأندلس (الفردوس المفقود) إلى مصر .. وكلهم تركوا كتبهم ومؤلفاتهم خلفهم هربًا من جحيم المغول ، والحروب الصليبية ، وابتدأ كل عالم يملى من علمه ، ويستعين =

● قصة هاروت وماروت :

قال الله تعالى : ﴿ أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ، وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ، وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

لقد حشا بعض المفسرين كتبهم بروايات وقصص خرافية عجيبة ما ملخصه :

انه لما كثرت المعاصي في الناس استاء الملائكة ، فجعلوا يدعون عليهم ولا يعذرونهم .

فقال لهم الله : لو كنتم مكانهم لعملتم مثل أعمالهم ، قالوا : سبحانك ما كان ينبغي لنا ، فقيل لهم : اختاروا منكم ملكين ، فاختاروا (هاروت وماروت) فأهبطا إلى الأرض ، وركِّبت فيهما الشهوة ، فصارا يحكمان بين الناس بالحق ، فأعجبتهما امرأة فراوداها عن نفسها ، فأبت إلا أن يكونا على أمرها ودينها . . وأنها سقتهما الخمر فواقعاها ، ومر عليهما رجل فقتلاه .

وبعد أن أفاقا عرفا ما قد وقعا فيه من الخطيئة ، وأرادا أن يصعدا إلى السماء

= بمحافظته التي (تخون أحيانًا) ، وينظر في كتب بني إسرائيل ، وفيها الغث ، وغيره ، فحين اقتبسوا منها مع ما سبق من أسباب . . دخل الخلط في بعض ما كتبوه . . وآن لتفاسيرنا أن تنقى من كل ذلك حتى يعود لها صفاؤها ونقاؤها . . وما ذلك على المسلمين بعسير ، وفاء لتراثهم ، وحفظًا لإسلامهم ، ورعاية لأبنائهم وأحفادهم ، وتقربًا إلى ربهم ، من خير أمة أخرجت للناس .

(١) البقرة : ١٠٠ - ١٠٢

فلم يستطيعا ، فجعلت الملائكة بعد ذلك تستغفر لمن فى الأرض ، وخيراً بين عذاب الدنيا أو الآخرة : فاختارا عذاب الدنيا ، فجعلا ببابل ، فهما بها يعذبان معلقين بأرجلهما ، وأما المرأة فمسخت ؛ فصارت الكوكب المعروف بالزهرة.

* رأى العلماء المحققين :

قال الدكتور الشيخ أبو شهبة (١) .

ولا ينبغى أن يشك مسلم عاقل فضلاً عن طالب حديث ، فى أن هذا موضوع على النبى ﷺ مهما بلغت أسانيده من الثبوت ، فما بالك إذا كانت أسانيدها واهية ، ساقطة ، ولا تخلو من وضّاع ، أو ضعيف ، أو مجهول ؟ ونص على وضعه أئمة الحديث ، وقد حكم بوضع هذه القصة أبو الفرج ابن الجوزى (٢) .

ونص الشهاب العراقى ، على أن : من اعتقد فى هاروت وماروت أنهما ملكان يعذبان على خطيئتهما ، فهو كافر بالله العظيم (٣) .

وقال الإمام القاضى عياض فى كتابه (الشفاء) :

وما ذكره أهل الأخبار ونقله المفسرون فى قصة هاروت وماروت ، لم يرد فيه شىء لا سقيم ولا صحيح عن رسول الله ﷺ : وكذلك حكم بوضع المرفوع من هذه القصة : الحافظ عماد الدين ابن كثير وأما ما ليس بمرفوع إلى النبى ﷺ فبين أن منشأه : روايات إسرائيلية أخذت من كعب الأحبار (٤) ،

---

(١) كتابه الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير ص ٢٢٧
(٢) اللآلئ المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة جـ١ ص ٨٢
(٣) روح المعانى جـ١ص٣٤١
(٤) فضيلة الشيخ يوسف الدجوى ، رحمه الله - من كبار العلماء - ذكر فيما تركه من آثار (مفاهيم إسلامية ، مقالات وفتاوى) طبع الأزهر سنة ١٤٠٢هـ أن كعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، وعبد الله بن سلام ، هم من أهل الكتاب : أسلموا وحسن إسلامهم ، وروى عنهم الصحابة والتابعون لأنهم ثقة .. ولعل بعض ما ذكروه ، ذكروه على أنه من الإسرائيليات .. ونقل غيرهم عنهم بدون تحقيق ومن غير سند فالتبعة على من نقل عنهم ، لا عليهم .. راجع ما كتبه الشيخ الدجوى فى ص ٤٤٤ من الجزء الثانى . والمحقق .

وغيره ، ألصقها الزنادقة أهل الكتاب بالإسلام ، قال رحمه الله فى تفسيره ، بعد أن تكلم على الأحاديث الواردة فى هاروت وماروت ، وأن روايات الرفع غريبة جدًا .

(وأقرب ما يكون فى ذلك : أنه من رواية عبد الله بن عمر ، عن كعب الأحبار ، ورفع مثل هذه الاسرائيليات إلى النبى كذب ، واختلاق ، ألصقته زنادقة أهل الكتاب ، زورًا وبهتانًا) .

* ويقول الشيخ شلتوت فى كتابه (إلى القرآن الكريم) من مجمل الآيات :

(أخذ الله يطمئن رسوله بأن ما أنزل عليه من الآيات الواضحة ، لا يكفر بها إلا من فسد طبعه ، وزاغ عن فطرته ، وكلما عاهدوا عهدًا نبذه فريق منهم نبذوا هداية الله قديمها وحديثها ، وأخذوا يصرفون الناس عن النظر فى الحقائق بالأوهام والأكاذيب .

كانوا يخترعون ، أن ملك سليمان أساسه السحر والشعوذة ، وأن الملكين عندهما أشد أنواع السحر التى تفرق بين المرء وزوجه ، ولمثل هذه الأحاديث شيوع فشاعت بين الناس ، حتى تأثروا بها واتخذوها ديدنهم فى الحياة ، وانشغلوا بها حتى صرفتهم عن كل فضيلة ، وقد بين الله الحق فيما اختلقوا على سليمان وعلى الملكين .

وقرر أن سليمان ما كان ساحرًا ، وما كفر بنعمة ربه ، إنما كان هاديًا ورسولاً .

وأن الملكين : الرجلين الصالحين ، ما كانا بمفسدين فى الأرض ولا بمدلسين على الناس ، إنما كانا ناصحين أمينين .

ولكن المفسدين أنكروا على سليمان النبوة والملك الإلهى ،كما أنكروا فضل الله على الرجلين الصالحين ، فى معرفة خصائص الأشياء وأسرار النفوس ، وزعموا أن ما عندهما وما عند سليمان : سحر وشعوذة [1] .

* *

---

(١) حتى الآن استشهد أستاذنا راشد الفرحان بستة علماء من خيرة علمائنا ، وارتأى رأيهم ، فيما جاء فى اختياره بعدئذ .

● التفسير الصحيح :

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ ، أى ، واتبع اليهود ما كذبت به الشياطين على عهد سليمان من السحر ، ونسبوه إليه ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ ، أى : لم يخرج عن طاعة الله ، ويتعاطى السحر ، وما كفر بنعمة ربه ، إنما كان رسولاً يعلم الناس الحق والهدى ، وإنما الذين كفروا بنعمة الله هم شياطين الإنس والجن ، الذين ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ مخلوطًا ومدسوسًا بما يأخذونه عن الرجلين الصالحين من العلم ؛ ليدلسوا على الناس به ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ .

والواو تدل على أن الذى يعلم الناس ما يضرهم ولا ينفعهم هم الشياطين ، أى : أن الشياطين يعلمون الناس السحر ، وما أنزل على الملكين الرجلين الصالحين الذين اشتهرا لدى الناس بصلاحهما ، حتى أطلقوا عليهما ملكين .

* ولا دليل يعين أن الذى أنزل على الملكين سحر ؛ إذ السحر موجود لدى الشياطين ، والإنزال عليهما يخرجهما من كونهما ملكين ، فالتوراة أنزلت على اليهود ، والإنجيل على النصارى، والقرآن أنزل على المسلمين ، فكلمة : (نزل) لا يختص بها الأنبياء ، بل هى عامة ، كما قال الله : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ (٢) ، وقال فى سورة الروم : ﴿ وَإِن كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ (٣) .

● الملكان رجلان لعدة أسباب :

١ - سكناهما بابل إذ هى بلد بالعراق ، والملائكة لا قرار لهم فى مكان

---

(١) الشعراء : ١٩٨ (٢) النساء : ١٥٣ (٣) الروم : ٤٩

معين مع الإنس يعيشون معهم ، فذلك من علم الله الذى اختص به ، ويؤيد ذلك قراءة ملِكين بكسر اللام ، وهى مروية عن ابن عباس ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، رضى الله عنهم .

٢ - كثيرًا ما يذكر القرآن ما اصطلح عليه الناس من إطلاقات ، كما فى قصة يوسف - عليه السلام - حيث أطلق عليه ملك كريم : ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [1] ويوسف بشر .

٣ - تصدى الملائكة لتعليم الناس الشر والسحر ، الذى برأ الله منه رسله ، يتنافى مع حقيقة الملائكة الذين خلقوا للخير والهداية .

وأما الشر والسحر والكفر - فمن دأب الشياطين وأبناء إبليس ، بل إن الناس بقدر ما عرفوا من عنصر الخير بالملائكة صاروا يصفون الإنسان الطاهر - فيقولون : فلان ملاك [2] .

وبالرجوع إلى الآيات يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ ، أى : أن الرجلين الصالحين .. كانا يحذران الناس الذين يعلمونهم العلم يحذرونهم من الشر ، فيقولان : إنما نحن أى بنى الإنسان ، يفتن بعضنا بعضًا ، ويزين بعضنا لبعض السوء ، ومن ذلك الميل إلى السحر ، فلا تكفر ؛ ولذلك اقتضى التحذير منه ، والمعنىُ بذلك هو : الشيطان الإنسى أو الجنى ، الذى خلط الخير بالشر ، فمزج العلم النافع بالسحر الضار ، ففتن الناس به وأضلهم .

﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ ﴾ أى اليهود الذين اتبعوا الشياطين ﴿ مِنْهُمَا ﴾ الضمير عائد على الشياطين وما أنزل على الملكين ، أى من كلا الأمرين ، من السحر والعلم الذى أنزل على الملكين : ﴿ مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ .

---

(١) يوسف : ٣١ (٢) وكما وصف يوسف عليه السلام فى الآية السابقة .

أو يتعلمون من الملكين وحدهما علمًا يستعملونه بالشر دون الخير .. ومن ذلك التفرقة بين المرء وزوجه .

وقد تكون التفرقة بوسائل شتى ، ومنها : **البيانية** ، كقول الرسول ﷺ : « إنَّ من البيان لسحرًا » .

﴿ وَمَا هُمْ ﴾ دليل آخر على الجمع ، وأن الضر يأتى من جهة الشياطين والسحرة ﴿ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إلا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ بإرادته وعلمه الواسع .

﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ ﴾ ، أى : أنّ الذين اتبعوا الشياطين بأخذهم الشر وترك الخير ، وسعيهم بضر الناس ، وإفساد ذات البين إنما يتعلمون ما يضرهم ولا يستفيدون مما ينفعهم [١] .

* * *

(١) فالسحر والخرافة ، والدجل والشعوذة .. وهم وخيال وخبال ، وقبح وكفر من الساحر والمسحور .

الملحق الخامس

هداية الله تعالى فى الدلالة والمعونة

* الذين يلتمسون لأنفسهم عذراً فى كفرهم وضلالهم - عليهم أن يعرفوا معنيين لهداية الله - هما : الدلالة والمعونة .

وسيظل العصاة الضالون يبررون ارتكابهم المعاصى وسيرهم فى طريق الضلال ، بأن الله أراد لهم أن يكونوا كذلك ، ومن ثم يعترضون على تعذيب الله لهم فى الآخرة .. وهم يريدون بذلك أن يبرروا غواية الشيطان لهم ، وخضوعهم لإغراءاته ، فيرتكبوا من الحرام ما يرتكبون ، ويقترفوا من الآثام ما يقترفون ، زاعمين أن الله قضى الخير على من يريد ، وقضى الشر على من يريد ، والناس لا إرادة لهم فيما يفعلون من خير وشر .

كانت هذه هى مقدمة حديث إمام الدعاة إلى الله ، فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ، وهو يصدر حكاية خواطره الإيمانية عن قول الله تعالى :

﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإِسْلامِ ﴾ .

﴿ وَمَن يُرِدْ أن يُضلَّه يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاءِ، كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) يقول :

(إننا نجد من يقول : إن الله حين يريد لإنسان أن يشرح صدره للإسلام فذلك من إرادة الله ، وما ذنب الكافر إذن ؟ .

ثم يجيب فضيلته عن هذا السؤال بقوله :

إن فى الآية فعل الهداية وهو « يهديه » ، والهداية لها معنيان :

المعنى الأول : « الدلالة » وهى أمر وارد وواجب حتى للكافر ، فقد دل الله طريق الهداية إلى الخير للناس أجمعين ودعاهم إلى سلوكه ، فمنهم من سلك هذا الطريق وآمن ، ومنهم من ضل الطريق وامتنع عن السير فيه فكفر .

---

(١) الأنعام : ١٢٥

فأما الذى آمن فإيمانه بإرادته ، والذى كفر فكفره بإرادته ، ولا يجوز على الله سبحانه وتعالى أن يسوى بين المؤمن والكافر فى الإعانة على الخير ، وهذه هى هداية من نوع آخر غير هداية الدلالة .

وهنا يمكن أن تقول أن المعنى الآخر للهداية هو « المعونة » .

ومعونة الله على الخير لا تكون إلا للذى آمن ، وهذه المعونة تتمثل فى : أن يخفف الله عنه أعباء التكاليف ، وييسرها له ، ويجعله يعشق كل الأوامر ، ويعشق البُعد عن كل النواهى بل ويبغضها أشد البغض .

فالهداية فى أول الأمر بمعنى الدلالة : متاحة للمؤمن والكافر ، ومتاحة للطائع والعاصى .

ولكن الهداية بمعنى المعونة : لا تكون إلا للمؤمن والطائع .

وإذن فلا حجة لقول الكافر بأن هذه هى إرادة الله ، فلماذا يعذبه على شيء قضاه عليه ؟ .

والمؤمن بطبعه يقبل على الطاعة بمحبة وعشق ، ولذلك يقول بعض الصالحين :

« اللهم إنى أخاف ألا تثيبنى على طاعة لأنى أصبحت أشتهيها » .

كأنه عشق الطاعة بحيث لم يجد فيها مشقة أو تكليفاً ، لذلك فهو خائف ، وكأنه قد فهم أنه لا بد أن توجد مشقة .

ومثل هذا الإنسان الصالح قد فقد الإحساس بمشقة التكليف لأنه عشقه ، فآلف العبادة وألفته ، وعشقها وعشقته ، وحدث الإنجذاب بينه وبين الطاعة حتى أنه يجد راحته وطمأنينة قلبه فيها .

وذلك مثل أخذه عشاق التكاليف من رسول الله ﷺ ، فإنه كان حينما يأتى وقت الصلاة يقول لبلال بن رباح وهو مؤذن الرسول : « أرحنا بها يا بلال » .

وهذا غير ما يقوله بعض من يؤدون الصلاة الآن حيث يقول الواحد منهم . هيا نصلى لنزيحها من على ظهورنا : وهؤلاء يؤدونها بالتكليف لا بالمحبة والعشق .

أما الذين ألفوا الراحة فى الصلاة حينما يشتد عليهم أمر خارج عن نطاق أسبابهم ، يقول الواحد منهم : ما دامت الصلاة تريح القلب ، فلأذهب إليها وألقى ربى زائداً على أمر تكليفه لى متقرباً إليه بالنوافل ، فلذلك كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة ، ومعنى حزبه أن الأسباب البشرية لا تنهض به ، فيقوم إلى الصلاة ، وهذا أمر منطقى .

ونقول ولله المثل الأعلى أن الإنسان منا وهو طفل إذا ما ضايقه أمر يذهب إلى أبيه ، فما بالنا ونحن رجال مكلفون إذا ما ضايقنا أمر فوق الأسباب المعطاة لنا من الله فلمن نلجأ ؟

إننا نلجأ لربنا . فلقد كان ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة .

ثم يخاطب الإمام الشيخ الشعراوى تلاميذه ومريديه فى مجلسه فيقول :

إذن فعشق التكليف شىء يدل على أنكم ذقتم حلاوة الطاعة ، وقد يجوز أن يكون التكليف شاقاً عليكم لأنه يخرجكم أولاً عما ألفتم من الاعتياد ، فعندما يأتيكم أمر فيه مشقة تقولون هذه المشقة إنما يريد الله بها حسن الجزاء لنا ، وإذا ما عشقتم الصلاة صارت حبا لكم .

والإنسان مطالب بأن يحارب نفسه فى شهواتها ، ولكن رسول الله ﷺ ، وضع لنا المثل ، فقال : « لا يؤمن أحدكم حتى يصبح هواه تبعاً لما جئت به » . أى يصبح ما يشتهيه موافقاً لمنهج الله ، فإذا وصل وانتهى المؤمن إلى هذه المنزلة فهو نعم العبد السوى .

والهداية كما عرفنا : منها الهداية بمعنى الدلالة ، ومنها الهداية بمعنى المعونة ، وهذه الأخيرة إذا ما اقتنع الإنسان بها وآمن بالله ، فهو سبحانه يخفف عليه أمور التكليف ، ويجعله عاشقاً لها .

ولذلك يقول أهل الصلاح :

ربنا قد فرض علينا خمس صلوات ، فسبحانه يستحق منا الوقوف بين يديه أكثر من خمس مرات .

وفرض علينا ربنا نصاب الزكاة ، وهو ربع العشر من المال ، وسبحانه يستحق منا أكثر من ذلك ، لأنه واهب كل شيء ، وهذا عشق التكليف ، وهذا هو معنى قوله تعالى :

﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ﴾ (١) .

أى يدله سبحانه كما دل كل العباد إلى المنهج ، لكن الذى اقتنع بالدلالة وآمن ، تسهل عليه تبعات التكليف مصداقاً لقول الله تعالى :

﴿ وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوا هُدًى ، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًا ﴾ (٢) .

فهذه هداية المعونة ، وفيه فرق هنا بين الإسلام والإيمان ، لأن الإيمان لا يحتاج فقط إلى الاعتقاد ، إنما هو حمل النفس على مطلوبات الإيمان ، ولذلك نجد كفار قريش رفضوا أن يقولوا : « لا إله إلا الله » لأنهم علموا أنها ليست مجرد كلمة تقال ، ولكن لها مطلوبات تتعب فى التكاليف الناتجة عنها بـ « افعل ولا تفعل » ، فالتكليف يقول : « افعل » فى شىء هو صعب على المكلف ، ويقول : « لا تفعل » فى شىء من الصعب أن يتركه المكلف » .

ويضيف الشيخ الجليل الشعراوى :

أن الله سبحانه وتعالى يشرح صدر المؤمن للإسلام ، بعد أن علم أنه قد اعتقد شريعة التوحيد ، ورضيها واطمأن بها ، فيأتى إلى فهم التكاليف ، لأن صحيح الإسلام يقتضى الانقياد لأمور التكاليف ، فمن أخذ الهداية الأولى

---

(١) الأنعام : ١٢٥ (٢) مريم : ٧٦

وآمن بربه يخفف الله عنه تبعات العمل ويشرح صدره للإسلام ، وشرح الصدر قد يكون جزاء ، فالله سبحانه هو القائل :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ (١) .

والمقصود بهذا القول هو رسول الله ﷺ ، فقد جازاه ربه بذلك ، لأنه أدى ما عليه وصمد ، كان الله يريد بالإيمان من المؤمن أن يقبل على الله ، وحينما يقبل على الله يبحث ليتعرف على المراد والمطلوب منه ، فيعلم أنها التكاليف . . فإذا رأى الله من العبد الإستعداد المتميز بقبول التكاليف : فإنه يخففها عليه لا بالتقليل منها ولكن بأن يجعله يشتهيها .

وقد يلزم العبد نفسه أشياء فوق ما كلفه الله ليكون من أهل المودة ومن أهل التجليات ، ويلتفت لنفسه ، وهو يقول : لقد كلفنى الله بالقليل وسبحانه يستحق الكثير ، فيزيد من طاعته ويجد أمامه دائماً الحديث القدسى الذى يقول الله فيه :

« من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها » .

وإذن فمعنى : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » : أى يجعل الأمور التى يظن بعض الناس أنها متعبة فإنه بإقباله عليها وعشقه لها يجدها مريحة ويقبل عليها بشوق وخشوع .

ولذلك فالله سبحانه وتعالى يترك فى خلقه مثلاً للناس : فنجد المال عزيزاً على النفس حريصة عليه ، لأنه إن كان المال قد جاء بطريق شرعه الله وأحله فهو يأتى بتعب وكد ، لذلك يحرص عليه الإنسان ، فيجعل الله الحنان فى قلب العبد من أجل البذل والعطاء .

---

(١) الشرح : ١

فنجد المؤمن يعطى للسائل ، لأن السائل هو الجسر الذى يسير عليه المسلم إلى الثواب من الله ، فيقول العبد المؤمن للسائل : مرحباً بمن جاء يحمل زادى إلى الآخرة بغير أجرة .

ولذلك عندما جاء أحد المسلمين إلى الإمام على - رضى الله عنه - وكرم وجهه ، وقال له : « أنا أريد أن أعرف أأنا من أهل الدنيا ، أم من أهل الآخرة » ؟ .

فأجابه الإمام على بمقياس للإيمان فى نفس كل مؤمن وقال له : إن جاءك من يطلب منك وجاءك من يعطيك ، فإن كنت تهش لمن يعطيك فأنت من أهل الدنيا ، وإن كنت تهش لمن يأخذ منك فأنت من أهل الآخرة » .

وينتقل الشيخ الجليل الشعراوى إلى الجانب الآخر من الآية الكريمة التى نعيش بين يديها وهو المتمثل فى قول الله تعالى :

﴿ وَمَنْ يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاءِ ، كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

ثم يطرح فضيلته سؤالاً يقول : وهل هذا تجن من الله على خلقه ؟ .

ويجيب فضيلته بقوله :

لا ، لأنه ما دام دعاهم للإيمان فآمن بعضهم وصاروا أهلاً للتجليات ، وكفر بعضهم فلم يؤمنوا ، فصاروا أهلاً للحرج وضيق الصدر ، فليس فى الأمر تجن .

ومعنى (الضيق) : أن الشىء يكون حجمه أقل مما يؤدى به مهمته ، فحين يقال : ضاق البيت بى وبعيالى ، فهذا يعنى أن الرجل وزوجه فى البداية عاشا فى غرفتين ، وكان البيت متسعًا ، ثم أنجبا عيالاً كثيرة ، فضاق بهم البيت .

وهكذا نعلم أنه لم يطرأ شىء على الجدران ومساحة البيت ، لكن حين زاد عدد الأفراد شعر رب الأسرة بضيق المنزل .

---

(١) الأنعام : ١٢٥

والانتقال إلى (الصدر) وهو محمل التنفس والرئة ، فبه تأخذ الأكسجين وتطرد ثانى أكسيد الكربون ، وعندما يصاب الإنسان بنوبة برد نراه وهو يجد صعوبة فى التنفس ، كأن حيز الصدر صار ضيقًا ، فلا يدخل الهواء الكافى لتشغيل الرئتين ، ويحاول الإنسان أن يعوض بالحركة ما فاته فيتردد نفسه متتابعاً لأن الحيز قد ضاق .

(والحرج) معناه : الحجز عن الفعل ، كأن تقول : حرجت على فلان أن يفعل كذا ، أى ضيقت عليه ومنعته أن يؤدى هذا العمل « كأنما يصعد فى السماء » ، ويصعد بتشديد الصاد والعين يعنى مشقة الحركة التى يفيدها تضعيف الفعل ، وذلك بسبب مشقات التكليف ، لأنه لم يدخلها بعشق ، فلا يدخل إلى مشقات التكليف بعشق إلا المؤمن ، فهو الذى يستقبل هذه التكاليف بشرح صدر ، وإنبساط نفس ، وتذكر بما يكون له من الجزاء على هذا العمل ، والذى يسهل مشقة الأعمال حلاوة تصور الجزاء عليها ، فالذى يجتهد فى دروسه إنما يستحضر فى ذهنه لذة النجاح فى نفسه مستقبلاً وفى أهله .. أما الذى لا يستحضر نتائج ما يفعل فيكون العمل شاقاً عليه .

ويضيف شيخنا الشعراوى قوله : أن التعبير (بالسماء) فى قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ يفيد مشقة الأمر على الكافر ، فصعود السلم يأتى بمشقة على الجسم ، ولكنها قد تكون محتملة مع أنها تصيب الإنسان بالجهد ، ولنا أن نتصور مشقة الجهد على الكافر بالتصعيد فى السماء .

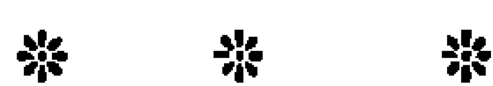
ويأتى ختام الآية الكريمة التى نعيش بين يديها قوله تعالى :

﴿ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

(والرجس) هو العذاب ، وهذا العذاب إنما يأتيهم بسبب كفرهم ، وعدم إقبالهم على التكليف .

ويختتم شيخنا الشعراوى لقاءه معنا اليوم بقوله : إنه مع هذا البيان القرآنى لا معنى لقول الكافر : إن كفره بإرادة الله ، فلماذا يعذبه الله ؟ فقد دله الله على الطريق ، ولكنه لم يسلكه ، واختار طريق الكفر والضلال .

الدكتور / توفيق محمد شاهين



محتويات الكتاب

الصفحة

خامسًا : الملاحق :

رقم الإيداع : ٩٠٢٠ / ١٩٩٦
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 19 -1437 - 5

كتب للمؤلف

- علم اللغة العام.
- عوامل تنمية اللغة.
- المشترك اللغوى: نظرية وتطبيقا.
- أصول اللغة العربية: بين الثنائية والثلاثية.
- غراس الأساس.

تحقيق وتعليق

(العلامة ابن حجر العسقلانى .. شارح البخارى)

- كتاب اللغات فى القرآن ..

تقديم وتحقيق وتعليق

(رواية ابن حسنون المقرئ المصرى

باسناده إلى ابن عباس رضى الله عنه)

- الإمام ابن القيم: لغويا ــ ومفسرا: